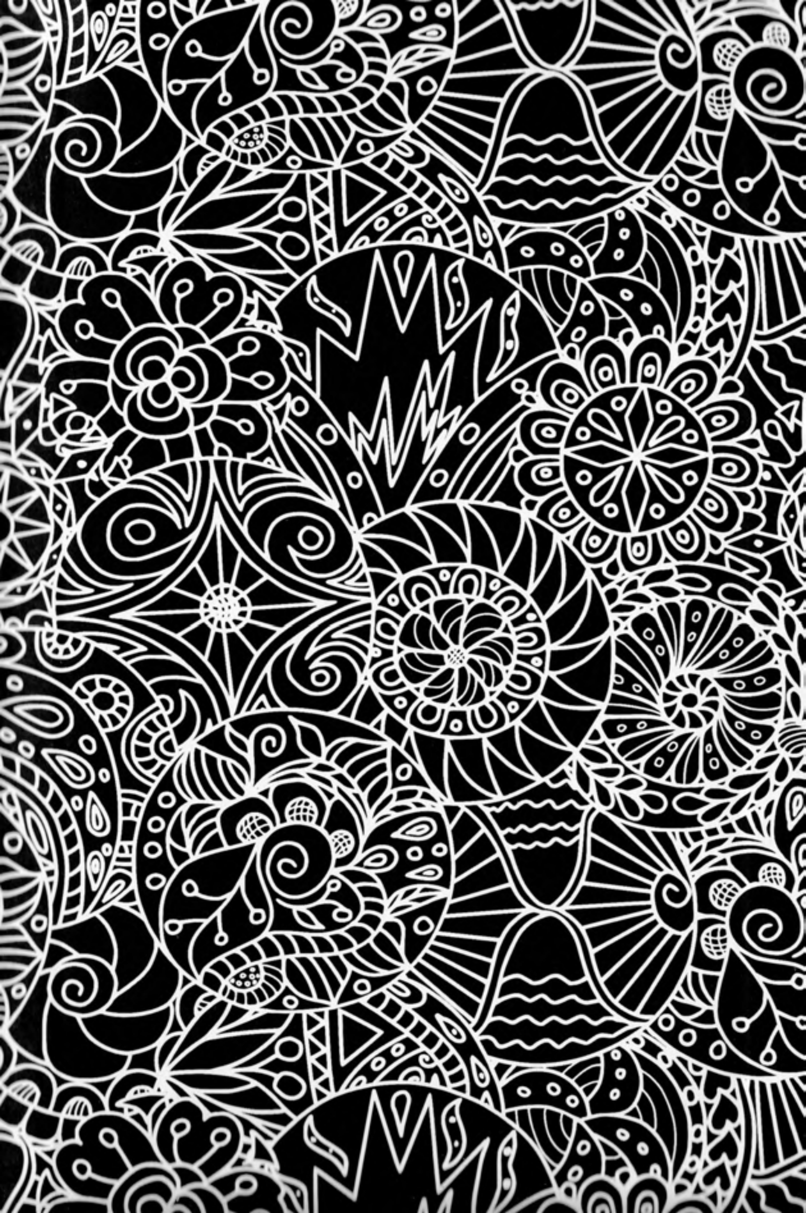


رواية
ڤيتالينو برانكاتي
أنطونيو الجميل
ترجمتها عن الإيطالية:
وفاء عبد الرءوف البيه
مكتبة
المتوسط



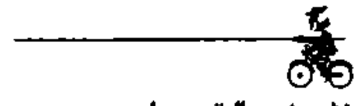
أنطونيو الجميل





المؤلف: ڤيتاليانو برانكاتي / المترجم: وفاء عبد الرءوف البيه
عنوان الكتاب: أنطونيو الجميل / تحرير: خضر الآغا / الطبعة الأولى: 2020.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-70-3



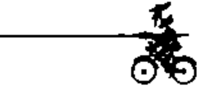
منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

فيتالينو برانكاتي

أنطونيو الجميل

ترجمتها عن الإيطالية:
وفاء عبد الرءوف البيه



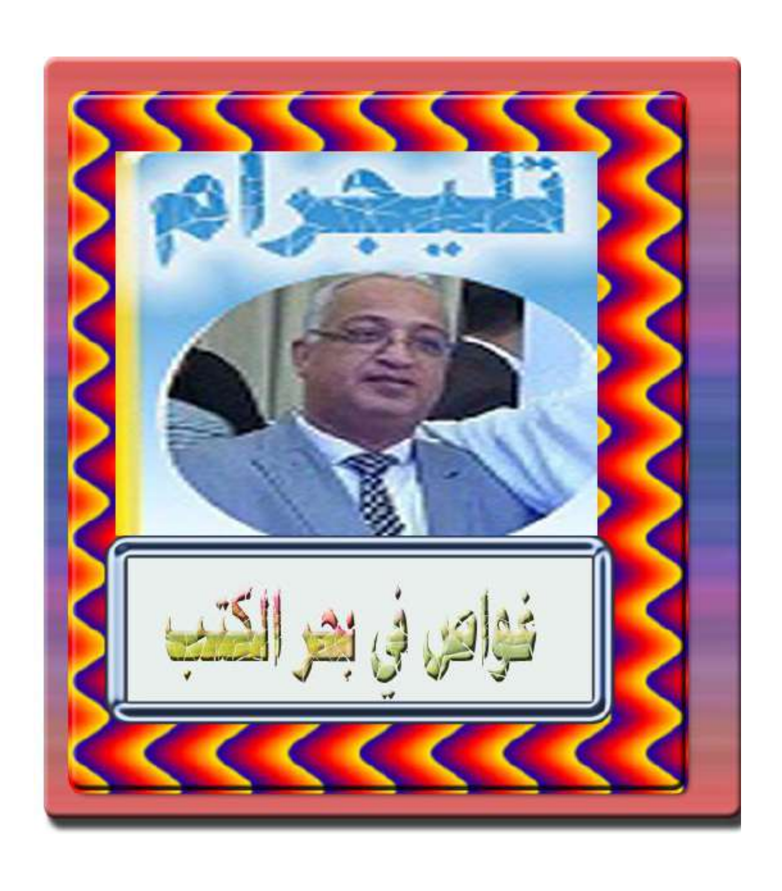
المتوسط

يائس، وليكشفَ لنا عن هامشية الحُبِّ، إذا ما قُورن بالمال، والسياسة، في تلك الصورة النَّمَطِيَّة عن الاتِّحاد بين الرجل والمرأة.

تعكس الرواية توجُّه إيطاليا في الخمسينيات، ليس فقط في المسارَيْن السِّياسيِّ والاجتماعي، بل في المسار الفنِّيِّ أيضاً. فقد صدرت في أوج حركة "الواقعية الجديدة"، التي التفتت موضوعيّاً للتعبير عن الواقع المحليِّ، في شتَّى مناحيه، وهكذا تدور الرواية، في أغلبها، بعيدة عن مركزية العاصمة، لتكشف لنا عاداتٍ وأعرافاً جنوبيةً أصيلة. ورغم أن روايات الواقعية الجديدة قد كُرِّسَت لتجربة كُتَّابها الشَّخصيَّة ومُعاناتهم تحت حُكْم الفاشية، إلَّا أن رواية برانكاتي تسيطر فيها نزعة الزّهوّ الذكوري على أُفق الفاشية التَّاريخيِّ والإيديولوجي بشكل مباشر، حين تنتقل نظرة برانكاتي من الحياة العائلية إلى الحياة العامَّة، من منازل البرجوازيِّينْ إلى مراكز النفوذ السِّياسيِّ، ومن المشاعر والرغبات الشَّخصيَّة إلى التاريخ الإيطالي والأوروبي بين عامَي 1930 و1943.

في ثلاثيَّته، يستعيد برانكاتي شخصية دون جوفاني (دون جوان) الأسطورية، لكنه يربط بينها وبين الفخر الذكوري المسيطر على مجتمعه الصقلي. كانت شخصية دون جوان الأصلية، التي كتبها تيرسو دي مولينا عالم 1630، غامضة إلى حَدٍّ ما، فهو رجل يثير الإعجاب أينما حلَّ، يعيش البطولة بقلبه وعقله، لكنه يبدو "عاجزاً" عن التأقلم مع التقاليد، كرجل لا يملك سوى حاضره فقط، يعيش من أجل أهوائه ورغباته. وهكذا تبدو، أيضاً، شخصية أنطونيو مانيانو كما رسمها برانكاتي، في جمالها الساحق، ونقائها "الإجباري"، ولا مبالاتها وعَجْزها عن التَّحوُّل من البطولة الأسطورية إلى الحقيقية.


أنطونيو
الجميل


تليجرام
غواص في بحر الكتب

إلى زوجتي

"آه، مسموح لنا على الأرض أن نسعد.

هذا ما أدركتُهُ يوم تطلَّعتُ إليكِ".

ليوباردي


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الفصل الأوَّل



"يتطلَّبِ الكَفُّ عن النظر إليه جهداً".

سانت - سيمون

"وبعيداً عن القدِّيس بطرس صوب السموات، أراني أين يجلس الغرباء، وهناك مرحنا طوال اليوم".

شكسبير

من بين أهل صقلية الغرباء الذين استقروا في روما حوالي عام 1930، استأجر ثمانية على الأقل - إذا لم تخنِّي الذاكرة - منزلاً مؤثَّثاً لكلٍّ منهم، في أحياء قليلة الصخب، لا يرتادها الكثيرون، وانتهى المآل بهم جميعاً تقريباً إلى السّكنى بالقرب من آثار شهيرة، لم يعرفوا عن تاريخها شيئاً، ولم يلحظوا بهاءها، بل لم تقع عليها أعينهم حتَّى. فما الذي يمكنه تحويل أعينهم القلقة عن التقاط المرأة المشتهاة بين الزحام المترجِّل من الترام؟ قباب، بوابات، نافورات ... لم تنجح الأعمال التي شغلت فكْر مايكل أنجلو، وبورومينى لسنوات - قبل أن تُنفَّذ وتكتمل- في نيل نظرة من العين السوداء النهمة للضيف الوافد من الجنوب! ولم تحظَ الأجراس العتيقة، ذات الصوت الثقيل والحسَّاس، والتي استحقَّت أبيات شيلي وجوته بأكثر من عبارات على شاكلة "كم هو ضخم هذا الجرس!"، "كم هو مزعِج هذا الجرس!"؛ لأنها هزَّت بدَقَّاتها عند الفجر الجدار الذي يسند إليه الشَّابُّ جبينَهُ النائم للتَّوِّ، وهو لا يزال مخضَّباً باللون الأحمر لقبلة إحداهنَّ.

ولما تحمله مهنتي كراوٍ للحقيقة من احترام، أقول إن هؤلاء الغرباء الصّقليِّين كانوا يميلون، في الأغلب، إلى الدمامة، عدا أحدهم، أنطونيو مانيانو، الذي يتمتَّع بوسامة عظيمة. ومع هذا لا أريد أن أؤكِّد أن مَنْ يتَّسمون بالدمامة كانوا لا يجذبون النساء، بل إن كثيراً منهم، بالرغم من قِصَر القامة، والأنوف المجدوعة، وظفر الإصبع الأصغر الذي تُرك ينمو، ليُنظِّف ما داخل الأذن، كان يجمعهم بجنس النساء نوع من التواطؤ الخطير، فقد كان من الممكن أن يُشاعَ وقوع فعل بذيء بينهم وبين أيِّ امرأة دون أن يدري أحد كيف ومتى، ولم تبدُ المرأة ناكرة لذلك، حتَّى إنها - حال رؤيتهم لأوَّل وَهْلَة - لم تكن تُظهِر معرفةً سابقةً بهم، بينما يشحب وجهها، وتكشف في الحال عن تورُّطها معهم في أخطاء قديمة، يستحيل الاعتراف بها. لذا كان كل ما يحقِّقونه من نجاح يوحي دوماً بنوع من الابتزاز، بالرغم من أن هؤلاء الرجال ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين - وأستطيع أن أُقسمَ على ذلك - كانوا يتمتَّعون برقَّة واحترام، لا مثيل لهما مع الجنس الآخر. لكنْ، ربَّما يكون الرجل الدميم هو الكائن الأكثر غموضاً على تلك الأرض المفعمة بالغموض.

كانت نجاحات أنطونيو مانيانو من نوع آخر. ففي عام 1932، وهو في السادسة والعشرين، كانت صوره المعروضة في ميدان إسبانيا تأسر حتَّى السَّيِّدات في منتصف العمر، اللواتي يزدحمنَ بحقائب الشراء، ويسحبنَ طفلاً تُغرِقُ وجهَهُ الدموعُ باليد ذاتها التي ضربتْهُ. تشعُّ عذوبة تلقائية من وجهه الذي يميل إلى السمرة، ويزداد دُكْنَةً عند الذقن بشكل واضح، ولكنه شديد الرِّقَّة، تكاد الدموع تحفره تحت العينَيْن، أعلى الوجنَتَيْن، حيث تُلقي الرموش الطويلة بظلالها أحياناً. كانت أكثر السَّيِّدات اضطراباً وعصبيةً تُؤخَذ، بجواره هو الصامت، بهذا التثاؤب الذي يُهدِّئ الأعصاب، ويدفع إلى النهوض من المقعد للاسترخاء على الأريكة، ثمَّ للنهوض من الأريكة للاسترخاء على الفراش، وقد يواسي أيُّ مراقب سطحي وحاقد ذاته، بأن

النساء ينتابهنَّ الملل في صحبة أنطونيو. أيُّ خدعة كبرى! فالنساء يشعرنَ معه بالاستسلام، وبحُرِّيَّتهنَّ الكاملة والتَّامَّة في الوقت ذاته؛ تتوهَّج النساء إلى جواره في عذوبة شديدة، ويعانينَ، ويَفقِدنَ صوابهنَّ برقَّة بالغة، تدفع إلى التفكير في استيلاء إحدى حالات الجنون الخطيرة عليهنَّ مازجة المتعة بالألم في هذا الفَقْد الكامل للصواب، والذي يعتبر الحالة الوحيدة التي يجرؤ فيها أيُّ شخص على الصراخ بصوت مرتفع قائلاً: أنا أشعر بالسعادة!

كان الأصدقاء الدميمون يحترمون أنطونيو، وكان من الممكن أن يحقدوا عليه، أو يمقتوه، إذا لم يُغرموا به هم أيضاً - ودون أن يُدركوا ذلك -، تأثُّراً بالنساء اللَّواتي يصادقونهنَّ. كان سرّ نجاحات أنطونيو، المختلفة بشدَّة عمَّا يُحقِّقونه هم، بل والمعاكسة تماماً؛ هو أنه بينما تبدو انتصاراتهم على النساء مُنتزَعَة في أعقاب القيام بفعل مشين، بدت انتصاراته هو - على النقيض - نابعة من الشعور الغريب بالراحة الذي يثيره في ضحاياه، يجذبهم حتَّى إنهم كانوا يضبطون المنبِّه على الخامسة تماماً، ويخرجون في الصباح الباكر، ليُفاجِئوا أنطونيو وهو يستحمُّ، وهنا تنتظرهم المرارة بصنوفها كلها. فأمام أعضاء الأوليمبيِّين تلك، والتي أضفى عليها شحوب الحزن والوداعة عذوبة، كما لو أن هناك - حيثما يوجد هذا الجسد - ضوءاً غامضاً يُمطره من أعلى، كان الأصدقاء، خاصَّة لويجي دي أجاتا، وكارلو فيسكيتي، يُصابون باضطراب، يُخفون فيه شعوراً بالسُّخْط على أنفسهم.

"أتعرف كيف تبدو؟" كانوا يقولون له ليُخرِجوا، على الفور، صوتهم الذي يخاطر بأن يصبح شرِّيراً، إذا ظلَّ حبيس صدورهم المعذَّبة: "كعكة تخرج للتَّوِّ من الفرن".

ثمَّ كانوا ينشغلون بتوجيه اللكمات إلى كتفَيْه العاريَتَيْن، وشدّ شَعْر صدره، ورَفْع إحدى قَدَمَيْه، مع الإمساك بها من الكعب، وهم تحت تأثير انطباعات غريبة سماوية بشكل لا يمكن إنكاره، انطباعات تصدر من جسده وتتخللهم وتسبب لهم اضطراباً.

من جانب آخر، كان أنطونيو يثير هذه الاضطرابات مذ كان صبيّاً: في يوم 5 إبريل عام 1922 اضطرَّ الأب والأمُّ لأخذِ الأمر بعين الاعتبار. ذلك الصباح، اندفعت الخادمة - وهي فتاة ريفية - إلى حجرة أبوَي أنطونيو، السَّيِّد ألفيو والسَّيِّدة روزاريا، بوجه ممزَّق، تُغرِقه الدموع.

"بحقِّ السَّيِّدة العذراء، ماذا فعلتِ؟" هتفت السَّيِّدة وهي تنزع الإناء من يَدَي الفتاة المرتعدَتَين، "ماذا فعلتِ؟ تحدَّثي!".

أحنت الفتاة رأسها وهي تنظر كقطَّة تصطنع المذلَّة. وأخيراً قالت:

"لم أكن أنا!".

"مَنْ إذنْ؟" سألت السَّيِّدة وهي تشعر بمرارة لا مثيل لها.

"ولدكِ!" همست الفتاة.

"أنطونيو؟" صاح الأب وهو يجذب قَدَمَيْه من الفراش بعد أن دسَّهما في السروال الدَّاخليِّ الصُّوفيِّ متدبِّراً ذلك تحت الأغطية. "سأؤدِّبه الآن!"

رانت لحظة صمت، ثمَّ انهارت الفتاة بَغْتَةً على أرضية الحجرة، وأخذت تتلوَّى بعنف، واللُّعاب يسيل من فمها، وهي تتشبَّث بساقَي السَّيِّد ألفيو، كما لو أنها تريد منعه من ارتكاب جرم ما. في تلك اللحظة، دخل أنطونيو الحجرةَ بأقصى ما يمكن تصوُّره من عذوبة وصفاء. وعلى الفور، تخلَّت الفتاة عن ساقَي السَّيِّد ألفيو، واتَّجهت، وهي تتقلَّب على الأرض، لتتشبَّث بقَدَمَي أنطونيو الذي بدا مندهشاً بصدق، وسأل أبوَيْه بعينَيْه عن سبب ذلك الهياج.

كانت الفتاة تُمرِّغ وجهها بقَدَمَي أنطونيو، بعد أن نزعت - وهذا بالضبط ما أزعج الأبوَيْن وأثار حفيظتهما -، الخُفَّين، وألقت بهما بعيداً بشكل يسمح لها بالبكاء، وفرك وجنَتَيْها وفمها على الجِلْد العاري. "اغفرْ لي!" صرخت، "أنا كاذبة، كاذبة وقذرة!".

انتزع الأب أنطونيو بصعوبة شديدة من يد الفتاة ذات العشرين ربيعاً الفاقدة رشدها، ومن ذقنها الملتحم بالكتف.

أدركت الأمُّ الحقيقةَ أخيراً بعد أن مكثت بمفردها مع الفتاة: منذُ خمس ليال تنهض الفتاة الرِّيفيَّة المجتهدة من فراشها، وتذهب لتُمزِّق وجهها وصدرها خلف باب أنطونيو، بين الرغبة في اقتحامه، والتَّردُّد في القيام بفعل مشين. "مَنْ أشعل هذه النار الكبرى في عروقي؟" كانت تئنُّ، وأسنانها تعضُّ على ظَهْر كفِّها. "مَنْ أشعل هذه النار الكبرى في عروقي؟".

اهتزَّت مشاعر السَّيِّدة لهذه القصَّة المؤثِّرة، واتَّجهت على الفور إلى قسِّ الاعتراف في كنيسة العذراء الصغيرة في شارع القدِّيس إيلوبيو. وبعد أن قصَّت له ما حدث، سألتهُ وهي تكاد تبكي: "أيُّها الأب جوڤاني، أليس من الأفضل أن أُحضر صبيّاً لخدمة المنزل، وأن أصرف الفتاة؟".

دقَّ القسُّ العجوز بأطراف أصابعه على طرف علبة التبغ مرَّتَين، ومطَّ شَفَتَيْه: "إذا كانت نوايا ابنكِ سيِّئة، سيجد دوماً سبيلاً لإيذاء النساء!" (لم يكن الأب جوڤاني يريد قبول أن أنطونيو لم يكن مُخطئاً بالمرَّة).

"ألا يمكن نصح النساء بـ...؟".

"بماذا؟" سأل الراهب الغاضب.

"بأن يتصرَّفنَ بشكل أكثر جدِّيَّة معه!".

"أأنتِ على علم بكل السَّيِّدات اللَّاتي يعرفهنَّ ابنكِ! أيستطيع الله أن يرسل ملاكاً ليُنذركِ كل مرَّة بأن ابنكِ على وشك ... على وشك ... أجل على وشك أن تتدفَّق الدماء إلى رأسه؟".

"إذنْ، ماذا يجب أن أفعل؟".

كان القسُّ يدرك أنه يُغذِّي ضدَّ أنطونيو مشاعر غير طيِّبة بالمرَّة، لكنْ - ويا للأسف - عندما يستولي الغضب عليه، لم يكن ينجح في

مقاومة ذلك الإحساس الممتع بالفراغ المفتوح تحت قَدَمَيْه، والذي يجذبه لأسفل بلا هوادة.

"أنتِ" - قال للأُمّ - "يجب أن تُصلّي لله حتّى يستردّه سريعاً!".

كادت السَّيِّدة تَفقِدُ وعيها من شدَّة الخوف، وبدأ الملاك الخشبي الملوَّن الذي كانت قد أسندت رأسها إلى قَدَمَيْه في التَّأثُّر لنحيبها.

"عندما أعظُ" - قال القسُّ - "بينما يجلس ابنكِ في نهاية الكنيسة، تظلُّ أعناق النساء ملتوية للخلف لمراقبته ... إنها فضيحة!".

في الحقيقة، بمجرَّد أن يحرِّك أنطونيو الجالس أسفل العمود الأوَّل المقعد، أو يتنحنح، يكتسي المنبر بأشدّ النظرات فتنة.

"الموت" - أكمل الراهب - "لا يعتبر شرًّا حقيقيّاً لأيِّ مسيحي مُخلص، بل إنه، إذا ما أتانا في زهرة الشباب، يكون هبة من السماء ... لكنْ، لن نكون نحن مَنْ يقترح على الله الطريقة المُثلى لوضع شابٍّ مثل أنطونيو على طريق عدم ارتكاب الخطيئة مجدَّداً، و... وأضاف رافعاً صوته - "عدم حمل الآخرين عليها؛ لأن أسوأ ما يمكننا فعله ليس إيذاء أنفسنا، سيِّدتي العزيزة، بل دَفْع كائن آخر لا نملك عليه أيَّ حقوق إلى التهلكة! صلِّي لله، يا سيِّدتي: في حكمته البليغة اللَّامتناهية، سيجد هو السبيل لجَعْل الجمال الشَّيطانيّ لابنكِ أكثر اعتدالاً دون أن يُحوِّله إلى رفات وعظام!".

نهضت السَّيِّدة دون أن تنسى رسم علامة الصليب عند ذِكْر القسّ كلمة "شيطانية". ولو لم تكن الكنيسة ملأى بالحلي المذهَّبة، والأضواء الصفراء، لأثّار وجه تلك المرأة البائسة عطف الراهب لشحوبه الشديد.

"بأيِّ طريقة تعتقد" - قالت بإنهاك - "أن الله قد يُغيِّر من ابني أنطونيو؟".

لم ينبس القسُّ ببنت شَفَة، وسارت هي إلى جواره، تسمع وَقْع خطواته، مأخوذةً كَمَنْ لاقى هزيمة منكرة.

عندما بلغا باب الكنيسة، رفع الراهب يده التي ما زالت تقطر بالماء المقدَّس، وتمتم: "من الممكن أيضاً أن يَفقِدَ البصر!".

رفعت السَّيِّدة يدها نحو فمها، لتمنعَ نفسها من إطلاق صرخة.

"هلُمِّي" - صاح القسُّ، وقد استولى عليه الغضب. وما إن قاد السَّيِّدة إلى الفناء الملحق بالكنيسة، وَلاَكَ كلمة غير مفهومة ثلاث مرَّات، وهو يمطُّ شَفَتَيْه بشكل غيَّر من ملامح أنفه، حتَّى انفجر في هذه الكلمات: "لكنْ، أتعلمين؟ أتعلمين، أنه من بين عشرين فتاة ينتمينَ إلى عائلات طيِّبة يعترفنَ معي، عشرة، أجل، عشرة عصينَ الله، لأنهنَّ فكَّرنَ في ابنكِ مرَّات كثيرة، وبطريقة لا تتناسب تماماً مع تربيتهنَّ؟ بعد ثلاثة أيَّام من اعتراف ابنة أختي، أخبرني السَّيِّد كافالارو: "أيُّها الأخ، تصرَّفْ بطريقة، لا تجعل ربنا ترى غالباً الشَّابَّ مانيانو! - "صديقي" - أجبتُ مضطرباً - "أتعلم شيئاً؟"، - "أنا لا أعلم شيئاً عن أيِّ شيء" - أجاب السَّيِّد - "وكيف لي أن أعرف أنا القسُّ الفقير أن الله أوحى لي هذه الكلمات، وقد أخبرتُكَ بها...؟" - إن السَّيِّد كافالارو شخص فاضل للغاية! على زوجكِ أن يُزكِّي به عند كبير الأساقفة ... لكنْ، أيبدو لكِ صحيحاً" - وهنا رفع صوته مجدَّداً - "أن يكون المذبح الأعظم يوم الأحد داخل الكنيسة لفتيات العائلات الطَّيِّبة، حيث يجلس أنطونيو؟".

عادت السَّيِّدة إلى المنزل شاردة، وانتظرت عودة أنطونيو وهي تفرك يَدَيْها من القلق، كما لو أن الابن قد ذهب لقتال الملاك الأعظم جبريل! وبلغ خوفها ذروته عندما عاد الفتى إلى المنزل مُمسِكاً بزوجٍ من العدسات الطِّبِّيَّة.

"أنتَ تَفقِدُ البصر!" صرخت المرأة الطَّيِّبة.

أجاب أنطونيو بابتسامة جذلة بأن النَّظَّارة ليست ذات مقاس معيَّن، وأنه يضعها فوق أنفه فقط، ليتَّخذ مظهراً مثيراً للاحترام.

ضمَّتْهُ الأمُّ بقوَّة إلى صدرها، وهي تُصلِّي لقدِّيسي السماء كلهم حتَّى

يجعلوا أفراد الجنس الآخر جميعهم الذي تنتمي هي إليه - وتخشاه الآن - يغمرون هذا الفتى في المستقبل بالأحاسيس نفسها التي تنتابها هي في تلك اللحظة.

لكنْ، للأسف، لم يستجب الله لذلك الرجاء. فالنساء يشعرنَ تجاه أنطونيو بإحساس مخالف تماماً للأمومة التي يعتبرنَها جميعاً عقاباً من الله. كانت تجربة مريعة، وغير محتملة أن يصرنَ أُمَّهات أو أخواتٍ لأنطونيو، مع الالتزام بعدم الارتجاف عند مصافحته.

بمساعدة من الحظّ، وفي مكان تعتبره إيطاليا، وخاصَّة الجزء الجنوبي منها "الجنَّة"، كان يمكن لشابٍّ آخر لا يتمتَّع بوداعة وبساطة أنطونيو، أن يصير، بالتأكيد، لا مبالياً، متشكِّكاً وماجناً، إلا أن أنطونيو احتفظ ببساطة القرويِّين، وهو ما استمر عليه حتَّى عندما انتقل إلى روما بعدما أنهى دراسته الجامعية وتخرَّج من كُلِّيَّة الحقوق.

بعد أن أثَّث منزله، الذي يطلُّ على جاليريا بورجيزي، بأثاث صقلي قديم، كان والده يُرسِلُه من كتانيا في مركب ضخم بطيء، بدأ أنطونيو يرى تلوُّن الخريف الأوَّل، والثاني، ... والرابع على أشجار هذه الحديقة التي تنتشر بها كبائن الصيد، في انتظار غير مبرَّر حقّاً لتعيينه في وزارة الخارجية، دون أن يدري أحد لماذا في هذه الوزارة بالذات.

في عام 1932، كان من المألوف أن يصبح أحد الشباب قنصلاً، أو وزيراً لسبب مقبول، لكونه وجيهاً ومعتبراً، وغامضاً بالقدر ذاته. "فلان لم يدخل المسابقة" - يقولون - "ليس لديه مؤهِّلات، وبالكاد يردِّد بعض الكلمات الفرنسية ... ومع ذلك، تمَّ تعيينه في مفوَّضيَّة فيينا سكرتيراً أوَّلاً، في إشارة إلى مكانة عالية تنتظره، ومستقبل عريض!".

لكن الشباب الذين يصادفون هذا الحظَّ كانوا ينهمكون في عمل مُرهِق، ويتحكَّمون بشكل جيِّد في قلوبهم، فلا يمكنهم، بعد ذلك، أن يُغرَموا بامرأة

لا تكون "مؤثِّرة"، أو يعقدوا صداقةً مع رجل لا يكون "ذا نفوذ". كان كل ما يُعتَبَر ضَعفاً، مذلَّة، بُؤساً وبليَّة يثير في نفوسهم مَقْتاً شديداً.

ظلَّ أنطونيو - على النقيض - كسولاً، ومخلصاً كخادم مقهى صقلي في عصر أحد أيَّام أغسطس، حيث يقضي الهواء الساخن الرطب على أيِّ قدرة على التظاهر، وأيِّ اجتهاد دبلوماسي، بل وعلى أيِّ درجة من الاجتهاد، ويُغري الزبون بالعدول عن اختيار أيِّ شيء من قائمة المُثلَّجات، وإذا ما طلب، بالرغم من التنبيه المتُكرِّر، "نارنجاً" أو "مشمشاً"، لا يعيره الخادم اهتماماً بسبب الإرهاق، أو المَلَل.

هكذا ترك الأعوام تمرُّ، مُحيِّياً، بإشارة ابتهاج، الرائحة الأولى للفحم التي تنبعث من أقبية العمارات، لتعلن بدء التدفئة للشتاء الوافد. "بحقِّ الله" - كان يردِّد - "هذا العام، هذا العام ..."، ويفرك يَدَيْه بقوَّة، ثمَّ يأخذ شهيقاً، ويذهب ليتطلَّع إلى نفسه في واجهة أحد المحلاَّت الزُّجاجيَّة، مكتشِفاً بالتأكيد وجود سيِّدة إلى جواره تراقبه برقَّة. كان أنطونيو يُرخي جفنَيْه سعيداً، ويُتمتم: "لنقمْ بمغامرة، هه؟".

ولكنْ، تملَّكه في خريف عام 1934 حزن غريب، ومفاجِئ، وقد اتَّخذ هذا الحزن في نهاية نوفمبر شتَّى مظاهر الكآبة.

- "إنكَ تُثير ضِيقي!"- قال له صديقه دي أجاتا وهو يأكل معه - "ماذا بكَ؟ ماذا ينقصكَ؟ ألم يعد أبوكَ يُرسِلُ إليكَ المال؟".

- "المسكين"- همس أنطونيو – "يمكن أن يغشّ في أوراق اللعب، ليرسلَ لي المال!".

- "هل سمعتَ أخباراً سيِّئةً عن الوظيفة؟".

- "لا أعبأ بالوظيفة أبداً".

سأل دي أجاتا بَغْتة: "أتشعر بالمرض؟".

أنطونيو: -"لا، أنا بصحّة جيّدة". ساد صمت طويل. -"أنا بصحّة جيّدة".

- "إذنْ، بحقِّ الله، توقّف عن إثارة ضِيقنا بتعبير وجهكَ هذا!".

- "من الأجدى أن تكفُّوا أنتُم! دعوني وشأني!".

- "لن أقول لكَ شيئاً بعد ذلك ... أوه، تخيَّلْ أنه ليس لديَّ ما أتأسّى عليه، ويجب أن أتأسّى على غيري!".

وهكذا اتَّفق الأصدقاء على عدم توجيه أيِّ أسئلة إليه.

في الثاني من ديسمبر قامت الآنسة لويزا دريهير، ابنة أحد الدّبلوماسيِّيْن، وأجمل فتاة أجنبية في إيطاليا بزيارة أنطونيو في العاشرة صباحاً، وهي الزيارة التي لم يدعُ لها مَنْ تلقَّاها، ولا أعلنتْها مَنْ قامت بها. لم يحلم أنطونيو في نزهاته مع لويزا دريهير بأن يدعوها إلى منزله، فقد كانت دعوة مماثلة تبدو له عملاً غير لائق تجاه مَنْ يجب أن تُوفِّر له وظيفة لا يستحقُّها.

وها هي هنا، هذه الفتاة الرائعة، جالسة على مقعد خشبي، تعتصر منديلاً حريريّاً بين كفَّيْها الدقيقين المحتفظين بلون شمس الصيف الذَّهبيِّ!

لم يقلْ أنطونيو شيئاً.

كانت الفتاة، ووجهها شطر اليمين، تراقب طرف قَدَمِها، وهو يدقُّ على البساط في نفاد صبر.

ظلَّ أنطونيو صامتاً.

بَغْتة انطلق جرس الهاتف في الحجرة الأخرى. هُرِعَ أنطونيو ليجيب، بعد أن أغلق خلفه باب حجرة الصالون: "أجل؟".

"إنه أنا، دي أجاتا، "هل لويزا دريهير في منزلكَ؟".

"كيف عرفتَ؟".

"آه، إذنْ، هذا حقيقي: إنها في منزلكَ!".

"وإذنْ؟".

"اسمعْ، لقد أقاموا حفل استقبال في مقرِّ السفارة أوَّل أمس، ولقد ثملت الفتيات، وتبوَّلنَ في المزهريَّات!".

"وإذنْ؟".

"إذنْ، لا تكنْ أبله!".

وضع أنطونيو سمَّاعة الهاتف بعنف، وعاد إلى الصالون.

كانت لويزا تُمرِّر أناملها بالقرب من فمها؛ لتمنعَ دمعة توشِك على التَّسلُّل إليه.

- "لماذا تبكي؟" سأل أنطونيو.

هبَّت لويزا من مكانها، وألقت ذراعَيْها حول عنق أنطونيو مستندة بوجنتها على صدره، -"أُحبُّكَ!" - وهي تنتحب - "أُحبُّكَ!".

داعب أنطونيو شَعْرَها، وهو يتطلَّع بتراخٍ، عبر النافذة، إلى الضوء الأخضر الكثيف الذي تعكسه فيلاَّ بورجيزي داخل السماء.

- "لا أريد منكَ شيئاً"- أكملت لويزا وهي تنتحب - "لا أبغي الزواج! لقد نسيتُ في منزلي خطاباً من والدكَ، وقد قرأتُهُ".

- "أيّ خطاب؟" علَّق أنطونيو.

- "خطاب يُخبركَ فيه أنه يجب أن تعود فوراً إلى كتانيا، لتتعرَّف إلى الفتاة التي يريدونك أن تتزوجها!".

- "لا يمكنكِ قراءة خطِّ أبي!" - تمتم أنطونيو - "أنا نفسي لا أستطيع فكَّ طلاسمه ...".

- "أنا لا أبكي لذلك ... لا أريد أن أتزوَّجكَ، لقد قلتُ لكَ ذلك، أنا أكتفي بنفسي، ولا أريد الزواج من أحد".

- "وإذنْ؟" سأل أنطونيو بصوت مرتعش.

- "أُحبُّكَ، أُحبُّكَ! افهمْني، يا الله، أُحبُّكَ!".

شحب وجه أنطونيو حتَّى صار كوجه الموتى، وجلس، بل سقط، تقريباً، على الأريكة.

وفيما كان النحيب يهزّها، انزلقت لويزا إلى جواره بسترتها الصوفية اللطيفة المعطرة، وعنقها المغطى بالمساحيق، وأسندت جبهتها الفاتنة التي كانت تزينها بصليب صغير من الألماس في حفلات استقبال السفارة، ما بين ذقنه وعنقه، وبحثت عن قلبه بأصابعها الدقيقة المرتعدة تحت الرداء، كما لو أنها أرادت أن تعرف ما إذا كان ينبض.

كان قلب أنطونيو يثب كجواد. بالطبع ينبض! وعلى متن هذا الجواد الجامح كان هو يتّجه سريعاً نحو المرارة الأشدِّ سوداوية.

لم تعد لويزا تعرف ما تفعل، فَقَدَتْ أيَّ قدرة للتَّحكُّم في نفسها، شعرت بيدها الخجلة والخائفة تضيع على غير هدى تحت رداء أنطونيو.

- "لن أطلب منكَ شيئاً!" - قالت وهي تنتحب - "كنْ واثقاً! اطمئنّ! لن أُسبِّب لكَ أيَّ إزعاج! فأنا امرأة جادَّة! لستُ كالأخريات!".

- "ومع ذلك" - قال في محاولة يائسة ليبدو قويّاً وشرِّيراً، وهو يمسكها بمعصَمَيْها ليُبعدها قليلاً عنه، ويتفرَّس في وجهها - "أنتِ كالأخريات!".

قطبت لويزا ما بين حاجبَيْها، محدثة تجعيدات شابَّة ومُحبَّبة عند طرف عينَيْها وأنفها: -"ماذا تريد أن تقول؟ ألا تدري ما تقول؟!" ثمَّ اندفعت: "أنا فتاة، ماذا تظنُّ؟ أنا فتاة، فتاة!" بذل أنطونيو جهداً ليبتسم بسخرية، الأمر الذي بدا له مزعِجاً ومقيتاً بشكل كبير؛ لأنه فتى حاذق، ويستطيع التميز بين متحدِّث صادق، وآخر كاذب. "إن أكثر مواطنيكَ سخافة وبدائية- أكملت لويزا بصوت أكثر تمهُّلاً، وعمقاً- إذا تزوَّجني لن يجد ما يشكو منه، أعلم أن النساء في جزيرتكَ، عندما يذهبنَ لقضاء ليلة الزواج الأولى في فنادق تاورمينا، يصرخنَ كدجاجات تُنتزَع أعناقهنَّ، أنا لن أصرخ حتَّى لو

قُطِعَتْ عنقي، لكنْ، عموماً ... سيكون لي الحقُّ ... لماذا تشحب؟ ماذا بكَ؟ أتنتظر شخصاً؟ مَنْ يوجد خلف ذلك الباب؟" تلوَّن وجه أنطونيو قليلاً، فَمِنْ خلف الباب المؤدِّي إلى حجرة النوم حدثت ضجَّة خفيفة، كما لو كان هناك شخص يستند عليه من الجهة الأخرى.

- "أتوجد امرأة هناك؟" سألت لويزا خافضةً من صوتها.

- "أجل" أجاب، وأحنى رأسه.

امتلكت لويزا زمام نفسها مرَّة أخرى. نهضت من الأريكة، وهي تجذب حقيبتها الصغيرة من فوق المائدة، وأخرجت منها مرآة، ترى فيها عينَيْها اللَّتَيْنِ اِكْتَسَتَا بلون رماديٍّ، جفَّفت الدموعَ بلمسَتَيْنِ من فرشاة التجميل.

- "وداعاً"- قالت - "وداعاً، ومعذرةً".

وخرجت.

هُرِعَ أنطونيو إلى باب حجرة النوم، وفتحه على مصراعَيْه، وتلقَّى على فمه، تقريباً، قبلة من الكلب البربون الذي قفز - وقد نفد صبره انتظاراً لرؤيته - بقوَّة نحوه، مُصدِراً نُباحاً مختنقاً في حلقه. أمسكه أنطونيو من أُذنَيْه، وحاول وَقْف وتهدئة ذلك الرأس التي جنَّ من الفرح ما إن داعبه، وأخذ يمطره من بين خصلات الشَّعْر الكثيف بنظرات الحُبِّ الشديد. ثمَّ تمدَّد على الأريكة، ومدَّد الكلب فوق صدره وبطنه، بشكل جعله يحاول، بين الفينة والأخرى، وهو يتراجع على قَدَمَيْه الخلفيَّتَيْنِ، لعق ذقن أنطونيو الذي كان يُبعدها شطر اليمين رافعاً إيَّاها في الهواء.

هكذا مضت بضع ساعات. كان اللون الرَّماديُّ يغزو السماء فوق فيلاَّ بورجيزي، وغراب يدخل، ويخرج بين طيَّات السحاب، وهو ينعق بهدوء في كل انحناءة يتَّخذها في طيرانه.

رفع أنطونيو، برفق، الكلب الذي أثقله النوم، ووضعه على البساط، ونهض أخيراً بعد أن تمطأ مرَّتَين. ألقى نظره عبر النافذة؛ بعيداً عن البينشو بدا الضباب أكثر كثافة، كما لو أن نهر التيبر يحجب السماء بالبخار المنبعث من تنفُّسه، وظهرت الأبنية، التي تتواشج مع أشجار فيلاَّ بورجيزي، أكثر اصفراراً من المألوف، وفي الطريق، وقف المخبر المعتاد، المتنكِّر في زيٍّ شابٍّ ينتظر فتاته، والمرابض عند تقاطع شارع بينشانا مع شارع سجامباتي، برأسه العاري يقرأ داخل القبَّعة التي يمسكها في يده الرواية العاطفية المعتادة، التي يكسر بها المَلَل الطويل في حراسة حياة رجل يمرُّ بسيَّارته مُسرِعاً مرَّة كل شهرَين.

"يا الله، كم هي كئيبة روما!" فكَّر أنطونيو، وخرج من المنزل، بعد أن ارتدى معطفه، وداعب قليلاً بطن الكلب الذي كان ينام على ظهره رافعاً قَدَمَيْه في الهواء منتظراً تلك المداعبة.

بهذه الطريقة انقضى الجزء الأوَّل من نهار، سيظلُّ أنطونيو يذكره لأعوام طوال.

ولا أدري إن كان أنطونيو قد توجَّه في اليوم ذاته أم في اليوم التالي إلى الخال إرمينجيليدو فاسانارو - شقيق والدته - الذي يسكن في أحد أحياء المدينة الجديدة.

كان الخال يسير ذهاباً وجيئةً في حجرة الصالون، وقميصه الحريري خارج بنطاله، وربطة العنق غير المعقودة تتدلَّى من طرفيها على الصدر المستدير للرجل ذي الخمسين عاماً.

- "من الأفضل أن تعود إلى كتانيا!" قال الخال، وهو يتوقَّف بين الفينة والأخرى في مواجهة النافذة، حاجباً بجسده إمَّا انحناءة نهر التيبر عند فيلاَّ جلوري، أو مهبط الفيلاَّ.

- "ماذا تفعل في روما؟ أتريد أن تكتشف عمق هذا الشيء؟ ليس له

عمق، أؤكِّد لكَ. تعكف عليها أيَّاماً وليالٍ، وتستهلكك كشمعة تحترق! وجهكَ مرهَق، تسقط دائماً من النوم كقطٍّ ظلَّ شارداً طوال الليل! يا للشيطان! يجب أن تعرف كيف تُوفِّر قواكَ مع النساء! اجعلهنَّ يُدركنَ ذلك! يسهل خداعهنَّ لمَنْ يملك قليلاً من العقل! أنا واثق أنكَ أحد هؤلاء الذين يُضحُّون بأيِّ شيء مقابل تحقيق معدَّل مرتفع كل ليلة ... هل الأمر كذلك أم أنا مُخطِئ؟".

- "لكنْ، أنا في الحقيقة ....".

- "لنفترض أنكَ مُحقٌّ. النساء يداعبنَكَ بيد، ويحصينَ المال بالأخرى. لكنْ، ويا للشيطان، يسهل خداعهنَّ! يحتاج الأمر فقط لقليل من الحنكة! ولا يعني هذا أنه لا توجد نساء ماكرات، ينتبهنَ للتفاصيل الدقيقة، ولكنه مكر الحمقاوات؛ لأن المرأة الذَّكيَّة تعلم أنه لا بدَّ من الاعتناء بأشياء أخرى أيضاً. يجب أن تعرف كيف تُوقِف نفسكَ: هذا كل شيء ... وهو على نقيض ما يقوله القذر الذي يحكمنا ... بالمناسبة، هل صحيح أنه يعاني من قرحة في المعدة؟".

- "لا أعرف، يا خالي!".

- "يقولون إنه يعاني من قرحة في المعدة ... بل، أمس، بينما كنتُ أجلس في أحد المقاهي، سمعتُ من مائدة تُجاوِرُني أحد ضبَّاط البَحْرِيَّة يقول بصوت خافت لزميله: - سنبلغ ما نريد: إنه سرطان، وليس قرحة! - أنا واثق من أنهم كانوا يتحدَّثون عنه ... لا؟ أتقول لا؟".

- "لم أقلْ شيئاً!".

- "بحقِّ الله، أنتَ لا تُلقي بالاً للسياسة، لا تهتمّ بشيء على الإطلاق! أراهن أنكَ لم تقرأ كارل ماركس؟".

- "لا!".

- "ولا تقرأه! بما أنكَ لم تقرأه في الثلاثين من عمركَ، لا تقرأه بعد ذلك،

دعكَ منه! في زمننا، كنَّا نقرؤه. بل لم نكن نقرؤه، لكننا كنَّا نتحدَّث عنه كأننا قرأناه ... اشتراكية! إلغاء الملكية! ماذا تظنُّ؟ أيمكن إلغاء الملكية؟ أنا لا أظنُّ ذلك. من جانب آخر، أصبحنا عبيداً لكل ما ينتجه العوامّ: كهرباء، راديو، هاتف، سكك حديدية، ترام. وبما أننا عبيد لهذه الأشياء، صرنا عبيداً للعوامِّ، وهؤلاء لشياطينهم. يصبحون في غاية الطِّيبة، ويعملون بسعادة، ورضاء فقط تحت حكم الفاشية والشُّيوعيَّة، وما إن تمنحهم الحُرِّيَّة حتَّى يصيروا تعساءَ، أشراراً ومُدمِّرين، ويهتاجون حتَّى يُحطِّموا كل شيء، ويطؤوه بأقدامهم ... هل تتَّفق معي؟".

- "أجل ، يا خالي!"

- "من جانب آخر، إذا أرادت الغالبية الاشتراكية، فلا بدَّ للعالَم أن يصير اشتراكيّاً".

- "من الممكن".

- "من الممكن ومن غير الممكن. فليست هذه المرَّة الأولى التي تريد فيها الغالبية شيئاً، ويكون للتاريخ رأي آخر".

- "يُحتمَل هذا أيضاً".

- "ما هو؟".

- "أن يكون للتاريخ رأي آخر".

- "وما هو؟".

- "لا أعرف".

- "من جانب آخر يتَّسم الأغنياء - وأنا أضع نفسي بينهم - بالسَّماجَة".

- "لكنْ، أنتَ، يا خالي ...".

- "صدِّقني، نحن سمجون، أغبياء، فاسدون، ونشعر بالمَلَل. ولا يمكن أن تستمرَّ الحياة حتَّى النهاية هكذا: الأغنياء في جانب، والفقراء في الجانب الآخر! أشعر بذلك، يا الله، أشعر بأنها لا يمكن أن تستمرَّ هكذا!".

- "مَنْ بوسعه قول أيِّ شيء؟".

- "من جانب آخر، لمَنْ تَكِلُ رأس المال؟ للدولة؟ لنتحدَّث بصراحة: الدولة هي الموظَّفون. لِيَحْمِهِم الله ويُخلِّصهم! فالموظَّفون، بخلاف أنهم جميعاً في إيطاليا لصوص ... لا، من غير المجدي أن تشير برأسكَ هكذا، إنهم جميعاً لصوص!".

- "أنا لم أتحرَّك، خالي!".

- "... عندما يملك الموظَّفون في كل مكان في العالَم سلطةً مطلقةً، يصيرون طُغاةً حتَّى إن الأباطرة الرومان - مقارنة بهم - يبدون كالأطفال ... لا، ستكون الاشتراكية كالعصر الوسيط!".

- "آه، بالطبع!".

- "من جانب آخر، كما وُجِد العصر الوسيط من قبل، يمكن أن يتكرَّر مرَّة أخرى ...".

- "آه، أجل!".

- "من جانب آخر، لماذا يجب أن يوجد العصر الوسيط مجدَّداً؟ مَنْ أقامه؟ مَنْ أقرَّه؟ ... إننا نحن أنفسنا الذين وضعنا في رؤوسنا أشياءَ بعينها، وظننَّاها حقائق، مثل اعتقاد البشر بأن ليلة الألفية الأولى ستكون نهاية العالَم - التي لم تقعْ بعد ... لا، لا أعتقد أن العصر الوسيط سيوجد من جديد!".

- "ولا حتَّى أنا أعتقد ذلك".

"من جانب آخر، أليس ما نحن عليه اليوم في إيطاليا هو شكل من أشكال العصر الوسيط؟"

- "لا أعرف ..."

- "أجل ، هو كذلك! عزيزي نينوتسيو، فقط السرطان يمكنه إنقاذنا، إذا أنهى الأمر سريعاً!"

- "يقولون إنه يعاني من قرحة زَهريَّة، وليس سرطاناً!"

- "وتقول لي هذا الآن؟ ... بحقِّ الله، لقد انتهينا! فالقرحة الزُّهريَّة تُشفَى بعد حقنَتَيْن ... من جانب آخر، إذا مات، ماذا سيحدث؟ مَنْ سيتولَّى السلطة، اللصوص الأربعة الذين يحيطون به سيتقاتلون عند توزيع الغنائم أم الشُّيوعيُّون الذين يقبعون في السجون؟ سيكونون أسوأ من الفاشيِّين؛ لأن هؤلاء، على الأقلّ، خاملون، والحماقات التي تسيطر على عقولهم تضرُّ بهم، بينما يتمتَّع أولئك بالشرف والصرامة، وتنفعهم الحماقات التي تسيطر عليهم ...".

- "بالفعل، هذا صحيح!"

- "من جانب آخر، أنا أتحدَّث عن الشُّيوعيَّة بخفَّة بالغة، فماذا إن كانت شيئاً جادّاً ونافعاً؟".

- "يقولون إن ...".

- "يقولون إن، لا شيء على الإطلاق! حتَّى لو كانت الشُّيوعيَّة ذات نفع - وأؤكِّد لكَ أنها ليست كذلك! - سأتمرَّد أنا؛ لأنها لا أخلاقية بسبب قَمْعها للحُرِّيَّات ...".

- "كنتُ أريد قول ذلك".

- "من جانب آخر، مَنْ أيضاً يمكنه تَوَلِّي السلطة إذا مات هو؟ العجائز الذين يقبعون الآن في المنازل، ويقتنعون بابتعادهم عن المسؤولية، فقط لأنهم لا يقرؤون الصحف ولا الكُتُب، ويلعبون الورق طوال اليوم؟ إنهم عجائز، ولا يستطيعون السيطرة على العوامِّ ...".

- "بالطبع، دون شكٍّ".

- "من جانب آخر، ليذهب العوامُّ إلى الجحيم! إذا أرادوا الموت، أنا لا أريده! وهل أنا سأساوي شيئاً، يا للخيبة، حتَّى لنفسي؟ من جانب آخر،

ربمّا كان كل ما قلتهُ خاطِئاً؛ لأنه في عام -1922 وأنتَ لا تذكر ذلك - كان العمَّال يعودون للعمل بهدوء، والاضطرابات تقلُّ كثيراً، عندما نزع القَذرُ الحُرِّيَّةَ من العمَّال ومنَّا. لا، أنطونيو، العمَّال الإيطاليون مثلهم مثل الطبقة الوسطى، ويُحبُّون الحُرِّيَّةَ. إنه هو، القذر، الذي يريدنا أن نعتقد أنهم لا يُحبُّونها! قلْ لأمِّكَ أن تُصلّي حتَّى يموت، بدلاً من أن تُصلّي، كي لا يصيب الصقيع يَدَيْكَ! ليهلكَ بأسرع ما يكون، قبل أن أهلكَ أنا من المَلَل والتَّقزُّز! لقد أخبروني أمس شيئاً، إن صحَّ، لما عاد للحياة جدوى. سيقومون بتعيين لورينزو كالديرارا سكرتيراً فيدرالياً لكتانيا، هل هذا صحيح؟

- "أعتقد أجل".

- "كالديرارا، ابن المجدور، ابن أخ بانشا دي كروسكا، شقيق الحمار؟! يا الله، يا الله، يا الله! المدينة التي شهدت دي فيليتشي، وماكي، وفيرجا، وفيلليني، وأنجلو موسكا، وجوفاني جراسو، وكابوانا، وصديقي دى روبرتو، تصير على هذا الحال، تحت قَدَمَي لورينزو كالديرارا الملقَّب بالجذع، المنافق، بليد العقل، الذي لا يمكن مصاحبته، الحيوان عديم الإحساس، الذي استطاع الأصدقاء إقناعه ذات يوم بأن القُفَّازات الحديدية تُباع في الصَّيدليَّات؟".

- "أيّ قُفَّازات؟".

- "دعكَ من هذا، يا أنطونيو! لكنْ، من جانب آخر، ماذا كان عليه أن يفعل بنفسه؟ العاجز الذي ...".

بُهت وجه أنطونيو كقطعة ثياب بالية، وأسند رأسه إلى ظَهْر المقعد، وهو ينظر إلى خاله بعينَيْن مُنهكَتَيْن بشكل بائس.

- "ماذا بكَ؟"- هتف الخال - "ماذا حلَّ بكَ؟".

أغلق أنطونيو عينَيه بقوَّة، ومائلاً برأسه إلى الأمام، أسند جفنَيْه إلى

سبَّابة وإبهام إحدى يَدَيه، وبالأخرى أشار للخال أن يصمت، وبأنه ليس هناك ما يخيف، فهو على وشك التَّحسُّن.

- "يا بنيّ" - أكمل السَّيِّد عندما رفع أنطونيو رأسه، وأراحها بعينَيْن مغلقَتَيْن على ظهر المقعد - "يجب أن ترحل وتعود مباشرة، وبلا توانٍ إلى كتانيا! إذا مكثتَ هنا، ستأكلكَ النساء حَيّاً بملابسكَ التي ترتديها ... فأنا، أجل أنا، العجوز، لا يسمحن لي بالراحة: فما بالكَ برجل له مثل سنِّكَ، و... أجل، لطفكَ! ... سيلعقن وجهكَ، بشحوبه هذا، كحلوى الكراميل ... لكنْ، دَعْنا من هذا! لنتحدَّث عن أشياء جادَّة! أنا أعرف باربرا بوليزي، الفتاة التي يريدون تزويجها لكَ. سمعتُها تعزف الكمان في الليلة التي كان يحتفل فيها خالكَ بمرور ربع قرن له في خدمة الكنيسة. لن أقول لكَ إنها تعزف بشكل متفرِّد، لكنْ، من جانب آخر، ماذا يهمُّكَ؟ إنها ثريَّة، تملك نصف باترنو. تربَّت داخل أحد المعاهد الدِّينيَّة ... مع هذا، لا أريد أن أقول إنها عبقرية ... من جانب آخر، يجب على المرأة ألَّا تكون عبقرية أبداً. يكفي أنها ليست غبية، وإذا كانت غبية، ماذا يهمُّكَ؟ هذه هي الحياة! هيَّا! تشجَّعْ!

بعد ثلاثة أيَّام رحل أنطونيو إلى كتانيا، تبعه كلب ضخم، رشيق، ومتهافت، وعلى الرغم من ارتطام الحقائب بوجهه، وركْل مَنْ يسيرون مرهقين في الاتِّجاه المعاكس، والارتطام بمظلَّات السَّيِّدات العجائز الغاضبات، استمرَّ في تتبُّع الكلب الأبيض البربون الذي عقد معه صداقة في لمح البصر عند المدخل، والذي ما كفّ، رغم طوقه وجَذْب أنطونيو السريع له، عن النَّظر خلفه، هو الجميل والممشَّط جيِّداً، نحو ذلك الصديق المهذَّب شديد القُبح.

عند شبَّاك عربة القطار انتظر لويجي دي أجاتا الذي احتضن أنطونيو، والدموع في مقلتَيه، وقال له بنبرة لوم: - "ليباركَكَ الله، ترحل الآن عندما تبدأ الأمور في التَّحسُّن! تخيَّل أنهم ابتكروا لعبة جديدة أمس في بيت

الجنرال، إذا قصصتَها في كتانيا، لَمَا صدَّقوكَ حتَّى لو لفظتَ أنفاسكَ الأخيرة أمامهم! تُدعى لعبة الصِّدق. تستطيع أن توجِّه أيَّ سؤال، وعلى الآخرين أن يجيبوا بصِدْق. سألوا السَّيِّدة بولليني: إذا تسلَّل لصوص إلى هنا، والسلاح في أيديهم، وأجبروكِ على الذهاب إلى الفراش مع أحد الحاضرين، فهل يمكن أن تُخبرينا، من فضلكَ بصِدق، مَنْ ستختارين؟".

- "والسَّيِّدة؟" سأل أنطونيو، وهو يصعد إلى القطار مع كلبه، وأطلَّ من النافذة.

- "السَّيِّدة" - أكمل دي أجاتا من فوق الرصيف - "اكتسى وجهها بالاحمرار، يعلم الله في أيِّ شيء كانت تفكِّر في أعماقها، لكنها - وحتَّى لا تُثير فضيحة، وتسمح للآخرين بالاطِّلاع على أفكارها - أجابت في إرهاق بفمها الصغير الذي كان على أحدهم أن يُمطِرَهُ بالقبلات: - "مع السَّيِّد الجنرال!" - أجل، قُصَّ ذلك على توفالو! تريد أن تذهب إلى الفراش مع السَّيِّد الجنرال! ... ثمَّ سألوني: - مع أيِّ السَّيِّدات الحاضرات تريد أن تذهب إلى الفراش؟-".

- "وأنتَ؟" سأل أنطونيو، وهو يأخذ بين ذراعَيْه الكلب البربون بطريقة تُمكِّنه من تحيَّة الكلب الآخر الذي ظلَّ رابضاً أسفل النافذة، كما لو أنه قد نسي ما الذي جاء به إلى هنا، ولا يجد ما يدفعه للعودة أدراجه.

- "لقد أجبتُ" - صاح دي أجاتا -وشرع في العَدْوِ أسفل النافذة، لأن القطار بدأ في التحرُّكِ مع الكلب الذي يعدو إلى جواره في خطى غير منتظمة- "مع السَّيِّدة برتيني والسَّيِّدة جالاراتي-".

- "مع الاثنَتَيْن معاً؟" سأل أنطونيو.

- "أجل، مع الاثنَتَيْن" أجاب دي أجاتا، وهو يُلوِّح بمنديل، ويضحك بفم مفتوح، ويشد أُذنه اليمنى، ثمَّ اليسرى، ثمَّ اليمنى مجدَّداً بسرعة كبيرة، الأمر الذي قد يجعل الصديق، الذي يذهب في طريقه إلى الجنوب الخالي من المغامرات، يحظى بواحدة على الأقلِّ من تلك المداعبات.

الفصل الثاني

"الكاتب المُشوَّش يضيف كلمة واحدة فقط؛ لأن الوقائع التي ادَّعى من خلالها رسم الحكاية هي كلها من اختراعه".

ستاندال

"كانوا يُكرِّرون أنني أخون الثقة، التي منحوني إيَّاها بكَشْفي سُخفهم للعيان. يُكرِّرون أنهم بظهورهم أمام ناظري على حقيقتهم، قد حصلوا على وعد منِّي بالصمت. لم أكن قطُّ على علْم بأنني قد قبلتُ بهذا الاتِّفاق الجسيم للغاية. لقد أظهروا استمتاعاً بانجرافهم في الرغبة، كنتُ أوضح ذلك مراقِباً وواصفاً إيَّاهم".

كوستانت

"العبودية تُذِلُّ البشر حتَّى يقعوا في غرامها".

فوفينارجوي

يقع بيت عائلة أنطونيو في الطابق الثالث والأخير من منزل قديم في وسط كتانيا. وتطلُّ بعض شرفاته على الفناء المكتظ بالحبال التي تتفرَّع، بدءاً من كشك الحارس، لتطرق ما يقرب من عشرة أجراس، تتَّصلل بدرابزين الطوابق المختلفة، وتُستخدم لاستدعاء الخادمة، أو صاحبة المنزل.

تتوسَّط الشرفة الصغيرة الجدار الخارجي لغرفة الطعام، كما تتوسط حائط منزل أكثر ارتفاعاً، كان في الماضي مظلماً تماماً وموصَداً، أمَّا الآن، فتقطع هذه الظلمة شرفةٌ اعتاد أن يطلَّ منها عجوز مهيب هو المحامي أرديتسوني الذي لم ينجح في أن يصبح سيناتوراً بالرغم من حديثه المتوهِّج، وثوبه كثير الطَّيَّات، والاستخدام المفرِط لرداء المحاماة، وسبَّابته التي يُشهِرُها على حين غِرَّة في وجه الخصم، واستخدامه لحجَّة تبدو له قاطعة، وهي لوحة زيتية تشغل نصف جدار في صالون جمعية المحامين، يظهر فيها رافعاً السَّبَّابة الشهيرة الموجَّهة هذه المرَّة إلى الأعلى احتراماً، بينما تستند اليد الأخرى على عصا الفاشية متعدِّدة الألوان، وكذلك بالرغم من مكانته ومآثره، وإرساله المئات من صناديق البرتقال للشَّخصيَّات المؤثِّرة في روما، والمكاتبات الهادئة والحادَّة والمُستعطفة والساخطة مع وكلاء الوزراء.

كان يصرخ ليلاً أثناء نومه: - "يا الله المقدَّس، يجلس مخبرون كثيرون كانوا يحملون القيود الحديدية في جيوبهم في قصر ماداما بالفعل، وقد عيَّنتُهُم أنا نفسي مديري أمن، ثم تركوني هنا، وأنا مَنْ أنا، كمكنسة قديمة ... يحيا جوليتي!" - ثمَّ يضيف خوفاً من الاعتقال، إذا كان أحد الجيران من المتعصِّبين - "على الأقلِّ في زمنه لم تكن تحدث هذه الأشياء".

تطلُّ الشرفة من أحد جانبيها على شارع إتنيا الذي يمتدُّ لثلاثة كيلومترات، ويصخب بعربات الترام القديمة، وضربات السياط على ظهور جياد هزيلة، والحوارات، والضحكات، وصيحات باعة الصُّحُف، ويكتظُّ برفع القبَّعات، واللكمات، والإيماءات، والتصادمات، والانحناءات، بينما تطلُّ من الجانب الآخر على شارع عرضي قصير، يؤدِّي مباشرة إلى واجهة كنيسة تطلُّ من تجويفها شديد الارتفاع العذراء ذات العباءة الزرقاء، والأصابع العشرة التي تنبثق منها الأشعَّة، وتُتوِّجها ليلاً المصابيح الكهربائية التي تخترق بضوئها ضباب الذي تُحدثه الرياح الشَّرقيَّة.

في هذه الشرفة، نام أنطونيو ليالي أغسطس في بداية هذا القرن،

ووجهه الصغير يتَّجه شطر ركبَتَي أُمِّه، وهو يُنصِت لهسيس مروحتها هناك في الأعلى، بينما يُدخِّن الأب الجالس بالجوار بقايا التنباك في البايب، ويبصق كل دقيقة، أو يعبُّ من الدورق رشفات كبيرة وصاخبة، وهو يتلمَّظ بعد ذلك شاعراً بالرضى.

- "آه!" - كان يقول - "بحقِّ الله، لا يوجد في هذا العالَم أفضل من المياه الباردة!"

وفي هذه الشرفة، استقبل الأب والأمُّ أنطونيو عند عودته من روما؛ هنا عانقاه، وقبَّلاه، وأتيا إليه بالكعك، بالقهوة، والبيض، واللبن؛ هنا قصَّ عليهم والدموع تترقرق في عينَيْه كيف هرب الكلب الأبيض من شبَّاك عربة القطار المفتوح، ولم يعد مرَّة أخرى، وطالعتْهُ أُمُّه بأوَّل أخبار عن المدينة: - "توفيِّ ابن عائلة ديبولو بالتهاب رئوي. دقَّات قلب العمَّة سانتينا المسكينة تصل إلى ثلاثين في الدقيقة، لكن الطبيب أكد أنه ما يزال بإمكانها أن تعيش مئة عام. انتبه ألا يزلّ لسانكَ على سبيل المزاح بكلمة "قرن" وأنتَ تتحدَّث مع المحامي باليرمو! أنتَ، يا مَنْ تملك هذه العادة السَّيِّئة كأبيكَ!".

-"ولماذا؟".

-"لأن زوجته فرَّت منه يوم الأحد الماضي مع شابٍّ من المكتب... كذلك لا تُحيِّي البارون بينيديتّيني، فقد رأوا ورقة داخل كُمِّه، وهذا يعني أنه كان يلعب الورق في نادي النبلاء! ... توفيِّ ابن روكاديلّو خلال يومَيْن، ولم يجد وقتاً حتَّى لرسم الصليب... الأستاذ كالارا لم يذقْ طعاماً مذ أسبوع، فليحمنا الله ويُخلِّصنا، كل ما يضعه في فمه له مذاق سيِّئ: إذا استمرَّ كذلك، سيموت ...".

- "يا للشيطان" - قاطعها الأب - "ألا يمكنكِ التَّحدُّث عن أشياء أكثر بهجة؟ أنطونيو، هلُمَّ معي قليلاً، ولنتحدَّث كرجال!".

قاد السَّيِّد ألفيو أنطونيو إلى حجرة المكتب، وارتمى على الأريكة ذات المسند المرتفع، المزدحم بأشياء كثيرة تافهة تُهدِّد بسقوطه، وقال مطلِقاً تنهيدةً: -"أعتقد أنني مصاب بذبحة صدرية".

-"ليباركك الله!"- علَّق أنطونيو بمرارة. - "هذا أيضاً حوار مُبهِج!".

-"ليس حواراً مُبهِجاً، لكن يجب أن يُقال".

-"أبي، كم من المرَّات اعتقدتَ أنكَ مصاب بذبحة صدرية، ثمَّ وجدكَ الطبيب سليماً كالحصان؟".

-"من الممكن أيضاً ألَّا تكون ذبحة صدرية، لكنها شيء ما! ... على كل حال، أنا مصاب بداء السُّكَّريّ: لا جدال حول هذا الآن! اكتشفه عندي قريبكَ هذا ... يا للشيطان، ماذا يطلقون عليه؟ ... خالكَ، في الليلة التي ذهبنا للعشاء فيها عنده، وكنتُ أعبُّ الماء. فقال لي: "صديقي، إنه سادس كوب تشربه! قمْ بتحليل للدم غداً على الفور دون تضييع للوقت!" - "في اليوم التالي قمتُ بالتحليل، ووجدوا في دمي سُكَّراً يفوق ما يوجد في أيِّ مُربىً فواكه ... لا ترسم هذا التعبير الجنائزي! أنا ما زلتُ قويّاً، وإلَّا حوَّلتْ أُمُّكَ الموضوع إلى مأساة ... بحقِّ الله، باختصار ... أشعر أنني ما زلتُ رجلاً! ... أقول لكَ هذا حتَّى لا تجد ما تخجل من أبيكَ فيه ...".

اشتعل وجه أنطونيو احمراراً.

-"لماذا احمرَّ وجهكَ؟" أكمل السَّيِّد ألفيو، "أنا لم أحترز قطُّ في حواري معكَ. أنا واثق أنه يزعجكَ أن يكون لكَ والدٌ مرتخٍ، كما أزعجني اليوم الذي أخبروني فيه أن جدَّكَ يدفع تارين، ليستطيع رؤية إحداهنَّ عارية، ثمَّ يُجفِّف وجهه بالمنديل، ويرحل هكذا كما جاء ... لكنه كان في الثمانين من عمره ..." - توقَّف لحظةً - "بحقِّ الله، أنا أشرد، أشرد! هذا الشيء الوحيد الذي لا أستطيع احتماله! لا أتذكَّر أبداً لماذا بدأتُ بالحديث ... آه، ها هو!"- قال متذكِّراً- "أُخبركَ بهذا كله، لأنكَ يجب أن تتزوَّج".

-"لكنْ، يا أبي ...".

-"لا، لا تقلْ أبي! إذا لم تتزوَّج ... ما اسمها؟ يا للشيطان، ما اسمها؟ ... باربرا بوليزي، فهذا يعني أنكَ كارثة على نفسكَ!".

-"أنا لم أرها قطُّ!".

-"لم ترها قطُّ؛ لأنه عندما تروقكَ فتاة، تُدير لها ظَهرك، كما لو كانت قد سبَّتْكَ! ... أنتَ أبله! أنا أقرأ ما يدور في رأسكَ، ماذا تظنُّ؟ أنتَ تخجل من أن تروقكَ الفتيات القويات ذوات الأقدام الممتلئة. لكنْ، لماذا تخجل، أيُّها الغبيُّ؟ إذا أردتَ أن تعرف، كنَّ يَرقْنَ لجَدِّكَ، ولي، ويَرقْنَ أيضاً لـ ... مَنْ كنتُ أريد أن أذكر؟ ... لي! يَرقْنَ لي! ... دَعْنا من هذا! هذه الـ ...! ما اسمها؟ ... باربرا بوليزي، هي فتاة ليس بها خطأ واحد. ثمَّ إنها ثريَّة، تُحبُّكَ، مخلصة ... أوه، ماذا تريد أكثر من ذلك؟".

-"أريد فقط أن أنتظر بضعة أعوام".

-"صديقي، أنتَ تقريباً في الثلاثين. بعد قليل، لن تقدر على فعل شيء ... أقول هذا على سبيل القول؛ لأننا من عِرْق جيِّد، ونمتلك القدرة دائماً، لكن الزواج في الثلاثين شيء، والزواج في الأربعين شيء آخر. أضف لهذا كله أنني لا أستطيع تحمُّل نفقاتكَ في روما بعد ذلك".

-"لكنْ، لماذا صرتَ فقيراً هكذا؟".

-"خلال عشرة أعوام، سيكون لدينا حديقة برتقال تساوي ما يقرب المليون. لكننا وصلنا اليوم إلى الحَدِّ الذي تضطرُّ معه والدتكَ في بعض الأحيان إلى اقتراض نقود من الحارس. لقد بعتُ كل ما كنتُ أملك لأشتري هذه الحديقة، ثمَّ اقترضتُ من البنك، وزرعتُ عشرة آلاف قَدَم من البرتقال ... ثروة، غداً! لكنْ، اليوم، هذا ما يأخذه، وذاك ما يعطيه!" وحرَّك يده في إشارَتَيْن إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة. - "لكنْ، ماذا يعني هذا؟ إنني لأنزع الخبز من فمي لأجلها ...".

-"مَنْ هي؟" قال أنطونيو بكراهية واضحة.

-"الحديقة ... إذا رأيتَها أنطونيو، كم هي جميلة! إنها أجمل منكَ، ماذا تظنُّ؟أهذر؟ ... كل ما في الأمر أنها تستنزف دماءنا! أيّ شيطان جعلني أحمل هذا العبء على ظَهْري؟ ... لا. ماذا أريد أن أقول؟ مبارك اليوم الذي واتتْني فيه فكرة شرائها، مبارك محرِّر العقود الذي وقع العقد! ... لكنْ، أنا أشرد" ... وجذب صدغَيْه بأصابع يده اليمنى، ثمَّ رفع عينَيْه، وهتف بنَفَس واحد، كسائر على حبل يتقدَّم دون أن ينظر يميناً أو يساراً كي لا تزلَّ قَدَمُهُ: "في خمسة أعوام قضيتَها في روما، لم تنجح في فعل أيِّ شيء! أتيتَ على مئة ألف ليرة، تُدمي قلبي كلَّما تذكَّرْتُها!".

- "ليس خطئي" - همس أنطونيو - "التحق شباب كثيرون بالسلك الدّبلوماسيّ بدون مسابقة. أمَّا أنا، فقد وعدني الجميع بالكثير والكثير، ثمَّ عندما كنتُ أعود إليهم لمعرفة ما آل إليه الأمر، كانوا يرتبكون، كما لو أنهم يرونني لأوَّل مرَّة".

- "لكن ذلك الرجل ... هناك ... الوزير، ذلك الكونت الذي لا يساوي شيئاً، ألم يتحرَّك لأجلكَ؟".

- "الوزير ... دَعْنا من الحديث عنه. لقد تصرَّف بشكل أسوأ من الجميع".

- "أتحدَّى" - صاح الأب، ضارباً ساقَيْه بالبايب الذي يمسكه في يده حتَّى أغرق بنطاله بدوائر التبغ المشتعلة.

- "إن لم تسرق زوجته! ...".

- "ليس صحيحاً!" قال أنطونيو بعذوبة.

- "لا أريد أن أعرف إن كان صحيحاً، أم لا! لكنْ، أقول: بالله المقدَّس، ما اسمه؟ ... ذلك الكونت لديه قرون أكثر ممَّا يمتلك خبازٌ من يوماكوني،

لقد فعلها الجميع تحت أنفه، ولم يدرك قطُّ أيَّ شيء عن أيِّ شيء! يجب أن يأتي مسخرة ابني هذا إلى كتانيا ليشعر بالغيرة!".

- "ليس صحيحاً أنه غيور!" - صاح أنطونيو، وقد احمرَّ وجهه من نفاد صبره هذه المرَّة - "ليس صحيحاً أنني عشيق زوجته! كيف يجب أن أقولها لكَ؟ ليس صحيحاً!".

راقبه الأب، وهو يرفع وجهه لأعلى.

- "ليكنْ، إذنْ! -" قال - "لا أريد أن أعرف عن شؤونكَ شيئاً. لكنْ، كيف تفسِّر لي أن يصير رجل مثل "الجذع"، رخوٌ سكرتيراً اتِّحاديّاً، كان ليجعلني، أيُّها السادة، مُنكَّس الرأس لو كنتُ أباه، بينما لا تستطيع أنت أن تجعل إحدى عاهراتكَ تؤمن لكَ مكتباً أو مقعداً في وزارة الخارجية؟".

عند هذا الحَدِّ، اقتحم الحجرة صوت مهيب من ناحية الشرفة: - "سيِّد ألفيو، سيِّد ألفيو، بلغ إلى علْمي أن ابنكَ قد عاد من العاصمة ...".

كان هذا المحامي أرديتسوني، الذي يعلم الله وحده كيف يضطرب في الشرفة إذا مرَّ سرب من الطيور المفزوعة، بالقرب من إحدى نوافذ حجرة الصالون.

- "لنعد إلى الشرفة!" قال الأب لأنطونيو، ثمَّ أكمل في عجلة: - "لتعلم أن المحامي يظنُّكَ عشيقاً لتلك ... أجل ... الكونتيسة ... إذا سألكَ إن كان صحيحاً، لا تجبْ بشيء. إجمالاً لا تقلْ له "لا" بالطريقة التي قلتَها لي بها، سينتهي الأمر وهو يعتقد أن ظنّه صادق".

عندما خرجا إلى الشرفة، وجدا الأمُّ تخفق بيضة أخرى لأنطونيو. كان المحامي يقف في الشرفة ملتحِفاً رداءه المنزلي، وإلى جواره ابنته إيلينا، العانس ذات السادسة والثلاثين عاماً، والتي - كما يشاع في كتانيا - كانت تريد أن يدرك الجميع "أنها قد تجاوزت المحنة" بعد رحلتها إلى سويسرا.

- التفت المحامي قائلاً: "ماذا ستقصُّ لنا عن روما؟ ما الذي يحدث في

تلك البالوعة القذرة التي سيحسن **الدوتشِهْ** التصرف لو حرقها من أسفلها لأعلاها؟ إنهم بالتأكيد ينظرون إلينا -نحن الصّقليِّينْ- بشكل سيِّئ؟ لأننا نتمتَّع بعبقرية يجب أن نعيرها لهم، ولمَنْ يعتقدون أنفسهم أفضل منهم!".

قاطعت إيلينا الحديث بكثير من حركات الغُنْج: "سيِّدة روزاريا، هل رأيتِ أيَّ رموش يمتلك ابنكِ؟ كيف يكون له رموش بهذا الطول؟ ... إنها مراوح، وليست رموشاً! أبي، أليس صحيحاً أنها تبدو كريش المراوح؟".

"يا للحياء! ..." تمتم السَّيِّد ألفيو من بين أسنانه، ودخل دون أن يُلقي التَّحيَّة على أحد.

اضطرَّ أنطونيو للانتظار حتَّى يتحوَّل وجه المحامي من الاحمرار إلى الشحوب، في إشارة إلى أن شريان الفصاحة قد فرغ من الدماء، على الأقلِّ لتلك الساعة، ثمَّ اضطرَّ لأن يترك أمَّه تُقبِّله على الجبين، والجفنَيْن، استجابة لتوصيات العانس الناضجة المحرِّضة بضحكات عصبية من الشرفة:

"قَبِّليه هناك! أسفل قليلاً! لنرى إن كان سيتدغدغ؟ لأعلى أكثر! يا إلهي، يا لها من ذقن! لا بدَّ أنها تنخز كفرخ الصَّنْفَرَة!".

مكث أنطونيو أخيراً بمفرده، ونظر إلى أسطح كتانيا العزيزة، تلك الأسطح السوداء المكتنزة بالقدور، والتين الجافّ، والملاءات التي تدفعها بقوَّة رياح مارس عند الغروب، والقباب التي تبرق، في ليالي العيد، كتيجان من الذهب، ومدرَّجات المسارح المفتوحة الشاغرة، وأشجار الفلفل في الحدائق العامَّة، وسماء الإقليم القريبة والحميمة كسقف منزل، تتوزَّع عليها السُّحُب كما في رسوم قديمة مألوفة، والإتنا المتكوِّر بين البحر وعمق صقلية، وتعتلي ظَهْره وأطرافه عشرات من القرى الغائمة. دخل حجرته، التي يبدو أن رائحتها المختزنة منذ خمسة أعوام مضت، تقيم له ألف احتفال، ككلب ينتظره بإخلاص، وفمه ملتصق بباب الحجرة ... ها هي، في المكتبَتَيْن، الكُتُب الضخمة التي شرع في قراءتها شاعراً بمتع

راقية، قطعتْها بحِدَّة خيالات الحُبِّ، ها هي الجدران المختفية تحت لوحات، ومطبوعات، وأسجاف، وصلبان، وأوعية الماء المقدَّس، ها هي، في منتصف الحجرة، مائدة التَّزيُّن بمرآتها المتحرِّكة، والتي يجب الانتباه إلى عدم دفعها للخلف كثيراً؛ لأنها قد تُلقي أرضاً بضربة من إطارها الزجاجات والقنِّينات المصفوفة أمامها، ها هو غطاء الفراش، وقُرْبَة المياه الساخنة، والكانون، وقفل الباب ... نام أنطونيو مستلقياً على ظهْره، واستيقظ بعد ساعَتَيْن، ودمعة تنسال على وجنَتَيْه، بأيِّ شيء كان يحلم؟ لم يستطع التَّذكُّر، لكنْ، كانت تتملَّكه رغبة عارمة، كما لو كان على وشك إطلاق العنان لبكاء، خنقه أحدهم في حلقه.

- "هيَّا!" - هتف - "أُقسم أمام هذا الصليب على الجدار أنني يجب ألَّا أكون حزيناً أبداً!"

في المساء، قبل دعوة صديقه، وابن عمِّه إدواردو لينتيني الغريبة، كي يقهر إحساسه بالحزن. جاء من روما نائب سكرتير عامّ الحزب شخصيّاً، ليُمكِّن لورينزو كالديرارا من أن يتبوأ موقعه كسكرتير اتِّحاديٍّ: رجل تحتلُّ صدرَه الأوسمةُ بالكامل، وتروقُهُ نساءُ العامَّة. وما إن اكتُشفَت نقطة ضعفه تلك، حتَّى اجتهد بعض المتملِّقين ليجعلوا رجلاً يمتلك هذه القدرة على إتيان أفعال الخير والشَّرِّ، يقضي الليلة على أفضل وجه.

واستجابة لهذه الضرورة، أغلق بنسيون إيروس في الحادية عشرة تماماً أبوابَهُ في وجه زبائنه القُدامى الذين سرعان ما أخذوا في كَيْل السباب، وتوجيه الركلات وإلقاء الأحجار، حتَّى طردهم من الزقاق بعض رجال الشرطة المتنكِّرين في زيٍّ مجنَّدين، يدَّعون الثّمل لدرجة توجيه المسدسات بغير وعي إلى وجوه المارَّة. بعد نصف ساعة، اعتدل هؤلاء الشّرطيّون وأخذوا الشكل الرسمي، فقد كلّوا من أداء دور السكارى، ومن تلقِّي صنوف السباب والصياح من هؤلاء الشباب الذين داروا من الزاوية، وصاحوا في المارَّة: "لترحلوا الآن، ولا تلتفتوا للخلف!".

- "ومَنْ يمانع؟" أجاب بعضهم، وياقات معاطفهم تغطِّي وجناتهم.

في ذلك الوقت، في صالة الطعام بنسيون إيروس، أُضيئَت المصابيح ذات الأربع والعشرين شمعة، وبرقت في واجهات الخزانات الزُّجاجيَّة الأطباق، والأكواب، والكؤوس البيضاء، بينما كانت تتكدَّس على الأسطح الرُّخاميَّة - في فوضى - معاطف وعباءات وقلنسوات سوداء وقبَّعات عسكرية.

تمَّ تقديم أنطونيو إلى نائب سكرتير الحزب على أنه صديق للكونتيسة.

- "أيُّها الرفيق" - قال القائد - "أصحيح ما يقولونه عنكَ؟".

- "ماذا يقولون؟"- همس أنطونيو، ووجهه يشتعل، بينما لورينزو كالديرارا يسرُّ في أذنه: - "لا تُجازِفْ بالإجابة بضمير المخاطب! خاطِبْهُ بسيادتكَ! ... ثمَّ لماذا لم تضعْ الشعار؟".

- "يقولون" - أكملَ القائد - "إن لديكَ حظّاً عظيماً مع النساء، وأنتنَّ؟" - أضاف ملتفِتاً إلى الفتيات الأربع اللَّاتي يحطنَ به وقوفاً، وتستند الطويلات منهنَّ بمرافقهنَّ على أكتاف القصيرات بينما تكشف كلٌّ منهنَّ، عبر الأردية الشَّفَّافة، عن مفاتنها - "لنسمع حكمكنَّ! أيروق لكَ نوع كهذا؟".

سلَّطت النساء الأربع نظراتهنَّ للحظة على أنطونيو، وبالرغم من إدراكهنَّ أن هذا ليس أكثر الأوقات ملاءمة لإبداء المشاعر الصادقة، إلَّا أن ملامح اثنَتَيْنْ منهنَّ، وهما الأكثر والأقلّ جمالاً، بدا عليها بالتَّأثُّر في تلك اللحظة.

- "ما رأيكنَّ إذنْ؟ أيروق لكُنَّ نوع كهذا ..."- وبحركة سريعة ومتغطرسة رفع كُمَّي أنطونيو، وكشف عن معصَمَيه الرقيقَينْ - "أم نوع مثلي؟" ورفع كُمَّيه كاشفاً عن معصَمَين ممتلئَيْن، وكثيفَي الشَّعْر.

نقَّلت الفتيات - حتَّى لا يُجبنَ كذباً - نظراتهنَّ بين المعاصم، وأخذن في الصياح تعبيراً عن دهشة مفرطة، وجلست إحداهنَّ على ركبَتَيْه، وقد تمكَّنت من أن تجذب إليها، من بين الأوسمة والقميص والسترة، خصلة

من الشَّعْر عقدتْها بدورة من أصابعها بشكل لولبي. أرادت النساء كلهنَّ جَذْب تلك الخصلة برفق، وأراد الرجال كلهم، عدا أنطونيو، أن يجعلوا منها موضوعاً لمزحاتهم التي كانت ادِّعاءً مكشوفاً يخفي، خلف قناع رقيق، الرياء الذي تنطوي عليه.

-"لا يوجد ما يُعوِّض أيَّ امرأة عنكِ"- قال لورينزو كالديرارا في تملُّق.

بعد قليل، وصلت زجاجات الكونياك والجين على صوانٍ كبيرة، وبدأت الأعين تلمع ثملاً في وسط دخان السجائر. ذهب نائب السكرتير مرَّتَيْن مع الفتاة نفسها، وأراد مرَّة الذهاب مع صاحبة البنسيون التي رفضت بحسم مهذَّب.

-"أيجب أن نُقصيكِ، يا نيدّا؟ - قال لها لورينزو كالديرارا بنبرة تجمع بين المرح والقسوة، ولم يوضح أيّ الشعورَيْن كان مفتعلاً.

-"لِتُقْصُونيِ!"- أجابت مالكة البنسيون متظاهِرة بالمزاح.

كان على نائب سكرتير الحزب أن يقنع، في خروجه للمرَّة الثالثة من الصالون، بإحدى الفتيات التي سرعان ما تحوَّلت ملامحها اللطيفة إلى القُبح، عندما رأت أن صاحبة البنسيون الناضجة مُفضَّلة عليها.

عندما عاد نائب السكرتير إلى البهو، وقد فُكَّت مجموعة الأوسمة عن صدره، وذراعاه العاريان تحيطان بالفتاة، استقبلوه بالتصفيق.

- سأله المحامي لينتيني : "إن لم أكن فضوليّاً، كم تبلغ سيادتكَ من العمر؟".

-- أجاب القائد : "هه، يا عزيزي،أنا عجوز! ... خَمِّنْ!".

- "خمسة وعشرون! ... خمسة وعشرون! ..."- أجاب هؤلاء الذين أرادوا إبهاجه بجعله يعتقد أن له مظهراً شابّاً.

- "أربعون! ... اثنان وأربعون! ..." - صاح أولئك الذين يريدون إبهاجه بشكل مغاير، وهو أن يدحض أمام الجميع الزعم بأن بلوغ مكانة عالية في السلك السِّياسيِّ قد اقتضى منه هو على الأقلّ سنوات عديدة.

- "اثنان وثلاثون!" أجاب بجفاف.

- "بحقِّ الله!" - هتفت المجموعة الأولى. "لرؤيتك بهذا النجاح مع النساء، لم نكن لنعطيكَ أكثر من خمسة وعشرين عاماً!".

-"يا الله!" - قال الآخرون - "سكرتير للحزب في الثانية والثلاثين فقط؟".

دار الحديث عن الشباب الذي ولّى تحت حكم النظام الجديد، "قيادة الدولة": كان الجميع - بلا تمييز - الوزراء، ورؤساء البلديات، وسكرتارية الاتِّحاد، شباباً، ووكان أكثر شباباً منهم ... وهنا خفضوا من صوتهم، وزال الثمل من وجوههم بجهد جهيد، وتصلَّبوا في مقاعدهم إذ تذكروا كم من المرَّات وقفوا انتباهاً وهم ينطقون هذه الكلمة، وأتوا على اسم أكثر الأشخاص نفوذاً في إيطاليا.

أصبح الحديث لا يُطاق؛ لأنه تطلَّب جوّاً من الجدِّيَّة لا يوفره الثمل والإثارة.

وسعياً لإنهاء الحوار، رفع رقيب شابٌّ إحدى الفتيات، وألقاها على ساقَي لورينزو كالديرارا الذي اشتهر في المدينة بأنه لم يذهب إلى الفراش مع امرأة من العوامِّ قطُّ.

أخذ الجميع في الصياح والتهليل، بينما كانت الفتاة تهمس بدعوات، الواحدة تلو أخرى، مُقرِّبة فمها من أُذن كالديرارا الذي احمرّ وجهه كديك روميٍّ، وابتسم في اقتضاب.

- "هيَّا!" - صاح نائب السكرتير الذي أسرَّ له ببضع كلمات شخص نحيل بنوع من الدّبلوماسيَّة الباهتة الطافحة بالخيال والخصوصية اللذين جعلاه يظلُّ منحنياً، متحدِّثاً بصوت خافت، - "هيَّا، لورنزو، أثبِتْ نفسَكَ! يجب أن يكون سكرتير كتانيا الاتِّحادي رجلاً! أنتَ تفهمني، هه؟ وأنتِ، رفيقة إيلينا، ستأتين إليَّ مباشرة بعد ذلك!".

نهض الجميع، عدا أنطونيو، لينتزعوا كالديرارا من مقعده، ويدفعوه ليخرج من القاعة مع الفتاة.

- "لا تدفعوني!" - قال كالديرارا - "هيه، أقول كفى! سأذهب بقَدَمي! كفى!".

نظر الآخرون إلى نائب السكرتير العامّ خوفاً من أن يكونوا قد تجاوزوا الحَدَّ مع شخص سيظلُّ، من الغد فصاعداً، يحكم هؤلاء كلهم وحده.

- "دعوه!" - هتف نائب السكرتير - "سيذهب بقَدَمَيْه".

-- صاحت صاحبة البنسيون: "لن يذهب أبداً!"

لفتت الكلمات غير المتوقَّعة للسَّيِّدة الوجوه جميعها إليها، الكلمات التي يختفي فيها ببطء - بشكل أو بآخر - ملمح المزاح.

- "لن يذهب أبداً! أوه، بحقِّ العذراء! أيجب أن تدفعوني للسباب؟ ... لن يذهب!".

- "كيف لن يذهب؟" - قال نائب السكرتير -"مَنْ سيعطيه هذا الأمر؟".

- "سآمره أنا"- أجابت السَّيِّدة ضاربة بيدها على صدرها الضخم الذي يهتزُّ تحت الثوب .

انفجر الجميع في الضحك.

- "لا يوجد ما يدعو للضحك، أيُّها الحمقى!".

نهض نائب السكرتير من مقعده ضاغطاً ذقنه لأسفل، ومتنفِّساً بعمق من منخرَيْن شاحبَيْن، رفع ذقنه، على مبعدة خطوة واحدة من السَّيِّدة، ونظر إليها بكراهية كمصارع ثيران يتنحَّى جانباً، ليغرز السيف في جبهة الثور، ثمَّ وجَّه إليها، بَغْتة، صفعة مُدوِّية، ألقت بها صوب أحد الجدران.

تلمَّست السَّيِّدة الأرض بيَدَيها، وتعلَّقت بأحد أسجاف الستائر الذي انفصل عن الجدار وسقط، لتلتفّ حولها بعضُ مباني روما القديمة وشريطٌ واسعٌ من نهر التيبر المرسومة على الستائر.

هُرِعَت الفتيات صوبها، وقد انزلقت في هذه الأثناء على أرضية القاعة، وخلَّصنَها من السِّجْف، دسَّت لها إحداهنَّ كوباً من الماء بين شَفَتَيْها، وصبَّتْهُ برفق في فمها، كما لو كانت وعاءً ساكناً.

بعد أن شربت، هزَّت السَّيِّدة رأسها، ومرَّرت كفَّيْها بقوَّة على عينَيْها، وتطلَّعت إلى الرجال الذين عادوا إلى الجلوس، واحداً تلو الآخر.

- "هل هدأتِ؟" - سألها لورينزو كالديرارا ساخراً.

- "لقد فعلتُ ذلك لأجلكَ، أيُّها الأحمق!" - غمغمت السَّيِّدة جالسةً على الأرض كما هي.

نهض كالديرارا من المقعد، كما فعل قبل ذلك بقليل نائب السكرتير العامّ، ولكنْ، بشكل هزلي، وتقدَّم هو أيضاً بيد مرفوعة تجاه السَّيِّدة.

- "أوه، كفى، كفى!" - قالت بحزم إحدى الفتيات، أطولهنَّ وأجملهنَّ، - "لنُنهِ الأمر!" - ودفعت بيدها كالديرارا، الذي تراجع مترنِّحاً.

- "أيّ أُمسيَّة هذه، بحقِّ العذراء المباركة! ومَنْ ترك لنا هؤلاء الملعونين هنا؟ ... هيَّا، لنذهب!" - ثمَّ قالت ملتفتة إلى أنطونيو بنبرة مَن انتهى من أداء دور كريه، وعاد إلى شخصيته الحقيقية: - "هيَّا بنا، عزيزي! ... يا الله! أريد أن أتنفَّس قليلاً!".

كانت هذه الكلمات كطعنة في القلب بالنسبة للآخرين، فلم يكن من الممكن أن يقال لهم، بشكل أوضح، إنهم غير مرغوب فيهم، وإن كل ما أنجزوه من نجاح في هذه الأُمسيَّة هو محض كذب بلا تمييز.

جذبت المرأة أنطونيو إليها، وبينما كانت تعبِّر بتثني جانبها العاري ويدها اليمنى، عن شبق دافئ وبالغ، ألقت على الآخرين نظرات متعالية وباردة.

-"لقد كانت أُمسيَّة سيِّئة بالنسبة لنا أيضاً، ماذا تظنِّين؟"- هتف نائب السكرتير العامّ ناهضاً من مقعده - "لنذهب!".

تدخَّل إدواردو لينتيني الذي انتابه القلق من أن يُسبِّب ذلك الإنجاز المهين بشدَّة للآخرين متاعب لصديقه: - "لكن أنطونيو سيأتي معنا. لن يظلَّ هنا بالتأكيد، ليُضيِّع وقته!".

- "لن تُضيِّع وقتكَ هنا" - أجابت الفتاة - "سيُضيِّعه معكم في تلك السخافات كلها التي تزعجون بها الآخرين!".

- "أنطونيو، لنذهب! لم يعد من الممكن البقاء هنا!" - أجاب إدواردو بصوت حاسم هذه المرَّة.

- "لنتركه!" - أمر نائب السكرتير العامّ، وهو يضع القَلَنْسُوَة السوداء على شَعْره اللَّامع بعناية. - "لسنا طُغاة، كي نرغب في تغيير ذوق العاهرات!".

عند هذه الكلمات، تملَّص أنطونيو من ذراع المرأة، وقبض بحركة واثقة، ومتمهِّلة على القَلَنْسُوَة فوق رأس نائب السكرتير العامّ، ثمَّ - وهو الشيء المذهل - أخذ يُلقيها من يد لأخرى ببطء، وهو يرمق فراغ نافذة مشرعة، كما لو أنه يريد إلقاءها في الشارع.

بُهِت الرجال. انتفخ لورينزو كالديرارا كما لو كان غريقاً يشرب الماء، بينما أصبح تنفُّسه ضيقاً و ثقيلاً. وظهرت على شَفَتَي إدواردو لينتيني الصلوات التي يتلوها صامتاً، كي يستدعي عون الله لصديق في خطر. وحدهنَّ النساء كنَّ يراقبنَ أنطونيو بشعور قوي سينتهي - بقدر تأجُّجه داخلهنَّ - إلى تعبير ماجن.

أمسك نائب السكرتير بيده الضخمة ذراع أنطونيو، وأوقفه، وأدار نظره بمهابة، وعاد وثبته على أنطونيو، ثمَّ انفجر في الضحك بَغْتة، وقد استولى عليه شعور باستلطاف الشَّابّ.

تنفَّس الجميع ملء رئاتهم، عدا لورينزو كالديرارا الذي اتَّسمت مشاعره بالبطء، ولم يكن بمقدوره الانتقال من الغضب إلى الابتهاج، دون المجازفة بالإصابة بانهيار عصبي حقيقي.

- "حظٌّ سعيد، أيُّها الشَّابُّ" - قال القائد، مُعيداً وَضْع القَلَنْسُوَة فوق رأسه، ومُوجِّهاً ضربة بجانب كفِّه إلى صدر أنطونيو.

- "أتريد أن تذهب إلى بولونيا نائباً للسكرتير الاتِّحاديّ؟ سأُرسلكَ إلى

هناك بكل سرور! ستُصبنَكَ النساء بالوَهْن ... على أيَّة حال، فَكِّرْ في الأمر هذه الليلة، إذا أعطتْكَ فتاتك وقتاً، كي تفكِّر في أيِّ شيء آخر ... إنها تبدو لي مفعمة بالنوايا الحسنة! ستصير بعد عام سكرتيراً اتِّحاديّاً! ... هيَّا، لنذهب، أيُّها الرفاق!".

ولأنه كان قد عقد في هذه الأثناء شريط العباءة أسفل ذقنه، فقد خرج مندفعاً من البهو.

اندفع القادة جميعهم خلفه، وهم يُعلِّقون، ويضحكون.

الفصل الثالث

"إذا رأيتُكِ تمرّين،
على مبعدة،
وشَعْرك ينسدل
وجسدكِ ينتصب
يحملني الهذيان بعيداً".

ف. كارداريلّي

"غالباً ما أراكِ تذهبين إلى المعبد، حَيِيَّة في ثوب العيد، ترافقكِ والدتكِ الطَّيِّبة في خُطى مهيبة".

جوته - ماناكوردا

لم تمرّ الأُمسيَّة التي قضاها أنطونيو في بنسيون إيروس، بالنسبة له، دون تبعات. أحاط السَّيِّد ألفيو علماً بتفاصيلها في أحد أروقة المحكمة المظلمة، بينما الفئران تُصدِر صوتاً يصمُّ الآذان في الخزانات المليئة بالملفَّات القديمة.

- "أفهمتِ؟" - صاح على المائدة متوجِّهاً إلى زوجته، ومتظاهراً بعدم رؤية أنطونيو- "يأتي ابنكِ إلى هنا ليخطب فتاة، وينتهي به الأمر في الليلة نفسها في كازينو!".

- "إنه أعزب" - أجابت الأمُّ، مشيرة بمرارة إلى مَنْ يقوم بذات الأشياء رغم التزامه بواجبات الرباط الزّوجيّ - "وليس عليه أن يعبأ بأحد!".

- "أنتِ لا تجيدين شيئاً سوى قَذْفي بالسُّمِّ! لكنْ، أتدركين أنه إذا وصل شيء كهذا إلى أسماع الأب روزاريو، عمّ تلك الفتاة ... باربرا، سينتهي أمر الزيجة؟".

في اليوم التالي، جاء هذا الراهب لزيارة السَّيِّد ألفيو، والذي ما إن سمع اسمه حتَّى انتابتْهُ حالة عصبية، اضطرَّ معها لاحتساء ثلاثة أكواب من الماء الواحد تلو الآخر.

- "نمى إلى علمي الخبر الطَّيِّب" - قال الأب روزاريو بمجرَّد أن جلس أمام مانيانو العجوز.

- "أيّ خبر طيّب؟" - سأل الآخر متشكّكاً.

- "أخبروني أن ابنكَ كان في حضرة نائب السكرتير العامّ للحزب ...".

- "ليس عندي ما أجيبك به" - أجاب السَّيِّد ألفيو وهو يزداد خشية من أن يكون الراهب يجذبه إلى فخٍّ - "لا أعلم إن كانوا حتَّى يعرفون بعضهم البعض".

- "يبدو أنهم قد تعرَّفوا إلى بعضهم البعض في تلك الليلة ...".

- "أيُّها الأب، لتنظر إليّ" - صاح السَّيِّد ألفيو، شاعراً بالاستياء كَمَنْ تلقَّى تعنيفاً -"ولنتحدَّث بوضوح!".

- "إذنْ، لنتحدَّث بوضوح: سأكون في غاية الامتنان لأنطونيو، إن طلب من نائب السكرتير العامّ أن يمنع عنّي، وللأبد، رئيس نقابات فياجراندي الذي - وأؤكِّد لكَ - يمارس معي آلاف الانتهاكات، حتَّى إنه أرسل لي في أكتوبر الماضي لصوص المقاطعة كلهم، بوصفهم جامعي الكروم، ولا يمكنني أن أُخبركَ ما لم تطاله أيديهم، كل شيء، حتَّى غطاء رأس النوم!".

- "أوه، أهذا كل شيء؟" - أجاب السَّيِّد ألفيو راضياً.

- "لماذا، ماذا كنتَ تتوقَّع أيضاً؟".

- "لا شيء، لا شيء!"- قال مانيانو العجوز - "كنتُ أظنُّ ...، إجمالاً، لا شيء!".

تواصل حوار السَّيِّد ألفيو مع الراهب بين تلك الهمهمات التي جعلتْهُ غير مفهوم.

أنصَتَ أنطونيو مفكِّراً في شيء آخر، حتَّى بصق أبوه بَلْغماً، كان يُغرِق كلماته حتَّى الآن، وقال بصوت واضح: - "لديكَ ما يشغل ذهنكَ مذ فترة، وحتَّى الآن، وهو ما لا يروقني بالمرَّة! ما هو؟".

- "لا شيء" - أجاب أنطونيو تاركاً المائدة، ومتَّجهاً شطر الباب.

- "أبداً، أبداً!"- تمتم العجوز ملاحِظاً بدقَّة منكبَي الابن، والطريقة المتعبة التي كان يدفع بها الباب، ويخرج.

في المساء تنزَّه أنطونيو، وإدواردو لينتيني ذهاباً وجيئةً في شارع كروتشيفيري. كانت الكنائس الثلاث والأديرة التي يضمُّها الشارع تغرق في صمت ووحشة، والحواجز العالية من الحديد المطروق التي تحيط بدرجات أفنية الكنائس القليلة والوعرة مُوصَدَة بالأقفال.

كان الشَّابَّان يتعذَّبان بحنين رومانسي، جعلهما أكثر قلقاً وتعاسةً من رومانسيٍّ حقيقيٍّ مرَّ في الطريق ذاته منذُ مئة عام.

- "من المخجل احترام رجل على شاكلة نائب السكرتير العامّ ذلك" - قال إدواردو - "في وقت آخر كان علينا التظاهر بضعف البصر، كي لا نردَّ تحيَّة رجل مثله. يا للاشمئزاز! لكم كنتُ أودُّ أن أركلَهُ بقَدَمي!".

- "إن لديه تكويناً قوياً" - لاحظ أنطونيو - "لقد استطاع الذهاب مع ثلاث سيِّدات في أقلِّ من ساعة!".

-"كنتُ لأفعل أنا أيضاً الشيء ذاته، إذا لم أدرك ما لم يلاحظه هو على الإطلاق بتصرُّفه الحيواني هذا: كانت النساء تحتقرنا!".

- "أتعتقد ذلك فعلاً؟".

- "لقد دعتنا صاحبة البنسيون بالحمقى على نحو كان ليدفعني إلى تقبيل قَدَمَيْها".

- "يجب أن أحبطكَ، عزيزي، كانت السَّيِّدة غاضبة، لأنها لم تستطع استقبال أحد زبائنها الذي اعتاد أن يأتي لها كل ليلة بمخدِّر، لاأعرفه، وقعد أقسمتْ لي بعد خروجكم إنها مستعدة أن تُنفق عشرة أعوام من عمرها مقابل قضاء ليلة واحدة مع موسوليني".

"يا للانحطاط! يا للتعاسة! وأنا الذي حفظتُ، هذا الصباح، عن ظَهْر قلب، فصلاً من حوليات تاتشيتو: تذكّر نيرون إيبيكاري، ولأنه كان يعتقد أن المرأة لا تحتمل الألم، فقد أمر بتعذيبها. لكنْ، لم تدفعها المقرعة ولا النار ولا غضب الجلَّادين إلى الاعتراف، وهكذا انتصرت هي في اليوم الأوَّل. وعندما اقتادوها في اليوم التالي لملاقاة العذاب ذاته، ولأنه لم يكن بمقدورها الوقوف على أعضائها الممزَّقة، جذبت من صدرها قِمَاطاً، ربطتْهُ إلى المقعد، وعقدتْهُ إلى عنقها جاذبة إيَّاه بثقل جسدها، فأخرجت منه ذلك النَّفَس الواهن الذي كان يتردَّد فيه. إنه نموذج خالد أن تسعى عاهرة إلى إنقاذ مَنْ تجهلهم، وتحت معاناة شديدة، بينما يبلّغ الرجال والفرسان والسناترة - ودون أيِّ تعذيب - عن أكثر الأشخاص قُرباً لهم". وفي إيطاليا ولا حتَّى النساء ... عندما لا يستطيع المجتمع أن يعتمد ولا حتَّى على عاهراته يكون قد انتهى! لا يوجد ما نأمله! أمَّا أنا، فقد أعلنتُ - فيما يخصُّني - استسلامي، بل أطلب منكَ خدمة".

- "أيّ خدمة؟ تكلَّمْ!".

- "بما أن نائب السكرتير العامّ قد شعر بميل إليكَ، اسألْهُ أن يُعيِّنني عمدةً لكتانيا!".

- "لكنْ، كيف؟ ... لا أفهم".

- "عزيزي أنطونيو، أنا في الثانية والثلاثين، وأحتاج للعمل. ولن يُنقذ ضميري البقاء في المنزل، فلا أربح شيئاً، ويرمقني حماي في ازدراء. سيعيش هذا النظام أكثر من مئة عام، ولا يجب أن نهتم بأيِّ شيء في أفعالنا، وحتَّى إن سقط النظام، لن أخلق لنفسي مبرِّرات. إذا شعرت أنني أظهر بمظهر الإنسان الفخور أمام مَنْ سيأتون بعدي، فلن أكون سوى أحمق، وأُولي أهمِّيَّة غير مبرِّرة للمظاهر. لأن كون الشخص عضواً في الحزب، أو غير عضو فيه ليسا إلَّا مظاهر وترَّهَات، إذا ما قارن ذلك بالتعاسة القاتمة التي سنضطرّ للعيش فيها، سواء صرنا قادة، أو مكثنا في منازلنا لا نفعل شيئاً. من جانب آخر، سأكون رجلاً أميناً، وسأُظهِر أمانتي في عدم السرقة، ومعاملة الجميع بلطف، وتمنِّي السوء للنظام الذي أخدمه بدقَّة ووعي، لا يملكهما سوى مَنْ يمكث داخله، ويعرف أسراره كلها!".

إذا أنصتَ أنطونيو في تركيز، ولم تبدُ قنوات ذكائه وكأنها قد سُدَّت، لرأى بالتأكيد أن حديث صديقه يتَّسم بغرابة شديدة، ويُناقِض بعضه، لكنه اكتفى بالإجابة بأنه لا يريد، لأيِّ سبب، أن يعود للقاء نائب السكرتير العامّ.

لم يجرؤ إدواردو على الإجابة، ولا بكلمة واحدة، وتابع الشَّابَّان نزهتهما في صمت، جاهلَيْن أن الوجه الأبيض النحيل لإحدى الراهبات قد تسمَّر خلف واجهة إحدى النوافذ الحديدية المرتفعة، مصوِّباً على أنطونيو نظرة طويلة عابسة، وغير قادرة على الابتعاد.

- "بحقِّ الله!" - هتف أنطونيو بَغْتة - "يجب أن أُعاود قراءاتي! أتعلم أنني لم أُكمل كتاباً حتَّى الصفحة الأخيرة منذُ عشرة أعوام؟ أشعر أن الجهل يثملني، الكُتُب تُوقِظ! ... ألم يذهب حقّاً لورينزو كالديرارا مع امرأة من العامَّة قطُّ؟ يصل البعض إلى حدِّ تأكيد أنه لم يذهب مع أيِّ امرأة على الإطلاق، ماذا تظنّ؟ بخلاف ذلك ...".

- "بخلاف أنه ..." - أكمل إدواردو - "ليس بوسع الجميع أن يكونوا

مثلكَ!" وضيَّق من عينَيه، باسطاً جبينه الجميل، ممَّا جعلهما قاتمتين كقطعتي فحم.

محت فكرة وجود المرأة، وكفَّيْها الدقيقَيْن وقَدَمَيْها الورديَّتَيْن والقرط الأبيض والملابس الدَّاخليَّة أيَّ أثر للكآبة. أطلق إدواردو صيحة أطفأت، كما تطفئ الريح الشمعة، وميضَ ذلك الوجه النِّسائيِّ الذي يلمع خلف واجهة النافذة الحديدية.

- "يعيش!" - صاح مُستغلاًّ خُلُوَّ الشارع. - "لِيَنَلِ الآخرون الحُرِّيَّة، فإيطاليا لديها النساء!".

بعد مرور ثلاثة أيَّام على هذه النزهة، توجَّه أنطونيو، بعد أن علم أن نائب السكرتير العامّ قد غادر إلى روما، إلى مقرِّ الاتِّحاد الفاشي، ليتحدَّث مع لورنزو كالديرارا، وحيث إن رنين الهاتف قد استدعى الحارس إلى إحدى الكبائن، ولأنه كان يمكث في غرفة الانتظار منذُ ما يقرب من الساعة، فقد اقترب من باب السكرتير الاتِّحاديِّ، وفتحه. رأى على إحدى الأرائك رأس كالديرارا، وجهه يتَّجه لأسفل، وجبينه يشتعل احمراراً، والعروق نافرة ومشدودة كالأوتار... فهم، لم يرد أن يرى أكثر من ذلك، وابتعد على أطراف أصابعه، كَمَنْ تلقَّى إجابة صريحة وواضحة على سؤال، كانت تكفي للإجابة عنه كلمات غير محدَّدة.

- "أخبِرْه أنني سعيد لأنني لم أره منذُ عشرة أعوام" - بعث إليه ذلك مع الصّيدليّ سالينيترو، أنجيلو بارتوليني، زميل الدراسة الذي يعيش وحيداً في ضواحي المدينة إلى جوار محطَّة قطارات صغيرة يمرُّ أمامها، مرَّة كل يومَيْن، القطار الصغير الذي يقوم بجولة في إتنا، وهو الذي يُحدث الضوضاء الوحيدة التي قد تُزعج تأمُّلات رجل مهذَّب، يقتصر طبعه الودود الآن على حُبِّ كراهيته للأيَّام.

- "لماذا هو سعيد بعدم رؤيتي منذُ عشرة أعوام؟!" - سأل أنطونيو الصّيدليّ، متوقِّفاً إلى جواره على رصيف شارع إتنا. - "لقد أحببتُهُ دائماً".

- "لأنه عرف أنكَ ستصير سكرتيراً اتّحادياً لمدينة، لا أعرفها".

- "افتراء!" - أجاب أنطونيو - "أخبِرْه أنني منذُ أربعة أعوام، لا أدفع للحزب، وإنني، عاجلاً أم آجلاً، سأعتكف في منزلي الرِّيفيِّ، و... ".

في تلك اللحظة، ظهرت باربرا بوليزي مع أُمِّها من شارع عرضي، كانت الفتاة تحمل كتاب الصلاة في يد، وتسير بانحناءة خفيفة إلى الأمام، وهي تخبئ في صدرها تدفُّق وحيوية شبابها وتخفيها بعذوبة بالغة. نبَّهتْها ضربة خفيفة من مَرْفِق الأُمِّ إلى إمكانية أن تعيد لعينَيْها اللَّتَيْنِ تغضُّهما في حياء النظر. دارت باربرا بوجهها البيضاوي المحاط بمنديل بنفسجي مطرَّز ملتفتة لفتة صغيرة نحو اليسار، وبلفتة أكبر بحدقَتَيْها كشفت عن لون أبيض مبهر، ورأت أنطونيو الذي يتطلَّع إليها. أبعدها اختلال خطواتها المفاجئ عن أُمِّها، وحملها إلى الاقتراب بشدَّة من الشَّابِّ الذي استطاع تنسُّم رائحة المنديل، والبشرة التي رفع الدم من حرارتها بشدَّة، وماسكات الشَّعْر المصنوعة من عظام السُّلَحْفَاة، والملابس المحفوظة لفترة طويلة مع زهور مجفَّفة، رائحة لم تمتلكْها يوماً أيُّ امرأة في روما، سرت في جسده كهرَّة عنيفة. ظلَّ يتتبَّع بلا حراك مسار تلك الحَيَّة، التي تسلَّلت إلى أعصابه، ودغدغتْها في الأعماق.

- "يا إلهي" - همس. - "أتكون ...؟".

- "لا أفهم" - قال الصّيدليّ.

وكإجابة شافية، طوَّقه أنطونيو بذراعَيْه، وضمَّه إلى صدره.

- "ما زلتُ لا أفهم" - أضاف الآخر.

هتف أنطونيو بنبرة تزخر بالإثارة: "قل لصديقي أنجلو إنني سأتزوَّج خلال بضعة أيَّام تلك الفتاة التي رأيتُها تمرُّ ... وإنني سعيد".

وبقوله هذا وجَّه نظره إلى العذراء الحجرية التي تطلُّ من كنيسة كارميني، وأدام النظر في وَرَعٍ، كما لو أنه يلمس الأرض بجبينه أمام مذبح، تعبيراً عن الحمد.

"وماذا يجب أن أقول لصديقكَ أنجلو حول معتقداتكَ السِّياسيَّة؟" سأل الآخر.

"أوه، هؤلاء ... أيّ أهمّيَّة لهم؟" أجاب أنطونيو، وشدَّ بكلتَي يَدَيْه على يد الصَّيدليِّ.

في الليلة ذاتها، ولج حجرة نوم أبوَيْه، وأعلن أنه سيتزوَّج باربرا بكل سرور.

خرج الأب الذي فَقَدَ عقله من السرور، في سرواله الدَّاخليِّ الطويل إلى الشرفة، ونادى المحامي أرديتسوني، ليُبلغه النبأ السعيد.

- "فوق التَّصوُّر" - أجاب المحامي العجوز، لا تدفعه سوى رغبته في أن ينطق على مسمع من الجميع، وبصوت رنَّان، تلك العبارة التي تعلَّمها منذ ساعَتَيْن فقط، والتي لم تكن تعني شيئاً في ذلك الظلام، بين الكيانات المختلطة لمداخن المدافِئ، ولمعان السياج الذي يسبح في ضوء النجوم.

- "فوق التَّصوُّر! أنا سعيد بذلك، ومبتهِج للغاية!".

لكن الابنة إيلينا التي سمعت كلمات السَّيِّد ألفيو، بينما تختبئ خلف مصراعَي الشرفة، لم تشارك والدها الرأي، وهي تقمع قلبها، الذي يتلوَّى في صدرها كسمكة في الشِّبَاك.

- "لقد فعلها!" - بدأت في الصياح بنبرة اجتهدت في البداية لتجعلها مازحة، ثمَّ استسلمتْ شيئاً فشيئاً للغضب. - "لقد فعلها! هكذا يتصرَّفون في كتانيا! يذهبون للزواج من فتاة لم يروها قطُّ، مهملين جارتهم!".

- "لكنْ، إيلينا!" - تمتم الأب مُوجِّهاً لها دفعة قوية بظَهْره، ليطردها إلى ما وراء المصراعَيْن التي كانت بسبيلها للخروج منهما.

- "أجل، إنها الحقيقة، هي الحقيقة! عندما تكون هناك إحدى الفتيات تحت أبصارنا، يجب أن نتنبه إليها على الأقلِّ، قبل أن نخطوَ خطوة خاطئة في حَيٍّ آخر!".

- "لكنْ، إيلينا ...".

- "كل ما في الأمر أنني تعيسة الحظّ، أنا تعيسة الحظّ، لقد وُلدتُ تعيسة الحظّ، لم تسقط نجمة لأجلي، لم يفكِّر بي القدِّيسون، ليس لي حظٌّ، وأبي بدلاً من أن يفكِّر بمجلس الشيوخ ...".

- "لكنْ، إيلينا، إيلينا، إيلينا" - صاح العجوز بثلاث درجات صوتية مختلفة، مشدِّداً على إيلينا الأخيرة، كما لو أنه قد ضرب ناقوساً مشدوخاً - "أنتِ لا تدرين ما تقولين! إيلينا، أقول، إيلينا، إيلينا!" - وشدَّد من جديد، ثمَّ التفت إلى السَّيِّد ألفيو: - "معذرة، صديقي المهذَّب! ليكن صدركَ واسعاً، ولتغفر لي، ولتقبل مجدَّداً إ... ي إ... ي طابت ليلتكَ، صديقي العزيز".

اليوم التالي، في الصباح الباكر، ألقت إيلينا على شرفة عائلة مانيانو ثلاثة مجلَّدات ضخمة من اليوميات العاطفية، وبداخلها، بخلاف الرسوم، والفراشات، وزنابق البنفسج، وأفرع النخيل، وهي الأشياءُ التي نمت وازدهرت منذُ خمسة عشر عاماً مضت، كانت ألصقت صورة أنطونيو ممتطياً حصاناً خشبيّاً وهي الصورة الوحيدة من نوعها، والتي أصاب ضياعُها السَّيِّدة روزاريا بالحزن.

سقطت اليوميات على الشرفة، بينما كان أنطونيو منحنياً يسقي أصص الصَّبَّار. لم يلتفت، وقلَّبهم بإحدى قَدَمَيْه، مُواصِلاً صَبَّ المياه بين الأشواك والبتلات، ومطالِعاً هنا وهناك بعض العبارات المكتوبة بحروف كبيرة، على سبيل المثال: "إنني لأجعل من وجهي بساطاً له"، "من الثالثة إلى الثامنة فكَّرتُ باستمرار في الشيء نفسه"، " أيّ دوائر حول العينَيْن اليوم". نزع الصورة التي بحثت عنها الأمُّ طويلاً، وألقى ما خلا ذلك في النفايات.

بعد يومَيْن، كان أبناء الحارس يلهون بهذه العبارات الملتهبة في ساحة العقار، أمَّا إيلينا التي ربَّما تستشعر نبضات تلك الأجزاء من قلبها حيثما وُجدت، فقد نزلت الطوابق الثلاثة مسرعة، وانقضَّت كطير جارح على هؤلاء المتشرِّدين الجُهَّل الذين يتبادلون فيما بينهم مراكب وقبَّعات صغيرة

من الورق تحفل بكلمات كفيلة - إن قُرِئَت - بأن تقضي نهائياً على براءتهم. استطاعت إيلينا، بحركة واحدة فقط كل مرَّة، أن تنتزع الأوراق، وتثني يد مَنْ كانوا يتشبَّثون بها، ثمَّ تُعاوِد صعود السُلَّم عَدْواً تاركةً خلفها عويلاً وصراخاً.

شربتْ في الليل كوباً من الماء، كانتْ قد غمرت فيه ما يقرب من عشرين عوداً من الثقاب، واعتقدت عند الفجر أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة بالسُّمِّ. لكنْ، كفاها أن تتقيَّأ داخل وعاء فخاري بينما تسند الأُمُّ المسكينة جبينها، والأب، الذي أعماه الفزع، يصلي للموت والحياة والشرف والجنون، حيث كان بمقدوره ربَّما رؤيتهم واقفين أمامه،كي لتعود من جديد بصحَّة جيِّدة.

في اليوم ذاته، على مائدة عائلة مانيانو، التفت السَّيِّد ألفيو إلى أنطونيو، بعد أن قصَّ عليه بدقة ما دار من أحداث في المنزل المجاور: - "لكنْ، ماذا تفعل للنساء؟ أيمكنني أن أعرف؟".

أجابت الأُمُّ: - "وماذا عليه أن يفعل للنساء؟ هنَّ اللَّاتي يحملنَ اللهب في أجسادهنَّ!".

ولتفادي وقوع ويلات أخرى، تمَّ الإسراع بخِطْبَة باربرا بوليزي، ووجد أنطونيو نفسه، في غضون أسبوع، منغمِساً حتَّى أُذنَيْه في تقاليد إحدى أُسَر كتانيا العريقة.

يقع منزل جورجيو بوليزي، أكثر محرِّري العقود شهرة في كتانيا، في ميدان ستيسيكورو، في مواجهة مبنى المحكمة القديم، ومن على سطحه كان يبدو بركان إتنا قريباً منه، بل ملاصقاً له تقريباً حيث لم يعد ثمة ما يحجب الرؤية بينهما، يفرد أجنحته الضخمة البيضاء كأجنحة الأوز شتاءً، والبنفسجية في الفصول الأخرى. كان الميدان، في هذا الجزء منه، قد تعرَّض لحفريات عميقة، كشفت عن أقواس مسرح روماني، تغطِّيها الفطريات، وتقطعها ممرَّات تتغلغل فيما تحت سطح المدينة. ويحيط بالحفريات، التي يُنزَل إليها عبر درجات سُلَّم صغير تملؤه الحشائش، سياج حديدي، كان أحد المتشرِّدين يمرِّر عليه - وهو يعدو - قطعة من

الخشب محدثاً صخب بوّابات حديدية تُفتَح ثم يختفي بَغْتة. ينحدر هذا الجزء من الميدان كسطح سفينة أُصيبت بجانبها، حيث يتبع انحدار فُوَّهَة بركان ظهر هنا في عصر سحيق، ويبرز منه طريق يتَّجه لأعلى نحو الأحياء المرتفعة في المدينة، ويضجُّ بعربات الترام المتوقِّفة خوفاً من الانحناء الشديد. يطلُّ في ميله هذا، بمقاهيه الشَّعبيَّة ودكاكين الخزفيات، على شارع إتنا الذي يمتدُّ النصف الآخر من الميدان بعده على سطح مستوٍ تماماً، ويرتفع على رصيفه أغلى ما تحمل أرض كتانيا الزاخرة، وهو تمثال المعشوق فينشينزو بيلّيني الرّخاميّ، والذي يبدو فيه جالساً ومبتسماً بين أربع من أشهر شخصياته، بأفواه مفتوحة، وكأنهم يُوزِّعون موسيقى مؤلّفهم السّماويّة في كل الاتجاهات.

هنا كانت تظهر أزقَّة الأسواق، والبيوت سيِّئة السمعة، ومحطَّة السكك الحديدية، وهنا كانت الرياح الشَّرقيَّة رطبة إلى أقصى درجة، ما جعل من أحجار الطُّرُق موحلة بشكل دائم.

وكان منزل عائلة بوليزي يقع في أعلى المناطق، وأكثرها إضاءة، حتَّى إن واجهات الشرفات الزُّجاجيَّة كانت تعكس في الشتاء لمعان جليد بركان إتنا المشعّ بضوء الشمس.

كانت السَّيِّدة أجاتينا - أُمّ باربرا - ضخمة ثرثارة مرهقة خائفة من البرد الذي يسدُّ أنفها مرَّات عدَّة حتَّى تتوقَّف عن التَّنفُّس، وكانت تنظر إلى أنفاسها المختنقة نظرة حيوان مسكين إلى قصبة بندقية، وقد أقنعت زوجها أن يُدخِل، كأوَّل شخص في كتانيا، نظام التدفئة المركزية. أثار الأمر انتقاد العائلات الصديقة جميعها؛ لأن محرِّر العقود جيورجيو بوليزي كان يُعتبر أكثر الرجال جدِّيَّةً والتزاماً في المدينة، وأحد أقارب رهبان ومحرِّري عقود آخرين خليقين بالتقدير، ويتلقَّون، منذُ أكثر من مئة عام، في شارع إتنا، تلك التَّحيَّات العميقة التي يُوجِّهها مواطن كتانيا إلى الشرف والفخر وغياب الرذائل. ولمراقبة أولى زلَّات رجل جادٍّ عن كثب، كانت هذه العائلات

الصديقة تذهب كل يوم في جماعات، برفقة الخادمات، والأطفال الرُّضَّع، لقضاء ساعتَيْن في هذا الجوِّ الساخن غير المحتمَل، وكانوا يخرجون منه جميعاً بوجوه محمرة، كما لو أنهم قد تلقّوا، من الجَدِّ إلى الحفيد، صفعات عنيفة. وشيئاً فشيئاً وجدوا أن الأمر عاديٌّ للغاية، ثمَّ تبنَّاه واحد أو اثنان منهم. "كان علينا أن ندرك أن رجلاً مثل محرِّر العقود لا يمكنه ارتكاب حماقة!" كانوا يقولون.

قضت باربرا صباها في هذا المنزل شديد الحرارة في الشتاء، والصيف، وهي تغنِّي وترقص في الأروقة، حيث كانت تصلها دوماً صيحة من آخرها: "لا تقتربي كثيراً من المدفأة!"، وإذا ما تجاسرت على سُلَّم صغير يؤدِّي إلى العُلِّيَّة، يصل صوت آخر: "لا تذهبي عند بابا فرانشيسكو!".

كان بابا فرانشيسكو - والد السَّيِّدة أجاتينا - هو جَدَّ باربرا في الواقع، ولكنه يُدعى "بابا" احتراماً لثرائه، ونُبْل مَحْتِده. ولا يدري أحد أيَّ ملك جعله باروناً لباترنو؛ لأنه كان يمقت الكُتُب، حتَّى تلك التي تتحدَّث عن درع عائلته واصفة إيَّاه بأدق شعارات النبل جميعها.

ظلَّ يقطن، بعد زواج أجاتينا، برفقة خادم هرم، في قصره العتيق الذي يطلُّ، بأعمدته الرُّخاميَّة والتماثيل التي تحمل مصابيح من الحديد المطروق، على ميدان خاوٍ دائماً، وفي منتصفه يظهر، منتصباً على متن جواد، تمثال "المغتصب الأوروبي"، الملك أمبرتو الأوَّل، وكان الرجل يقضي الوقت في مَقْت ذلك التمثال، بجبين يستند إلى واجهة الشرفة الزُّجاجيَّة.

- "لكنْ، باولينو" - كان يقول للخادم العجوز مشتَّت الذهن من تنفيذ أوامر مخبولة مرَّات عديدة، وباحترام شديد - "أأنا لا أفقه شيئاً، أم أن ذلك له بالفعل وجه بغل هزيل؟".

- "إن له وجه بغل هزيل" - كان الخادم يجيب في رتابة.

لكنْ، قامت البلدية بزراعة أشجار الدُّلْب حول الميدان، وأمام واجهة القصر، أشجار قوية سرعان ما انطلقت في سعادة نحو سماء أكثر بقاع الأرض إضاءة.

استولى على البارون غضب تصاعد مع غرق حجرات قصره شيئاً فشيئاً في ظلام يزداد كثافة يوماً بعد آخر. احتجَّ، أرسل بخطابات إلى الصحف، أزعج الحاكم، ومدير الأمن، والمبجَّل كارناتسا، وخصمه المبجَّل دي فيليتشي، بالرغم من أنه كان يشعر بالخجل حتَّى أعماق نفسه من توجُّهه إلى هؤلاء الرجال، الذين يُمثِّلون إرادة بائعي السمك، والبوَّابين، لكنْ، بدت الأشجار أقوى منه، وظلَّت تنمو برباطة جأش.

ذات ليلة، خرج الخادم العجوز من بوَّابة القصر متدثِّراً في معطفه، ومحترزاً، واقترب من جذوع تلك الأشجار التي صارت، واحدة بعد الأخرى، محلاً لعناية خاصَّة غامضة منه. تكرَّر هذا الطقس لمدَّة شهر: وها هي تلك الأشجار المنتصبة، المرنة، التي يمكن للصواعق وحدها منعها من بلوغ الألفية الثانية، تبدأ في الذبول تماماً في الأجزاء التي تتلقَّى الضياء.

فاقت سعادة البارون الحدود كلها، فقد كان أوَّ ل مَنْ أدرك علامات الهزال تلك من شرفته الرئيسة التي عليها تسند الأشجار قممها الجميلة. ذبلت النباتات الملعونة في بطء، وهي ترى - عبر النوافذ الزُّجاجيَّة التي كانت تعكس في الأيَّام العاصفة حركات أغصانها المضطربة - وجهاً بشرياً، يزداد سعادة كلَّما اقتربت هي من الموت.

تمَّت السيطرة على الفضيحة التي كانت على وشك الانفجار بكثير من الجهد والمال. أجبر زوج الابنة مَنْ قام بتسميم الأشجار على ترك قصره، والانتقال إلى ميدان ستيسكورو حيث استضافه مع الابنة. ولا بدَّ أنه كان يشعر بإثم ما، إذا كان هو الذي رقد ذات يوم على فراش فرناندو الثاني، قد بدأ يحبُّ العليَّات، والفراش غير المرتَّب، والنوافذ الصغيرة المطلَّة على الأسطح، ومَرْأى الأجراس. كان يعشق الضوضاء العنيفة أيضاً؛ لذلك كان يضرب مصراعَي النافذة بكل ما أُوتي من قوَّة كلَّما أغلقهما، ثمَّ يظلُّ يُنصِت، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، ومنتشيتان، كَمَنْ أثار أصداءً شديدة العذوبة. ذات يوم، ابتاع طبلة، وعزف، خلال قفزات فرح الحفيدة، النشيد

العسكري. لكن الجيران أبدوا اعتراضهم، وتوسَّلت إليه الابنة ذاتها، والدموع في عينَيْها، أن يتخلَّى عن هذا النوع من الموسيقى.

تمَّ التَّوصُّل لحلٍّ وسط. كان البارون يكبح طوال الأسبوع رغبته المعذَّبة في القرع على الطبلة، وعندما يأتي يوم الأحد، يربط الجياد إلى العربة، ويستقلُّها مع الخادم العجوز الذي يحمل الطبلة الملتفَّة بتبجيل في قماش أحمر، ويترك كتانيا الصاخبة، التي تُبدي انزعاجاً شديداً من صوت الطبلة المتناغم، بينما تحتمل صرير الترام الحادّ. وما إن يبلغ حقوله في بيانا، حتَّى يترجَّل من العربة، ويتقدَّم بين الأشجار بينما الفلَّاحون يُحيُّونه بتبجيل، ويتبعه الخادم المخلص، حاملاً الطبلة الملفوفة كما هي في القماش الأحمر. يتوقَّف أخيراً، ويلتقط الآلة من القماش، ويُثبِّتها في كتفه بحزام العنق، ثمَّ يَرفع، ويُعلِّق في الهواء القائمَيْن العاجيَّيْن اللَّذَيْن يرتجفان برغبات العزف المكبوتة كلها لأسبوع كامل. بَغْتة، وبغضب، ينطلق السَّيِّد العجوز في ضربات وراء ضربات، يرتعد جِلْد الطبلة ويصرخ، وتفرُّ الدجاجات في كل صوب، يتبعها الكلاب، بينما تبتعد الثيران متمهِّلة وهي ترمق بإعجاب قطعة القماش الحمراء التي ظلَّت على الحشائش، ويتثاءب الخادم لمدَّة ثلاث ساعات، يصمُّ العجوز أذنَيْه بضربات الطبلة الرهيبة، ثمَّ يعيد لفَّ الآلة في القماش الأحمر، ويستقلُّ العربة مرَّة أخرى عائداً إلى كتانيا. وبمجرَّد أن يفتح النافذة، أو يضع قَدَمَه على باب العربة، يتوقَّف للحظة، ويسأل الخادم: "كيف كانت؟".

- "رائعة" - يجيب العجوز الآخر، بينما يسند بيده اليسرى الطبلة المجهَدة، ويمدُّ اليمنى نحو العازف المتعَب.

لكنْ، ذات ليلة، نهض الخادم من الفراش وتمدَّد على أريكة خشبية في الرواق، ومات.

ظلَّ البارون يراقبه لربع ساعة، ذلك الرجل العاجز، الذي ما انفك يطيع أوامره، انقضت حياته الآن وإلى الأبد.

- "مَنْ أوحى له بفعل ذلك؟" - همس. -"مَنْ أوحى له بذلك؟" - كرَّر مرَّة أخرى، وطلب أن يأتيه الأب روزاريو، شقيق زوج ابنته، لزيارته في العلِّيَّة التي لم يعد يريد الخروج منها.

"هل يوجد جنَّة؟"، سأله بَغْتة بمجرَّد أن رآه عند المدخل.

جلس الراهب، وشرح له بالتفاصيل الدقيقة كيف - وفقاً للاحتمالات كلها - يمكن أن تكون مملكة السماوات.

"أنتم محتالون!"، أجاب العجوز، ولم يرد رؤيته مرَّة أخرى.

لكنه - بدءاً من اليوم التالي - أخذ في رسم الصليب كل دقيقة، ودسَّ صور القدِّيسين تحت الوسائد، والركوع على ركبَتَيْه كلما خطرت كلمة "موت" بذهنه، جامعاً بين عدائه للرهبان، ونوع من التَّديُّن الشديد الذي يلازم الهرم؛ كان يؤمن بأشياء أكثر ممَّا تفرضه عقيدة الكنيسة، لكنه لم يؤمن بالكنيسة. كان متمرِّداً، وفي الوقت ذاته متعصِّباً مسكيناً، وهي حالة طبيعية للغاية لمَنْ أحاط به الخوف والغضب دون أيِّ إمكانية لإيجاد مخرج منهما. لم يعد يفتح مصراعَي النافذة، وركدت الروائح الكريهة إلى أن زالت، وتلطف الجو باختمار العفن ذاته. تدثَّر العجوز بتلك الألياف القوية والباردة التي تحيط بسيقان الدجاج. أمَّا عيناه، فإحداها مغلقة على الدوام، كما لو أن الجفنين قد التصقا، بينما تُلقي الأخرى بنظرة دامعة غير مستقرَّة، كشعاع فنار، تُغرِقه الأمطار.

كان دائم الصمت، لا يُزعِج أحداً: لكنْ، داخل عقله، وبشكل خاصٍّ أثناء الليل، كانت تبرق أفكار ناقمة وأوامر وصرخات وصلوات ونوبات بكاء.

كانت باربرا مأخوذة للغاية بهذا الجَدِّ الذي يبدو كلعبة أطفال قماشية كبيرة، وحتَّى لا تسمعها الأمُّ التي منعتْها من الصعود إليه، كانت تصعد بأقدام عارية درجات سُلَّم العلِّيَّة الصغير، وتظلُّ، لوقت طويل، ووجهها ملتصق بكُوَّة الباب، تلتهم بعينَيْها الصغيرتَيْن الماكرتَيْن ذلك العجوز المتصلِّب والساكن حتَّى من صوت تنفُّسه، والذي، بالرغم من انطفائه وجفافه بهذا الشكل، كان لا يزال أمامه عشرون عاماً من الحياة.

لم يرقَ تصرُّف باربرا الغريب هذا لأحد في بيت بوليزي، أثار غضب محرِّر العقود الذي كان يقف لكل ما هو غريب بالمرصاد. ففي عائلته، كان الجميع رجالاً جادِّين، ذوي شأن، رؤساء للبلدية أو لبعض هيئاتها، ومحرِّري عقود بلا منافس، يحوزون أسراراً بالغة الدِّقَّة؛ كانت وجوههم ذات اللِّحى المدبَّبة، وهي تنطبع في أعين المحتضرين الذين يشعرون بالضآلة والسخرية من كل ما يمتُّ لهذا العالَم بصلة، تجذبهم من جديد إلى الإحساس بالواجب تجاه الأرض وقطعان الماشية والمنازل وودائع البنوك، وكذلك إلى سيِّداتٍ لا يمكن لأيٍّ من رهبان الاعتراف الطَّعْن في سلوكهنَّ، ذوات أعين جميلة، لكن باردة، يحاول الوعَّاظ الجدد، في اللحظة التي يطلقون فيها سهامهم على النساء، تجنُّبهن بشتَّى الطُّرُق خوفاً من أن يشتِّتن انتباههم، فيتعثَّروا. دفعت إحداهنَّ، بمجرَّد وصولها الريف ليلاً، أحدَ اللصوص من الفلَّاحين إلى إلقاء نفسه في الصهريج. كلهنَّ ربَّات منازل حتَّى إن بعض الأفران عسيرة الإشتعال كانت تستسلم لهنَّ فقط، قادرات على السهر على راحة خادمة عجوز مريضة في أشدِّ احتياجاتها بؤساً طوال الليل والنهار. إنهم نساء، ورجال مميَّزون للغاية في طبيعيَّتهم، إلَّا إذا وُلدوا مختلفين (الأمر الذي حدث ثلاث مرَّات خلال مئة عام)؛ لأنهم عندئذ لن يكتفوا بأن يصيروا فنَّانين، أو عاطلين، أو أُزْيَار نساء، أو علماء، كما تفعل الغالبية غير العادية، لكنهم يصيرون مخبولين مطلقي السراح، يمكنهم القيام بأيِّ شيء.

ولقد أدَّى انعدام التشابه بين أولئك الثلاثة من عائلة بوليزي والآخرين لا متناهيي العدد، وهم جميعاً ذوو شأن ورفيعو المقام، إلى أن مظهر العائلة قد ظلَّ بلا مساس. كان الثلاثة يمثِّلون استثناءً يُثبت القاعدة. وكان مهماً ألَّا يتكرَّر استثناء كهذا مرَّة أخرى، لذا كان آباء عائلة بوليزي يراقبون -بريبة- تصرُّفات أبنائهم الأولى، ولا يستطيعون إظهار حُبِّهم لهم حتَّى تخرج من ذلك اللغز المربك من الصراخ وعرقلة أقدام الآخرين، البشائر الأولى لمحرِّر عقود مستقبلي، أو ربَّة منزل مستقبلية.

كان محرِّ ر العقود جورجيو بوليزي يدرك، حين تزوَّج ابنة بارون باترنو،

أنه يصاهر رجلاً يخالف المتعارف عليه بشكل طفيف. لكنْ، كان البارون، في ذلك الوقت، يتميَّز عن الآخرين بكونه يجاهر أيَّ شخص برأيه فيه، ومن جانب آخر، كان الثراء، وهو أكبر دليل قد يُبديه أيُّ رجل على جدِّيَّته، يشهد لصالح البارون بشكل كبير. هكذا كان محرِّر العقود يواسي نفسه. لكنْ، في يوم العرس، في الكنيسة، وبينما كان راكعاً أمام المذبح وخطيبته إلى جواره، مال البارون عليه، وهمس في أذنه: "سأموت إذا لم أقولها: أنتَ تشبه ديكاً روميّاً!" شحب وجه محرِّ ر العقود جورجيو، لكن عقله الراجح فكَّر على الفور: "قُضي الأمر الآن، لا يجب اعتبار ما يتعذَّر إصلاحه خطأً؛ لأن ذلك سيكون ضارّاً، وبلا جدوى! ليحمني الله من الحكم على هذا الرجل بغرابة الأطوار! لقد أملت عليه العاطفة هذه العبارة، وعلى أيَّة حال، لم يسمعْها أحد. أمَّا فيما يتعلَّق بأبنائي ... فليساعدني الله!".

وفي هذا السياق تذكَّر كَم من المرَّات أخبره الرهبان بابتسامة: "ليُكافئكَ الله!".

مرَّت الأعوام الأولى من الزواج هادئة. وفي عام 1914 وُلدت باربرا، وفي عام 1920 انسحب البارون إلى حجرة السطح تاركاً لمحرِّر العقود إدارة أملاكه كلها، الأمر الذي كان كفيلاً بجعله سعيداً تماماً، إذ لم تكن باربرا قد أظهرت هوسها الغريب بمراقبة الجَدِّ الصامت، والمتصلِّب لساعات طوال. أيّ فضول عميق قد تُشبِعُه فتاة في السادسة من عمرها بتركيز بصرها طويلاً هكذا على عجوز؟ ما الذي يلوح في عينَيْها الصغيرتَيْن الملتصقَتَيْن بالباب: إعجاب، سخرية، قسوة، خوف، شفقة؟.

ذات يوم، جلس العمُّ الراهب بمهابة، ووضعها بين ركبَتَيْه، محاولاً أن يكشف سرَّها بأسئلته الناعمة، والمتسلِّلة كطرف منديل، يزيل ذرَّة من العين، لكنه لا ينجح في أن ينال منها في شيء.

بعد بضعة أعوام، كانت باربرا تُنصت بالانتباه نفسه لأصوات العصافير التي تدخل بشكل لا إرادي إلى برج المدفأة، ولا تستطيع انتزاع نفسها من القوَّة التي تجذبها لأسفل عندما تصيبها مروحة المدفأة أكثر من مرَّة،

فتسقط، عبر مدخنة المدفأة، بعد صراع طويل، في الموقد المنطفئ، حيث تلتقطها باربرا، وهي تصارع الموت.

أثار هذا الاهتمام الجديد الغريب رعب محرِّر العقود. أين سينتهي بها الحال؟ تبرَّع بألفَي ليرة لإنشاء أحد ملاجئ الأيتام، وبعد عدَّة أعوام، أرسل له الله صكَّ العرفان: صارت باربرا تلك، التي أثارت الكثير من التَّخوُّف، من أكثر الفتيات جدِّيَّة، وطبيعية، حتَّى إنها صارت تشبه عشرة من جَدَّاتها في الوقت ذاته.

"أتذكرين؟" قال محرِّر العقود لزوجته رامقاً باربرا بود، "أُمِّي وهي تخيط الجوارب؟ كان لفمها ذلك الشكل! ... أتذكرين عمَّتي مارينينا وهي تضبط المنبِّه؟ كان لوجهها التعبير ذاته! ... أتذكرين أختي ماريا وهي تعدُّ المائدة؟ كانت تحمل أربعة أكواب كل مرَّة وهي تضع أصابعها داخلهم، بالضبط كما تفعل هي!"

تعلَّمت باربرا عزف الكمان، والرسم، وارتادت المسرح والحفلات الموسيقية والمؤتمرات، دون أن يحملها ذلك في أيِّ شيء إلى الفنِّ والفكر اللَّذَيْن ظلَّا بمنأى عنها.

لكنْ، في دائرة رصانتها الجامدة تلك، كانت هي أيضاً سعيدة وغير سعيدة ككل الشباب؛ لقد حلمت هي أيضاً بمستقبلها؛ وفكَّرت بفزع - بينما تراقب السماء في الليل، ولا تسمع فيها أيّ صوت أو ضوضاء- أن العالَم مُوحِش، وشكرت الله بعذوبة أو قوَّة أنها وهي في السادسة عشر، وعندما كان للمظهريِّيْن الذين أنهكهم حُبُّ الجمال وعذب جوارحهم، أنوف طويلة ووجنات عجفاء وأعين منتفخة، كانت -على النقيض- جميلة وشديدة الحيوية.

الفصل الرابع

"عندئذ سيُنشد مأخوذاً
أنكِ جعلتِ منه زوجاً سعيداً ..".

ج. باريني

"زهرة قرمزيّة جميلة
سيختارها سيلفيو اليوم ..".

ب. رولّي

في عام1933 هُدِّد كيان عائلة بوليزي باتّخاذ أحد الإجراءات الذي يخفض ما يقرب من ثلاثة أرباع ثروتهم. قرّر أحد العُمَد، عديم الاحترام للأسماء الرّنّانة، أن يضمَّ إلى أملاك البلدية مياه البوميتشارو المملوكة للبارون.

وما إن وصل إلى علمه النبأ عسير التصديق، حتّى أرسل محرِّر العقود بزوجته وابنته إلى المسرح، والخدم ليأتوا بالمشتريات، وقام بإغلاق النوافذ، ثمَّ صرخ بصوت جَهْوَرِيّ: "لصوص! لصوص! سارقو أملاكي!".

هُرِعَ إلى روما، وأدرك في تلك المدينة التي تخلو من أشخاص يُحيُّونه بتبجيل، وهو يذوي لأيّام كاملة في حجرات الانتظار، أن الوزير الكونت ك. وحده يستطيع إنقاذه موجِّهاً بعض السباب إلى العُمدة عبر الهاتف، كما اعتاد أن يفعل. لذا أقرَّ، بعد عودته إلى كتانيا، على الفور بأن أنطونيو - الصديق الحميم لذلك الوزير - هو شابٌّ شديد الوسامة، ويعتبر فرصة رائعة لابنته.

أمَّا باربرا، من جانبها، وبمجرَّد أن أخبروها بأن أنطونيو سيصير زوجاً لها، وأن التفكير فيه لا يعتبر عملاً بذيئاً، فقد أخذت تحلم به بإخلاص شديد، ويصيبها اضطراب عميق، بالرغم من أنها قد رأتْهُ مرَّتَيْن أو ثلاث، وبشكل خاطف دوماً، بينما تعرض في ضوء الشرفة، خلال زيارات الصديقات التي تحثُّ عليها الأمُّ، الملاءاتِ التي ستضعها ليلاً مع أكثر الرجال وسامة في المدينة.

تمَّ الاحتفال بالخِطْبَة في حضور الأقارب فقط، حتَّى إن الصديق دي أجاتا اضطرَّ للاكتفاء بمهاتفة أنطونيو: - "هل خطيبتكَ إلى جواركَ؟".

- "لا، لأن الهاتف في حجرة بعيدة عن حجرة الصالون، ومحرِّر العقود لا يريد لباربرا أن تكون بمفردها معي!".

- "هل قبلتها أوَّل قبلة؟".

- "... لا!".

- " يا للسماء! ومتى ستقبلها؟".

أخذ أنطونيو في الضحك: - "وداعاً، لويجينو، وداعاً!"، وعاد إلى حجرة الصالون.

وهناك قَبَّله ثلاثة أساقفة، فيما الصليب داخل الحرامات الحريرية السوداء المحيطة بخصورهم، وداعبه الأب روزاريو مداعبة أبوية. كان الجميع يصيحون، ويطرقون الأطباق بالملاعق، بينما تحتشد على الأبواب أصواتٌ من كل نوع، الفونوغراف، البيانو، مزامير القرب، حيث إنه شهر عيد الميلاد، واندفعوا إلى أعلى عبر درجات السُّلَّم، وربمَّا وصلوا إلى داخل المطبخ؛ كانت الأمطار تضرب واجهة الشرفة الزُّجاجيَّة، بينما تمرُّ سحب قريبة وسريعة فوق المحكمة مُسدِلة أستارها على الإتنا تماماً.

عندما دقت ساعة المحكمة في السادسة، صاحت باربرا بصوت مرتفع: - "علينا أن نصعد لزيارة الجَدِّ! سيكون سعيداً بذلك، العجوز المسكين!".

صَعِدَ موكبٌ صغيرٌ يتكوّن من محرِّر العقود، والسَّيِّدة أجاتينا، والأب روزاريو والخطيبَيْن، السُّلَّم الصغير المظلم، ودخلوا الحجرة الصغيرة على أطراف أصابعهم.

ارتكن الجميع إلى الجدران، وتحلَّقوا صامتين حول العجوز الذي ظلَّ، بينما هو جالس على الفراش، مُنكَّس الرأس، ومُثبِّتاً يَدَيْه المسترخيَتَيْن كسرطانَيْ بحر، وقد أصابهما الجفاف على ثنيات الملاءة.

انتظر أنطونيو أن يتحدَّث أحدهم، أو أن يفعل شيئاً، ليُقلِّده في الحال. لكنْ، لم يحرِّك أيٌّ منهم ساكناً، ولم يقولوا شيئاً، تماماً كما لو كانوا يقفون أمام تمثال في إحدى المقابر. بَغْتة دخل السَّيِّد ألفيو صائحاً: - "لكنْ، ماذا ..."- وخفض صوته على الفور - "تفعلون هنا، بحقِّ الشيطان؟".

رفع البارون ذو التسعين عاماً عينَيْه في وجه القادم الجديد، وفتح فمه في إنهاك، وقال: "الأشجار! ... رجل البلدية!" ثمَّ سقط جانباً كقطعة من الورق تهوي عند فتح نافذة. كان قد تعرَّف إلى السَّيِّد ألفيو أحد أعضاء مجلس بلدية كتانيا في ذلك الوقت الذي تجرأت فيه البلدية على زَرْع أشجار الدُّلب أمام منزله.

-"اذهبوا! انزلوا!" أخذ محرِّر العقود يصيح.

-"لا شيء! سأتولىَّ أنا ذلك! سأتولىَّ أنا وأجاتينا ذلك! لينزل الباقون، خاصَّة أنتُم، يا شباب، هيَّا، اذهبوا وامرحوا!".

خرج الجميع، يدفعهم محرِّر العقود الذي ظلَّ يردِّد "إنه لا شيء!": وتبعتْهم هذه الكلمة "لا شيء" على امتداد الرواق، وحتَّى مدخل حجرة الصالون، حيث ذابت في دوَّامة الرقص.

في الحقيقة كان العجوز قد مات. لكنْ، تمَّ إخفاء النبأ حتَّى اليوم التالي.

وضع أنطونيو على الفور، وفقاً لنصيحة الأمِّ، ربطة عنق سوداء، أعطت

لبريق وجهه جدِّيَّة زمن غابر، حتَّى إن بعض خصوم الفاشية - عندما رأوه يمرُّ أمام طاولتهم بالمقهى - همسوا بصوت خفيض: - "إنه يشبه بروتس، لكنه خادم للوزراء وسكرتارية الاتّحاد! لو كنَّا في مكانه، لجعلنا موسوليني يستقبلنا، ولأطلقنا عليه الرصاص!".

بعد يومَيْن، رافق البارون إلى المقبرة موكب طويل. شوهد أنطونيو وخطيبته معاً، لأوَّل مرَّة، وهما يتقدَّمان الجنازة، تليهما زمرة من الأقارب المدَّثِّرين بقوَّة في ثياب ومعاطف وقبَّعات وجوارب وأحذية سوداء كالحبر، وصفَّان من أيتام القلب المقدَّس، تُردِّد أفواههم نشيدَ التوبة، وتنتقل أعينهم الفضولية بين واجهات المحالّ الزُّجاجيَّة والشرفات. كذلك صفٌّ من العربات المحمَّلة بتيجان تجعلها الرياح تُصدِر صوتاً أشبه برَذَاذ المطر، وأخيراً جمع غفير من الأصدقاء والمعارف يتبادلون الحديث حول شؤونهم، ويتسلَّلون بين الحين والآخر، مثنى أو ثلاث، بظهور مُنحنية من الموكب، ليسلكوا أحد التقاطعات، أو يأووا إلى أحد المقاهي.

ولأن المتوفىَّ - ببلوغه العقد التاسع من العمر - قد أعفى حتَّى أشدّ المُتملِّقين من ضرورة التَّأثُّر، والتعبير عن الحزن، كان الجميع يرمقون أنطونيو وخطيبته مبتسمين، وعدسات الفتيات المكبِّرة تضع في بؤراتها رأس الشَّابّ وذراعه اليمنى التي تشبك باربرا فيها يدها المرصَّعة بالخواتم، وأحد أطراف غطاء النعش الذي يحمله بعض المتطوِّعين على أذرعهم.

كان أنطونيو يشعر بيَدَي الأمِّ والأب على كتفَيْه، وهما يُفرِغان رغبتهما في مداعبته متذرِّعَيْن بتعديل وضع ياقة السترة.

تناولت الأمُّ يده اليسرى التي المدلاة جانباً، ووضعتْها على يد باربرا، لكنها سرعان ما رفعتْها بعد ذلك، حين أدركت أنها تغطِّي خواتم الخطيبة بهذا الشكل، وقد احمر وجهها كما لو أنها قد ارتكبت حماقة ما.

في هذه الأثناء، كان يشعر بأفواه تقترب من أُذنه، ومن فوق كتفه، وتهمس له بحنو: -"ارتدِ القبَّعة! ... لا أريدكَ أن تُصابَ بالبرد! ... لقد

أسأتَ صنيعاً بعدم ارتداء المعطف! ... لا تنظرْ إلى الشرفات، تذكَّرْ أنكَ مرتبط! ... يبدو لي أن الحاكم قد ابتسم لكَ: رُدّ عليه! ... كيف يمكن ألَّا يأتي العُمدة؟".

بَغْتة، أفسح محرِّر العقود مكاناً بين أبوَي أنطونيو، ودخل.

- "يجب أن ترسل إلى الوزير!" - قال له بتمهُّل. - "لا بدَّ أن العُمدة يشعر بتأنيب الضمير تجاهي، إذ لم يجرؤ على الحضور!".

- "سأكتب له غداً، يا أبي، لكنْ، لا تعتقد أنني ...".

قرصه السَّيِّد ألفيو الذي يسترق السمع من بين كتفَي الاثنَين، ومنعه من الاستمرار.

- "ابنكِ هذا" - قال بعد ذلك لزوجته - "عدوٌّ لنفسه! إن لم أكن أسير وراءه، لأُخبر محرِّر العقود أن الوزير ليس صديقاً له".

- "إنه متواضع"، تمتمت السَّيِّدة.

- "إنه أحمق!"، قال الأب ملوِّحاً بيَدَيْه، ومهتلجاً حتَّى أن القبَّعة قد سقطت من يده.

- "إن الجميع يراقبوننا، فكنْ هادئاً"، قالت السَّيِّدة متوقِّفة إلى جواره، بينما انحنى لالتقاط القبَّعة. لكنْ، كان صفٌّ من فتيات عائلة بوليزي المتصلِّبات كتماثيل العذراء، قد تجاوزهم بالفعل، وحال بينهم وبين الابن.

- "ربَّما سيكون من الأفضل أن تكتب إليه اليوم" - استرسل محرِّر العقود، وهو يسير إلى جوار أنطونيو. - "لنرسل خطاباً مسجَّلاً سريعاً، وسأُلقيه أنا بنفسي في صندوق بريد محطَّة القطار. أتعرف عنوان منزله؟".

- "أعرف أين يسكن، لأنه دعاني مرَّة أو اثنَتَيْن لتناوُل الإفطار".

- "كيف؟" - قال محرِّر العقود مضطرباً - "ألا تذهب إليه كل مساء تقريباً؟".

- "لا ...".

- "ربمّا كان هو مَنْ يأتي إليكَ؟".

- "كنَّا نلتقي بالخارج" قال أنطونيو، كي يُنهي الحوار، وتنفَّس بعناء.

توقَّف الموكب في ميدان صغير بالقرب من باب جاريبالدي، وقد وقف هناك أحد الخطباء على درجات سُلَّم الكنيسة، بينما أخرج منديلاً من جيبه ليُجفِّف شَفَتَيْه. جذب بائعو التين الشَّوكيِّ عرباتهم المليئة بالقشور خارج الموكب الذي أحاط بهم، وأسندوها إلى الجدران، وتوقَّف ترام محتشداً بالرُّكَّاب، وتوافدت من كل صوب حقائب شراء وسلال وأطفال رُضَّع، يتعلَّقون بسياج الأرصفة.

- "مَن المتحدِّث؟" سأل أنطونيو حماه.

- "المحامي بوناكورسي صديق والدي".

- "لماذا يُشيّع البارون أحد خصوم الفاشية؟" تساءل صوت مجهول.

- "إنه أفضل محامي في كتانيا، وهو رجل مهذَّب، لم يُسبِّب إزعاجاً لأحد قطُّ!" أجاب محرِّر العقود بحيوية.

- "كان اشتراكيّاً!" كرَّر الصوت.

- "كان، كان ... كنَّا جميعاً ... علينا أن نرى مَنْ هو الشخص الآن، وليس ماذا كان!".

- قال الخطيب : "منذُ عشرين عاماً هجر البارون بوليزي أصدقاءه ...".

-قال الصوت ذاته: "يُدهِشني أن ينطق أحد الاشتراكيِّيْن بكلمة بارون باحترام".

- "لا يروق لسيادتكَ أيُّ شيء!" - ردَّ محرِّر العقود بجفاء عندما أدرك أن المتحدِّث فتى نحيف في الثامنة عشر، وابن أحد المستأجرين منه والذي كان، آجلاً أم عاجلاً، سيجد أثاث منزله في الطريق لأنه لم يدفع الإيجار.

- "رَاقِب النتائجَ!" - أكمَلَ الصوتُ الوقحُ - "انظرْ هناك، إلى جانب الترام!".

وفي المكان الذي أشار إليه الشَّابُّ، كان الحاكم يطأ بعنف قَلَنسُوَة الفراء، ويدير ظَهْره مبتعِداً، يتبعه خمسة أشخاص.

- "هذا لا يروق لي" - هتف محرِّر العقود - "لا يروق لي حقّاً! ... أنطونيو، بماذا تنصحني أن أفعل؟"

- "لا شيء" قال أنطونيو.

- "أتعتقِد أننا سنواجه تبعات مُؤسِفة؟".

- "لقد انحدرنا كثيراً، ولكنْ، ليس إلى الحَدِّ الذي نخشى فيه حشرة في كتانيا بينما لدينا أصدقاء في روما".

كان يمرُّ في تلك اللحظة بإحدى موجات السعادة المباغتة التي حلت به منذُ أعلن خطبته لباربرا.

- "أوه، يا الله!" - كان يفكِّر - "إذا أردت ... أيّ سخافة الخوف من ...".

في الوقت ذاته، اكتسبت ذكريات روما كلها التي كانت تقبع في ذهنه باردة، ومجرَّدة كتصميمات هندسية فوق سَبُّورة، ضوءاً، وألواناً، وروائح نفَّاذة للغاية، من رائحة الفاكهة المجفَّفة التي كانت تنبعث في ديسمبر من أزقَّة حَيٍّ تريفي إلى رائحة الثعالب المثيرة في حديقة الحيوان.

- "لماذا تثيرني إلى هذا الحَدِّ يد باربرا المعلَّقة في ذراعي اليمنى، كلَّما حاولتُ الهروب إلى قبضة يدي اليسرى؟ أشعر بقلبي يدقُّ في صدغي كمطرقة .. إذا لم أكن مخطئاً، عندما تحمرُّ خجلاً تزداد رائحة بشرتها قوَّة ...".

في خضمِّ هذه السعادة، استعاد أنطونيو أعوامه في روما، موجِّهاً نظرة تحدٍّ لوجوه أولئك الذين لم يجرؤ على النظر إليهم قطُّ، وكان يفكِّر بنفسه أثناء ارتكابه عملاً غاية في الفظاظة بحقِّ الكونتيسة ك.، عندما أدرك أن الخطيب يوجِّه التَّحيَّة الأخيرة، بصوت متقطِّع ولحية مبللة بالدموع، إلى النعش الذي وُضِعَ على العربة الجنائزية. انفضَّ الموكب. أُرسلَت باربرا

إلى المنزل مع حمويْها بينما استقلَّ محرِّر العقود وأنطونيو عربة لمرافقة البارون إلى المدفن.

أهناك حاجة لذكر ذلك؟ خلال هذه الرحلة، وبينما ترتفع جدران مدفن أكويتشيلا ببطء أمام الريش الأسود الذي يُزيِّن الجوادَيْن، كان أنطونيو أكثر الصّقليِّيْن دون الثلاثين عاماً سعادة. كان يرمق، بين الحين والآخر، محرِّر العقود المترمِّت الجالس إلى جواره، بينما يفكِّر أن ذلك التَّزمُّت الموروث في شكل حياء وبراءة وطهارة، يضفي على جمال باربرا حرارة شمس أغسطس المثيرة لكل مشاعر اللَّامبالاة والاندفاع المبهجِة التي تتسلَّل إلى خيالات إغفاءة القيلولة، وشكر الله، لأنه خلق إلى جوار الأنذال الرجال الشرفاء، وإلى جوار زوجات الوزراء والفتيات على شاكلة لويزا دريهير بنات محرِّري العقود. لو لم يكن الحمو رجلاً يقدِّس الشَّرعيَّة، وينأى عن السياسة، لانضمَّ أنطونيو على الفور - عرفاناً بالجميل - إلى حزب محرِّر العقود، حيث إن الآراء والشعارات والتَّعهُّدات والدوافع التي قد يُعتقَل المرء لأجلها أو يُدفَع للسرقة كانت تبدو له أقلَّ أهمِّيَّة بكثير من شيء ما يستقرُّ في أعماق قلبه.

نزل البارون العجوز مقبرة العائلة تحت عينَي ذلك الحفيد عظيم الوسامة اللَّامعتَيْن بالبهجة، والذي لم يفكِّر - ولو لبُرْهَة - بالرجل، بينما التابوت يختفي في اللَّحد المظلم.

وبَّخ محرِّر العقود حارس المقبرة، بسبب الحالة التي كان المدفن عليها:

- "في الممرَّات يتكوَّم قشر المندرين، وورق غارق في الزيت! نحن ندفع، يا صديقي العزيز، مبلغاً كبيراً في نهاية كل شهر، ويحقُّ لنا أن نطالب بأن يكون موتانا في خير حال!".

وبقوله هذا، استدار كَمَنْ يبحث عن نظرة تأييد في تلك الوجوه المنهكَة المطبوعة كلها، يميناً ويساراً، على الخزف، البارزة على الرخام، والمُطلَّة من اللُّحُود.

- "لنعد إلى المنزل!" - أضاف ملتفتاً إلى أنطونيو - "ستكون باربرا في انتظارك في الشرفة!".

واستقلاّ العربة.

عندما وصلا ميدان ستيسيكورو، حدَّق أنطونيو في شرفات منزل بوليزي، لكنه وجدها خاوية، ومُوصَدة المصارع.

- "يا لحماقتي" - قال محرِّر العقود - "نسيتُ أننا في حالة حِدَاد".

كانت البوَّابة المُشرَعة تزدحم بالشرائط السوداء، وبمنشورات كُتبت بحبر أسود ثقيل، لم يجفّ بعد، وفي المنتصف، برز صليب أسود وكلمات: **إلى الأب، والحَمي، والجَدّ المعشوق.**

كان الحارس يرتدي ملابس الحِدَاد، كما كان الزائرون الذين يتخبَّطون في المدخل المظلم، في ملابس الحِدَاد أيضاً.

- "يجب أن أرتدي الأسود أنا أيضاً!" - فكَّر أنطونيو، وهو يصعد درجات السُّلَّم.

- قال محرِّر العقود صاعداً إلى جواره: "يؤسفني أن تكون تلك البَليَّة قد أفسدت سعادتكما! لكنْ، يُقال إنها فأل جيِّد. لا أطيق صبراً حتَّى نفتح الشرفات، كي نُدخِل بعض الهواء ... وهذا المساء يجب أن نكتب الخطاب للوزير".

كتب أنطونيو على الفور ذلك الخطاب المرغوب بشدَّة، وأرسله محرِّر العقود للنسخ على الآلة الكاتبة مرَّتين، وقرأه مئة مرَّة، شاعراً بالمرارة؛ لأن أنطونيو لم يخاطب الوزير بصيغة المخاطب. أُلقي الخطاب، الذي أُرسل مسجَّلاً، في صندوق محطَّة القطارات.

- "أسيُجيب؟" - كان محرِّر العقود يكرِّر كل دقيقة، إلى أن لفظت باربرا نافذة الصبر بـ"بابا!.." حادَّة، وغير عادية.

ردَّ الوزير بعد أسبوع معلناً أن العُمدة سيتغيَّر "لهذا ولأسباب أخرى أشدّ خطورة".

استولت على محرِّر العقود سعادة طاغية، وأبلغ النبأ، قاهراً تحفُّظه الطَّبيعيَّ، إلى مقرِّ الحاكم.

- "غريب" - قال الحاكم شاعراً بالإهانة، - "إني لا أعرف شيئاً عن هذا. أعليَّ أن أصدِّق أن الوزير يُبلغ قراراته لبعض الأفراد؟ ... ومع هذا، لا أريد الإساءة إلى زوج ابنتكَ الذي أعلم بقوَّة صلاته في روما ... لكنْ، إجمالاً أنا هنا أُمثِّل معاليه، ولي شرف تنفيذ أوامره ... لا يا عزيزي محرِّر العقود، إذا سمحتَ لي، أشكُّ أن يكون قرار تغيير العُمدة قد وُقِّع بالفعل ... وقد تكون رغبة الوزير بسبيلها للتنفيذ في القريب بشكل أو بآخر ... لكنْ، اليوم اليوم ... أنا أشكُّ!".

احمرَّ وجه محرِّر العقود.

- "وإذا كان هذا صحيحاً؟" - فكَّر - "لقد جازفتُ ببيع فراء الدُّبِّ قبل صيده! لم أرتكب حماقة في حياتي كهذه! إذا كان محقّاً، سأُغلق المكتب، وأرحل إلى مدينة أخرى. لقد أخطأتُ باللعب مع الصِّبيَة ... مَنْ ينام مع الأطفال، يستيقظ مبتلّاً!".

وبمرور ثلاثة أيَّام، استدعى الوزير الحاكم على الهاتف، وبعد "ماذا يحدث في كتانيا؟ وماذا يفعل حرس البلدية ليلاً؟ وعلمتُ أنه في مبولة عامَّة في شارع بيتشيني يوجد بيتَي شِعْر في حقِّي، يُتَداولان الآن في إيطاليا كلها، كما يردِّدهم أولئك الأدباء الحمقى في مقهى أراجانو!"، أبلغه أن عُمدة كتانيا يمكنه إعداد حقائبه.

انتشر الخبر سريعاً في المدينة، وأتاح لأنطونيو نيل التَّحيَّة المبجَّلة من أشخاص كثيرين لا يعرفهم. ومن خلفه، في الطريق، كانت تدور همساً كلمة "قادر ...". "إنه شخص قادر!" كانوا يقولون: "إن الكونت ك. ليعطيه قلبه!".

وعندما بلغت هذه العبارةُ أسماعَه بوضوح، اشتعل أنطونيو غضباً، وتوقَّف أمام السَّيِّد العجوز الذي نطق بها، مسلِّطاً نظره على عينَيْه، حتَّى بدأ الآخر في الشحوب والارتعاد. -"قلتُ فقط إنكَ شخص قادر" - همس - "أتبدو لكَ كلمة مُهينة؟ أنا صديق والدكَ: وقد أسرَّ لي السَّيِّد ألفيو ...".

أدار أنطونيو له كتفَيْه، وابتعد دون أن يسمح له بإنهاء العبارة، لكنه شرع منذُ ذلك اليوم في مراقبة الأب حتَّى سمع، عبر باب مشرَع، هذا الحوار:
- "لقد أخذ منِّي ومن جَدِّه! معنا نحن - عائلة مانيانو - يا صديقي العزيز، لا تتمالك النساءُ أنفسهنَّ إذا لمسناهنَّ بإصبع واحد ... أنا لا أعرف ما الصلة التي تجمع ابني بالكونتيسة، لكنني أعرف أنه إذا مكثت امرأة معه، تظلُّ تلعق شَفَتَيْها ما بقي لها من العمر".

انتظر أنطونيو أن يترك الأب أصدقاءه، ليرمقه بنظرة نارية.

- "ماذا بكَ؟" - سأل الأب - "لماذا تراقبني هكذا؟".

- "لقد سمعتُ حوارك منذُ قليل".

- "وفيمَ أخطأتُ؟ أمن العار أن تكون فارساً ماهراً؟ العار هو أن تكون نقيض ذلك!".

ضرب أنطونيو بقَدَمه من الغضب. -"ألا تفهم أبداً؟" هتف.

- "أوه، يا صديقي!" - قاطعه الأب - "أنا أفهم جيِّداً. حاولْ أنتَ أن تفهم أن لي حُرِّيَّة الحديث عن ابني متى وكيفما أريد!".

لم يفه أنطونيو بشيء، وفي صباح اليوم التالي، هاتف صديقه إدواردو، طلباً للسلوى تقريباً.

- "يجب أن أتحدَّث إليكَ أنا أيضاً بشكل عاجل"- أجاب ابن العمَّة - "انتظرني في المنزل، سآتيكَ بعد قليل!".

سرعان ما وصل أنطونيو لاهثاً. كان الاحمرار يحيط بعينيه، وبدا محطَّماً بفعل عذابات حُبٍّ من طرف واحد. خرج الصديقان إلى الشرفة.

- "أنا أبعث على الرثاء!"- قال إدواردو مستنداً إلى السياج المُطِلِّ على الطريق الذي يبرق تحت أشعَّة الشمس - "لقد سقطنا في الوحل بالفعل!".

- "مَنْ؟" سأل أنطونيو.

- "جميعنا ... أنتَ، أنا ... خاصَّة أنا!".

- "لماذا؟".

"منذُ ستِّ ليالٍ وأنا لا أنام، ولا آكل، وبالأمس، في الطريق، اضطررتُ للاتِّكاء على أحد الشَّحاذين، لأن الأرض كانت تميد بي! وأشعر بخلاف ذلك بإثارة لا يمكنني إطفاؤها ... أذهب باستمرار إلى بنسيون إيروس ... وقد ألصقت اليوم الخادمة بالحائط، وهي امرأة في العقد الخامس ...".

- "لكنْ، لماذا؟".

- "أنطونيو، أنصِتْ لي: يجب أن أصير عُمدة لكتانيا! لا بدَّ من ذلك! إنه ميثاق شرف قطعتُهُ لنفسي، وأقاربي الذين يظنُّونني رجلاً تافهاً! يجب أن ترسل إلى الوزير! وإذا كان من بُدٍّ، فلنذهب معاً إلى روما ... سأتحمَّل أنا نفقات الرحلة! لكنْ، يجب أن أصير عُمدة كتانيا! بأيِّ طريقة" - وأضاف رافعاً وجهه بعينَيْن مسدَلتَيْن، وتاركاً نفسه لهواء فبراير يتخلَّله - "هذا الوضع لا يمكن أن يستمرَّ، إذا كان صحيحاً أنهم يقومون بإعداد حملة على أبيسينا. لا بدَّ من جهل أحد معلِّمي المدارس، كي يتكرَّر في أيَّامنا هذه ما فعلتْهُ إنجلترا منذُ ثلاثة قرون! أنصِتْ لما كتبه كروتشي!".

- "مَنْ؟" سأل أنطونيو.

- "بينيديتو كروتشي، ألا تعرفه؟ فقط لأنه كان يعيش في إيطاليا، يمكننا أن نقول إن بها رجالاً، وإلا لصارت حظيرة ...".

جذب من تحت إبطه *"تاريخ أوروبا"*، وقرأ منه بضع صفحات، حدَّدها بـ "لا! ... إنه أحمق! ... لااااا!"، تحسُّباً لوقوع الكتاب في يد أحد المتعصِّبين أو رجال الشرطة.

كان إدواردو يقرأ بحماس شديد. وسمعت الشرفة الصغيرة المزدحمة بأوراق النباتات، التي تترك ظلالاً قِرْمِزيَّة تحت الشمس الوردية كلمة الحُرِّيَّة، ينطقها بأقصى عذوبة ويأس رجل في الثانية والثلاثين، يعرف أنه لا يملك القوَّة ولا القدرة، ليحول دون ضياعها نهائياً.

كان أنطونيو على وشك التّأثُّر، عندما مرَّ بذهنه خاطر: "وكم من المرَّات ذهبتَ إلى بنسيون إيروس؟ - سأل.

- "نهار أمس، ثلاث مرَّات!" - قال إدواردو قاطعاً القراءة - "أوّل أمس، ولن تصدِّقني ... أربع مرَّات!".

- "ومع الخادمة العجوز ... ماذا حدث؟".

- "أوه، لا شيء! بعد أن ألصقتُها بالحائط كما لو كنتُ على وشك خنقها، صرختُ في وجهها: بو! وتظاهرتُ بأنني أردتُ مزاحها. أتوسَّل إليكَ، يا أنطونيو، أتوسَّل إليكَ، يا عزيزي، اكتبْ للوزير اليوم!".

عاد أنطونيو للكتابة للوزير، لكنْ، خاب مسعاه هذه المرَّة. أبدى الكونت ك.، في ردِّه المهذَّب، أسفَهُ لعدم استطاعته إرضاء الصديق أنطونيو؛ لأن تعيين إدواردو لينتيني عُمدة لكتانيا لم يلاقِ قبولاً من السكرتير الاتّحاديِّ كالديرارا. سيدير شؤون البلدة مفوَّض، نائب الحاكم سولارينو - رجل في العقد الخامس - لينِّ الجانب، لكنه ظلَّ لثلاثين عاماً بمنأى عن الشعور بالبهجة، وهو مؤلِّف لبعض المقطوعات ضدَّ فرنسا وروسيا.

ما إن أدرك إدواردو أن العدوَّ الأساسي لمشروع حياته هو لورينزو كالديرارا، حتَّى حاول استمالته، وكرَّس وقته للتَّردُّد يومياً على مقرِّ الاتّحاد الفاشي - قصر فاكاريني المبهِج، يقف أمام بوَّابته مجنَّدان، يُبديان مظهراً ما بين الحِذْق والإنهاك، وبينما يضمَّان إلى صدرهما كعب بندقية أثقل منهما وزناً، يُلقيان في أعقاب كل مَنْ يدخل عبارة مبحوحة ومُطوَّلة: "لنرفع القبَّعة، يا رفيق!" - وأبدى حماساً شديداً في أن ينال إعجاب كالديرارا الذي ينتهي به الأمر دائماً إلى الحكم بالذكاء، فقط، على أولئك الذين يروقون لأحد الحمقى.

انغمس أنطونيو من جانبه، بشكل تامٍّ، في حياته الخاصَّة، وأمضى خمسة أشهر سعيدة إلى جوار فتاة كانت تسمح له، يوم الأحد فقط، وعند العودة من القدَّاس، بأن يصعد معها درجات السُّلَّم عَدْواً، تاركَيْن خلفهما

الآباء يَغْدُون بأنفاس ثقيلة، ويُقبّلها على شَفَتَيْها عند نافذة المستراح ذات الزجاج المعتم.

حاول تقبيلها بَغْتة في حجرة الصالون، في ساعة متأخِّرة، عندما سقطت من يد محرِّر العقود، والجريدة التي يضمُّها إليه من مسند المقعد الجانبي، لكنْ، كانت باربرا، تحاول بكل قوَّتها وعنايتها الانزلاق من ذراعه دون أن تُصدِر ضوضاءً، تهبُّ من المقعد، وتعدو خارجة من الصالون، متّكئة من فورها على الباب الذي أوصدتْهُ خلفها، وتصطكُّ ركبتاها. وفي طريقها للعودة، تكون عيناها الخضراوان الجميلتان اللتان تُخْجِلان واعظي الصيام الكبير، قد ازدادتا تزمُّتاً، كما ازدادت الدائرة التي تحيط بهما دُكْنَة. أطار هذا عقلَ أنطونيو الذي كان ذلك المزيج من الاستجابة الجسدية والالتزام الخلقي يغويه بشدَّة، حتّى إنه اضطرَّ لطلب الإذن بالانصراف نصف ساعة قبل موعده المعتاد، بسبب هذه البهجة الغريبة التي تُسبِّب له ألماً في عنقه.

بعد أن خرج من منزل عائلة بوليزي، سار على غير هُدى في الدروب والشوارع والأفنية، وهو لا يكفُّ عن التفكير في أنه في أكثر المنازل تزمُّتاً في كتانيا، والذي تتدلّى داخل أَصْوِنَتِهِ ثياب العمِّ الراهب، تنام تحت حماية صلبان بحِدَّة السيوف - فتاة نقية كماء الشرب وتخصُّه هو دون غيره. وبينما هو يفكِّر بهذا الشكل، كان يقطع شارع إتنا الذي زاده هدوء الليل اتِّساعاً، ثمَّ يحاذي حديقة بيلليني القاتمة كالعاج، ويسلك شارع ريجينا مارجريتا الذي يمتدُّ مستقيماً بين المنازل الصغيرة المكتظّة بالشرفات والتماثيل والنخيل، إلى أن يترك المدينة، وينتهي خاوياً ومرتفعاً، يكاد يحاذي السماء. وعندما وصل إلى ميدان سانتا ماريا دي چيسو، سلك طريق تشيبالدي، وبعد صخب الخطوات الطويل، يضاعف بعضه الصدى، ويخمد بعضه الوحل، بلغ ميدان هذه الضاحية الغارقة حتّى أسطحها في رياح البحر الذي يبدو من هذه الناحية، في الليالي القمرية، هادئاً وساكناً عدا في شريط منه يموج بالفضَّة، وتطبع عليه المدينة صورةَ مداخنها، وإحدى قبابها بلون

الحبر الأسود في بعض الأحيان؛ وأخيراً عاد سالكاً طريقاً مهجوراً، وريفيّاً تقريباً، يمرُّ بمغسلة عامَّة، تفوح منها رائحة الصابون، وبعض مزارع الكرنب والخسّ، حتَّى دخل كتانيا مرَّة أخرى عبر شبكة من الأزقَّة الملتوية التي لا تزال تشعُّ بحرارة الأطفال المتشرِّدين الذين اعتادوا التزاحم بها طوال اليوم. في هذه النزهة، كان يُلقي برأسه إلى الوراء بشكل دائم، مُثبِّتاً عينَيْه على السماء، تلك السماء الجنوبية الحيوية، الساخنة والزخمة التي تبدأ على الفور، حيثما ينتهي السطح أو الشرفة أو قمَّة أحد الأشجار - ولا تبدو مفكَّكة، غامضة وملتبسة، كما هي في مُدُن الشمال - زاخرة، وكثيفة للغاية ومهيبة وصامتة، كما يمكن أن تكون على مبعدة آلاف السنين الضَّوئيَّة من الأرض.

أعادتْهُ رجفة برد إلى المنزل مرهَقاً وسعيداً، وسقط على الفور في نوم طويل، هجرتْهُ إلى الأبد - أو هكذا كان يبدو - بعض الأحلام التي ملأت لياليه كلها تقريباً بالمرارة قبل خِطْبته باربرا.

بعد ظهيرة أحد أيَّام مارس، أرادت باربرا أن تذهب مع أنطونيو، والسَّيِّدة أجاتينا، والسَّيِّد ألفيو لزيارة أراضي عائلة مانيانو في سهل كتانيا. حملتْهم عربة قديمة تترنَّح، وتطأ الخَشْخَاش والأُقْحُوَان خطوة خطوة إلى قلب هذا السهل الجميل الذي تجري إلى جواره، في كلِّ صوب، وفي ظلِّ ضوء الرياح الجنوبية، والعمق الرَّمليِّ المائل للاصفرار، أمواج بحر يونيو.

يفضي امتداد الحقول من جانب إلى رمال ذهبية شديدة النعومة، ومن جانب آخر، إلى أسفل جبال سيراقوسا ولينتيني جنوباً، وأسفل سور كتانيا شمالاً، والتي تعتلي آخر منازلها بالفعل منحدر الإتنا الذي يلوح من هنا في كامل اتِّساعه مذهلاً متفرِّداً، كجدار عظيم في معبد، اندثرت جدرانه الأخرى كافَّة. وكفى بسيلٍ يستمرُّ لاثنَتَي عشرة ساعة، ليغمره تماماً مازجاً مياه السيمتو ببُحيرة لينتيني، لكنْ، يكفي نهار مشمس أيضاً، ليخرج به إلى النور، أخضر، تقطر منه المياه، وتنبعث من طُرُقه رائحة الوحل، وقد هزلت الطيور من تحليقها الطويل والمضني فوق الأعشاب التي تكشف عنها المياه.

في أوقات ما بعد الظهيرة، في شهر مارس، يترقرق أعلى هذا الريف ضوء صافٍ للغاية، تبعاً للرياح التي تبدو وكأنها تضرب السماء نفسها، وتدفع سريعاً أمام الشمس حجباً حمراء، أو صفراء، أو فيروزية، أو برتقالية. تؤدِّي هذه الرياح دورات جنونية في فراغ الأفق كله، ويُشاهد دورانها حيناً في الغبار الذي يضفي بَغْتة على حوافِّ الإتنا اليانعة لوناً دخانياً، وحيناً شرقاً في الساتر الفجائي الذي يُدكن لون البحر، وحيناً آخر في السهل ذاته، حوله ودانياً منه للغاية، في المزروعات التي ترتدُّ للخلف، وترتفع من جديد باعثة من صدرها بريق الذهب والفضَّة.

ما إن لاح السور المحيط بأملاك مانيانو، وخلفه يمتدُّ طريق طويل، يؤدِّي إلى تلٍّ ترتفع فوقه مجموعة من الدُّور، أطفأ السَّيِّد ألفيو البايب بلمسة من إبهامه، وجفَّف فمه، وصاح: -"ها هو هناك مَنْ يمتصُّ دمي! لنغرق الآن في شكواه!".

كان الشخص الذي عَنَتْهُ هذه الكلمات هو المُزارع بالمناصفة، عجوز نحيف يرتدي بنطالاً قطنيّاً وقميصاً مجعّداً أبيض اللون، لكنه صار داكناً من الغبار، كُمَّاه المرفوعان يكشفان عن ذراعَيْن سوداوَيْن وجافَّتَيْن، وكان وجهه جافّاً ومتشقِّقاً، له عينان صغيرتان فاتحتا اللون، يسحقهما بروز الحاجبَيْن، فكانا يبدوان تحته وكأنهما لن يستطيعا التَّحرُّك أبداً، يربط حول عنقه منديلاً أحمر، يتدلَّى معقوداً على شكل أُذُنَيَ قطّة فوق القميص الخالي من الياقة.

انتصب المزارع، ووضع يَدَيْه، واحدة فوق الأخرى، على عصا الفأس، ثمَّ أمسك بيده اليمنى، التي تعيقها ضخامتها، القبَّعة من حافَّتها الأمامية، وحاول أن يرفعها مديراً إيَّاها للأمام والخلف حول جبينه الذي يبدو أنها قد التصقت به بجذبة عنيفة، ربَّما جاءت بدافع الغضب، انتزعها وتركها مرفوعة أعلى رأسه، ثمَّ تركها بعد قليل، تسقط عليها بعنف.

- "هيه، نونسيو!" - صاح السَّيِّد ألفيو، مُطِلاّ بوجهه من نافذة العربة التي توقَّفت في منتصف الطريق - "أهكذا يكون العمل؟".

أرخى المزارع جفنَيْه، وهزَّ رأسه لاتكاً كلمة تذمُّر.

- "متى ستبدأ الحَرْث؟".

- "هذا الصباح"(*) قال الآخر مرخياً جفنَيْه مجدَّداً.

- "و كيف الحال؟".

- "سيِّئ".

- "سيِّئ لماذا ؟".

- "لأنه سيِّئ".

- "ماذا يتبقَّى لكَ، يا أخي، إذا حُرِمتَ من النواح؟ لقد أتيتُ" - قال بصوت مغاير - "لأُري زوجة ابني البرتقال".

- "وأين هو البرتقال؟".

فتح السَّيِّد ألفيو النافذة، ونزل متذمِّراً من العربة، ليُوفِّر مساحة لذراعَيْه اللَّتَيْن تريدان الحركة: - "اسمعْ، بربِّكَ، لا تجعلْ صبري ينفد! لقد أتت هنا اليوم زوجة ابني، ويجب أن يحتفيَ بها الجميع، ولا أريد أن أغضب. يا سيِّدة أجاتينا، باربرا، أنطونيو" - أضاف وهو يمدُّ وجهه إلى داخل العربة - "انزلوا!".

نزلت المرأتان من جانب، وأنطونيو من الجانب الآخر للعربة، مادَّتَيْن بصرهما إلى الأمام، حيث بريق البحر الذي يمتدُّ، فيما وراء الريف الأخضر والرمال، حُرّاً تحرِّكه الريح في الأفق كله.

- "كم هذا جميل!"- قالت السَّيِّدة أجاتينا. - "لتحيا، يا أخ ألفيو! لم أكن أعلم أنها بهذه الفتنة".

كان الزرع قد ارتفع بالفعل، له مظهر القمح الشاحب، وتُلقي عليه نباتات خَشْخَاش بالأحجام جميعها بضوئها القوي، التي يضفي كأسها على الهواء لوناً أحمر، بين السنابل وداخل الأخاديد. كانت أشجار الزيتون المكسوَّة بلون فضِّيٍّ، والمزروعة على مسافات منتظمة، تبدو

---

*) يجيب المُزارع مستخدِماً اللهجة المحلِّيَّة.

وكأنها أشخاص توقَّفوا لنداء شخص، يأتي متأخِّراً، ويمتدُّ الطريق نحو تلٍّ، يرتفع عليه منزل صغير أصفر اللون، له مصراعان خضراوان، وتوجد إلى جواره مزرعة ذات جدار مَطليٍّ باللون الأبيض، تتوسَّطه أبواب، ونوافذ سوداء؛ وعلى يمين الطريق، تنبسط لامعة، شديدة الاخضرار، وتنعش الهواء بنسماتها الرطبة، حدائق الليمون لأعلى وصولاً إلى التَّلِّ، وللخلف حتَّى تلٍّ آخر، أُقيم فوقه، بألواح من اللَّافا الجافَّة، بئر ضخم.

اتَّجه طرف عصا السَّيِّد ألفيو بفخر فوراً شطر هذا البئر.

- "انظري هناك، يا أخت أجاتينا! ذاك هو بئري! ... هؤلاء الحمقى كلهم هنا" - وأشار إلى بعض الفلَّاحين المنتشرين في الحقل، بخلاف المزارع - "كانوا يردِّدون لي ليل نهار أننا سنجد مياه مالحة. لكنني أصررتُ، وقلتُ: لا، توجد المياه المالحة حيث يوجد البحر، وليس داخل الأرض! لنحفر، وسنجد المياه العذبة! ... لو لم أصرّ، لكانت هذه الحدائق التي ترونها الآن في ذمَّة الله ... لكن كل ما ترينه، يا سيِّدتي العزيزة، كل شيء، كل شيء هو نتاج تصميمي. كل شجرة تُعبرٌ عن رأي لي، لأنني اضطررتُ للسباب مئة مرَّة قبل أن أُهيِّئ لها موضعاً ... هلمُّوا هنا، انظروا!".

تقدَّم السَّيِّد ألفيو، وقد أعاده هواء مزرعته إلى شبابه، وعبر الطريق بخطوة واسعة؛ كان المزارع يتبعه من جانب، وتعبير الضِّيق الدائم يرتسم على وجهه، والسَّيِّدة أجاتينا من الجانب الآخر، متشبِّثة بقبَّعتها التي تجذب الرياح ريشها بكل قوَّة، وفي الخلف تأتي باربرا، ويدها في يد أنطونيو، بأعين سعيدة مسلَّطة على المزرعة التي توشك أن تصير ملكاً لها.

- ها هو البرتقال! انظروا! يا للفتنة!" - قال السَّيِّد ألفيو، موجِّهاً طرف عصاه نحو قطعة من الأرض، حيث يختفي الليمون بَغْتة، ويحتشد البرتقال الذي يلمع بلون أحمر. - "إيه، أيُّها الحيوان" - صاح ملتفتاً إلى المُزارع - "أتريد أن تُخبرني أن هذا ليس برتقالاً؟".

لوى المُزارع شَفَتَيْه، وأرخى جفنَيْه.

- "حسناً، ماذا تقول" - تابع السَّيِّد ألفيو - "هل أكلتِ القطَّةُ لسانكَ؟".

- "لكنْ، أين ترى هذا البرتقال؟" تنهَّد المُزارع.

- "ماذا تعني بأين أراه؟ هنا، هنا، هنا وهنا! تعال معي، اقتربْ: هذه، انظر، هذه التي ألمسها بعصاي، ماذا تكون؟".

مدَّ المُزارع فمه، وأرخى جفنَيْه.

- "تحدَّثْ، بالله عليكَ، ما هذه؟".

كرَّر المُزارع تعبير وجهه.

- "ما هذا؟ بطاطا؟ ... بندورة؟ ... أو هو خيار جافٌّ مثلكَ؟".

- "هذه برتقالة. وماذا يعني هذا؟".

-"كيف، ماذا يعني هذا؟ يعني أن البرتقال موجود!".

- "بالكاد واحدة" قال المُزارع رافعاً سبَّابة يده، ومُديراً إيَّاها يميناً ويساراً.

- "ولأجل واحدة! ..." - علَّق بعد صمت، كما لو كان يريد أن يقول: - "ولبرتقالة واحدة فقط هذا الصخب كله؟".

- "لكنْ، هناك، هناك، هناك وهناك، ألا يوجد برتقال آخر؟".

- "القليل ... أو لا شيء!".

- "لا شيء؟ إذنْ، أنتَ كفيف!".

- "لستُ كفيفاً، أنتَ تتوهَّم أشياءَ اليوم، يا ألفيو".

- "آه، هل أنا مُخطئ اليوم؟ أنا أخطأتُ مرَّة واحدة، يا أخي، عندما تشاركتُ معكَ في هذه الأرض المنكوبة لتزرعَها. أوه، ليت ملاكاً قد ظهر لي ليُخبرني كم سأندم على ذلك! ... لكنْ، يجب أن تأتي الشُّيوعيَّة، بحقِّ الله المقدَّس، إنني لأموت وأرى كيف ستتصرَّف معها!".

- "آه، أيجب أن تأتي الشُّيوعيَّة الآن أيضاً؟ لنرَ هذا أيضاً".

- "أجل يجب أن تأتي الشُّيوعيَّة!".

نظرت السَّيِّدة أجاتينا بذهول إلى الخطيبَيْن باحثةً عن تفسير، لكن أنطونيو غمز لها بعينه.

- "وأنا ماذا سأخسر؟" قال المُزارع.

- "ستخسر كونكَ تفعل ما تريد وتسرق؛ لأنهم سيضعون قيداً في عنقكَ، كما لو كنتَ كلباً، وسيُقيِّدونكَ إلى جذع شجرة، ويجعلونكَ تكدُّ حتَّى تلفظَ أنفاسكَ الأخيرة!".

كانوا قد وصلوا في تلك الأثناء إلى التَّلِّ، والكلاب تنبح من شتَّى الجهات، وهي تهزُّ الدعائم والأكشاك المقيَّدة إليها، وهربت الدجاجات بأجنحة مرفوعة خلف الديوك التي تصيح وسط حشد من فرخ الدجاج الأصفر.

- "لكنْ، ستخسر أنتَ الأرض!" أضاف المُزارع.

- "حسناً، سأفقِدُ أنا الأرض! سأفقِدُها، أجل! لكنني سأفقِدُها بسرور، لأنك ستبتلعها كلها، هذه الأرض المنكوبة!".

- "لماذا تصفها دوماً بالمنكوبة، هذه الأرض التي وهبكَ الله؟ هذا ليس عدلاً!".

- "أجل، هي منكوبة، هذه الأرض المسكينة؛ لأنها نُكِبَتْ عندما آلت إليكَ! ما الذي أحصل عليه من هذه الأرض المنكوبة؟ ولا حتَّى بعض الخضر للسلطة! لكنْ، أتظنُّ أنكَ ستنالها، أرضي هذه، عندما تأتي الشُّيوعيَّة؟ أنتَ معتوه، لن يملك أحد أرضاً مع هؤلاء، ومَنْ يُرِدِ الأرض، ليذهب ليبحث عنها في المقابر! ويجب أن تُحسن التَّصرُّف دائماً، وتعمل ببذل دمكَ؛ لأنكَ إن لم تعمل بدمكَ، سيعدموكَ شنقاً إلى شجرة خَرُّوْب، ويجعلوا منكَ طعاماً للنمل. أتظنُّ أن الشُّيوعيِّين مثل ألفيو مانيانو؟ سيدفنكَ أولئك، يا أخي، حَيّاً ورأسكَ خارجاً، ثمَّ يسيرون على عينَيْكَ!".

- "أنا لا أفقه شيئاً، يا ألفيو. أنا لا أريد الشُّيوعيَّة، ولا أيَّ شيء آخر؛ أريد أن أعمل فقط".

- "تعمل قليلاً، وتسرق كثيراً، هذا ما تريده".

- "أنا لا أسرق، يا ألفيو".

- "إنكَ لتأكلني أنا أيضاً!".

- "أنا لا آكل أحداً".

- "كفى!" - صاح السَّيِّد ألفيو منهَكاً - "كفى، فهمتُ؟ لا أسمح لكَ بالحديث معي هكذا! كفى!".

- "ماذا بكما؟ ماذا بكما؟ ثُيران الصخب دائماً. أنتُما الاثنان!"- صاحت امرأة في التسعين من عمرها من مدخل المزرعة، محرّكةً كفّاً ضخماً مُعوَجّاً في نهاية ذراع صغير امتصَّتْهُ السُّنُون تماماً. . "أخان في الرضاعة، يا سادة، ولا يجب على أحدهما أن يرفع عينه في وجه الآخر، وانظروا كيف يتعاركان!1".

- "أيّتها الأمُّ تانينا" - قال السَّيِّد ألفيو مقترباً من العينَيْن اللّتَيْن تريان بالكاد بعض الخيالات، ويمتزج فيهما كل من الحَدَقَة والجزء الأبيض كالأصفر والأبيض داخل بيضة تتهشَّم - "أيّتها الأمُّ تانينا، أخي في الرضاعة، اعتاد أن يمتصَّني أنا أيضاً بعد أن ترك ثديَيْكِ، أهذا صحيح أم لا؟".

بدا أن الدم قد تدفَّق في وجه العجوز، وكشفت العينان واللِّثَّة عن لونها الأحمر الوردي. كانت تبتسم.

- "إيه، أُمّي تانينا، لا تقولي لا! هذا ما كان يفعله هذا المحتال!".

- "صحيح، صحيح" - وافقتْهُ ذات التسعين عاماً مبتسمة دوماً بالطريقة ذاتها، ومحرِّكةً يدها نحو الابن العجوز نونسيو، والابن في الرضاعة العجوز السَّيِّد ألفيو.

- "وإذنْ؟ كان يسرقني آنذاك، كما يسرقني الآن!".

مالت العجوز ذات التسعين عاماً برأسها، كَمَنْ يريد إخفاء ابتسامته عن أعين الآخرين في حياء صبيانيٍّ.

- "أوه، يا ألفيو، ألفيو، لا تزال كما أنتَ دائماً مهزاراً".

- "أوه، يا نونسيو، نونسيو، بل يجب أن تقولي، يا أُمِّي تانينا!".

ولأن كل شيء قد عاد إلى نصابه، والجميع يتسمون الآن، وضعت باربرا يداً على صدر أنطونيو، وقالت له: - "هيَّا، خذني إلى البئر!".

- "إلى البئر؟" - قال أنطونيو متردِّداً، وهو يرنو شطر الحقل المغمور كله في وميض الرياح.

- "ماذا تقولين، إلى البئر، باربرا؟" - تدخَّل السَّيِّد ألفيو - "هذا هنا لا يعرف الطريق إليه".

-"لا يعرف كيف يذهب إليه!" كرَّرت باربرا، وهي تبتسم غير مصدِّقة.

- "أقول صِدقاً، هو لا يعرف كيف يذهب إليه! لقد صنعتُ له، بدمي، نعمة الله تلك كلها، وهو لا يعرف دروبها حتَّى، ولا يعرف أين يجب أن يضع قَدَمَهُ".

- "ليس صحيحاً، يا أبي!" - قال أنطونيو، ولأنه أدرك أيَّ طريق هو الأقصر لبلوغ البئر، جذب يد باربرا. - "هلُمِّي" - صاح - "هيَّا!".

- "سآتي أنا أيضاً!" صاح السَّيِّد ألفيو.

لكنْ، الخطيبان كانا قد شرعا في العَدْو عبر درب يمتدُّ مرتفعاً ويدعمه جدار صغير، يجري عند طرفه مجرى مائي، وبعد قليل وصلا إلى التَّلِّ الآخر. وهنا كانت الرياح تعصف بشدَّة، وتضرب جدران البئر الصَّخريَّة الذي يُدوِّي بصوت مقبض.

أدارت باربرا، وقد تحرَّر شَعْرها من الماسكات، نظرة وجلة بين أشجار الزيتون والليمون والمزروعات التي تمتدُّ في كل حَدَب وصَوْب تحت اسم أنطونيو خطيبها، وفي المنتصف، كان يتقدَّم بصعوبة مَن ابتاعهم ونمَّاهم بجهد كبير، وقد بدا من بعيد ضئيلاً، وأنهكتْهُ الأرض الرطبة.

- "إنه شيء رائع!"- هتفت ملتفتة إلى أنطونيو - "كنز حقيقي!".

ولأن الآخرين كانوا لا يزالون على مبعدة، ألقت بذراعَيْها حول عنقه، ولأوَّل مرَّة كانت اقتربت هي من فمه، ومنحتْهُ قبلة طويلة.

- "عزيزي، عزيزي!" - كانت تكرِّر - "عزيزي!".

كان الضوء الذي أصاب عينَي أنطونيو بينما تُقبِّله باربرا بأنفاس حارَّة تارة، وباردة تارة أخرى، ساكنة تارة كما لو كان قلبها قد توقَّف، ومتلاحقة تارة أخرى في لهاث بهجة بلا حدود، قد امتزج في ذاكرته بالسعادة ذاتها، سعادة تمكَّنت منه طوال الوقت الذي يفصله عن يوم الزفاف، تاركةً، في إطار تلك السيطرة الفيَّاضة والقوية، مساحة للقلق والمعاناة، وإن كانت ضئيلة، ودائمة الاتِّصال بها، كالأحجار التي تُرصِّع الذهب.

انتهت هذه السعادة فعليّاً خلال احتفال الزفاف، وهو راكع على وسادة مخملية، وتصل إلى أسماعه همهمات أكثر الرجال نفوذاً، وأشدِّ السَّيِّدات فتنةً في كتانيا؛ بَغْتة، بدا أن جدران الكنيسة ترتفع إلى خارج مجال الرؤية، وتنسدل على الأبواب أستار سوداء سميكة، وتلتصق بالأرض بشكل يوحي ببقائها إلى الأبد، بدا أن صوت الأرغن ذاته الذي يتصاعد من جناح فرقة الإنشاد المبطَّن بالبلُّوط، وصخب الغناء يُفصِّلانه للأبد عن الطُّرُق والميادين ومحطَّة القطارات والبحر، كمياه شلَّال شديدة الهدر قادرة على تدمير سفينة ضخمة، وتحويلها إلى ذرَّات تهوي لأسفل.

أجال عندئذ إلى الخلف نظرة مرتعبة، وأفزعتْهُ وجوه الحاضرين بدلاً من أن تهدِّئ من روعه، خاصَّة وجوه الفتيات الجميلات التي بدت وكأنها تنضح بفضول شرِّير، وانطباع يمتزج فيه التَّحدِّي الساخر والرضا تقريباً. لاح له الأب - السَّيِّد ألفيو، الأطول قامة من الجميع - مرتدياً السواد، ومنحنياً إلى الأمام، يُداري أساه، وفي عينَيْه تترقق دمعة ...

لم تكن إلَّا لحظة واحد حتى تملَّكه الانزعاج المعتاد من حفيف ثوب باربرا، التي تنهض واضعة يداً على ركبتها اليمنى، وغصَّت البهجة في حلقه. كان الخامس من يوليو 1935. في ذلك اليوم، حملت وسامة

أنطونيو الرهبان أيضاً على التَّأثُّر، حتَّى ذلك الذي أنكر الغفران على ابنة شقيقة رئيس الأساقفة؛ لأنها زَلَّت مرَّات كثيرة إلى الخطيئة محاوِلة رسم جسد أنطونيو على أحد الأعمدة. وأخذ رجل أبله فقير وأعرج، بعد أن استطاع التَّسلُّل إلى الجمع المتأنِّق الذي يزدحم به الرواق، يُفسِح طريقاً، وهو يتقدَّم أنطونيو، ويرقص من الابتهاج، مطلِقاً صيحات متباعدة، فقد كان ذلك العريس يُذكِّره بالفرقة الموسيقية والمواكب والرايات والذُّرَّات الملوَّنة، أي كل ما يمثِّل له بهجة وفتنة.

كانت كثير من الفتيات يحتضنَّ باربرا، وهنَّ يرمقنَ، عبر أنفها الصغير، أنطونيو بنظرات ناعمة، ولم يرتوينَ من القبلات اللَّاتي يغمرنَ بها وجناتها، وفمها، حيث ستنهمر قبلات الزوج بعد قليل. وكانت العانس إيلينا أرديتسوني تمكث بمفردها، أسفل أحد الأعمدة، وتحمل في حقيبتها المصنوعة من جِلْد التمساح مسدساً ببكرة دوَّارة، وهي تشعر في حلقها مرارة أن ترى كل دقيقة ذلك الشَّابَّ شديدَ الوسامة الذي كان بمقدورها أن تناله بإشارة واحدة، يعيش إلى جوار غريمة لها. سالت قطرات كبيرة من الدموع على وجهها الممتلئ بالحفر، بينما تفكِّر في نفسها، وفي أنها تتَّسم بالطِّيبة والكرم والنُّبل والتَّرفُّع، لأنها لم تستخدم هذا السلاح الذي تحتفظ به في حقيبتها، والذي لم يكن مشحوناً قطُّ بالطلقات.

وكان الرجال - كي يتخلَّصوا من الشعور بالغَيْرة الذي ملأ أفواههم بالمرارة كلَّما نظروا إلى نسائهم، وهنَّ يشتعلنَ بالاحمرار والإثارة كما لو كنَّ جميعاً سيتزوَّجنَ من أنطونيو - يتحدَّثون فيما بينهم عن السياسة، دون أن يتوقَّفوا عن الإجالة بنظرهم، ليروا إذا كان الحديث عن رئيس الحكومة ممكناً، ليس بشكل مهين بالقَطْع، ولكنْ، في توقير معتدل، ودون استخدام عبارات مكرَّرة. كان المفوَّض يؤيِّد، بشكل عامٍّ، قيام حملة عسكرية في الخريف ضدَّ أبيسينا، كما يتَّضح من مقطوعته التي ألَّفها من بضعة أيَّام مضت. وقد أثارت تلك المقطوعة، التي تلاها دون أن يطلب منه أحد

ذلك، جنون محرِّر العقود بوليزي. - "لندع الحديث عن الحرب، من فضلكم!" - بدأ يقول - "لندع الحديث عن الحرب في هذا اليوم بالذات! لندع الأمور تمرُّ بسلام! بالأحرى، لنخرج! لنتبع العروسَيْن!".

لاقت هذه الدعوة استجابة فورية.

خارج الكنيسة، كانت سماء متوهِّجة تُغشي الطريق المزدحم بالناس، الذين يرفعون أكفَّهم اتِّقاءً لوهج الشمس، ويشيرون إلى العروسَيْن، الواقفَيْن أعلى درجات السُّلَّم.

كان أنطونيو يُضيِّق عينَيْه اللتين أغشتهما الشمس، مجعِّداً جِلْد ذقنه الحسَّاس الرقيق، في تعبير - غير مقصود - لمَنْ يداعب وجهاً محبَّباً إليه.

عصف التَّأثُّر بفتيات الشرفات المواجهة، أمَّا أكثر مَن استطاعت تجاهل مرأى الحشد، والعروس، ودرجات السُّلَّم، وواجهة الكنيسة والشمس المسلَّطة عمودياً عليها، وتخيَّلتْ نفسها هي وأنطونيو بتلك الحميمية والاتحاد اللذين يتناسبان أكثر مع تعابير وجهه في تلك اللحظة، فقد تراجعت، في تأثُّر أشدّ من تأثُّر الأخريات، شطر الحائط فزعاً من أن تهوي لأسفل.

وأخيراً اصطفَّت السَّيَّارات التي كانت تنتظر في شارع إتنا أمام درجات سُلَّم الكنيسة، وتوارى العروسان والأقارب والمَدعوُّون داخلها، ثمَّ سرعان ما ظهروا عبر واجهات النوافذ الزُّجاجيَّة. تحرَّك الموكب، وتوقَّف بعد بضعة أمتار؛ لأنه وصل ميدان ستسيكورو، أسفل منزل محرِّر العقود بوليزي. قطعت العديد من الفتيات عَدْواً المسافة القصيرة في شارع إتنا التي تفصل الكنيسة عن الميدان،واستطعنَ رؤية العروس وأنطونيو مرَّة أخرى، وهما يترجَّلان من السَّيَّارة، وقد أربكتْهما باقةٌ كبيرةٌ من القَرَنْفُل.

في تلك اللحظة، فكَّر ماركيز سان لورينزو المتوقِّف في منتصف الميدان، وقبضته على خصره النحيل، في أن يشكو أولئك الأقارب كلهم الذين يرتدون اللباس الرَّسميَّ، بالرغم من الاتِّجاه المعارض لسكرتير عامٍّ

الحزب. عندئذ هتفت إحدى الفتيات: "أنا واثقة أننا لن نرى أنطونيو يمرُّ في شارع إتنا حتَّى الثانية عصراً. لقد انقضى الشباب حقّاً!".

لم تحد الفتاة عن الصواب. عاش أنطونيو وباربرا حياة منعزلة بعد الزواج، وشُوهدا مرَّات قليلة في شوارع كتانيا. كانت المدينة تعلم أنهما يقضيان أيَّامهما في منزل بيانا، أو باترنو، وتغمرهما السعادة حتَّى أخمص قَدَمَيهما. قال أمير برونتي الذي يقطن فيلَّا عتيقة متداعية على مسافة كيلومترَيْن من مزرعة مانيانو: إنه قد عبث بين أستار العروسَيْن الرقيقة بمكنسته القوية، وقد فاجأهما، وهما يتعانقان. أثار هذا الخبرُ الخيالَ، وبينما تهزُّ رياح مارس مصاريع النوافذ، فكَّرت العديد من النساء في صخب سنابل بيانا الجميل، وفي بهجة رؤيتهنَّ يتمايلنَ عبر واجهة الشرفة الزُّجاجيَّة، وهنَّ يعانقنَ رجلاً مثل أنطونيو. هكذا انقضى عامان، أرسل خلالهما، في نهاية كل شهر، إدواردو لينتيني كُتُباً لصديقه، وقطع فرويد، أينشتاين، كروتشي، بيرجسون، مان، أوتيجا طريق بيانا، وباترنو، لكنه لم يستطع قطُّ معرفة إذا ما كان أنطونيو يقرؤهم أم لا.

- "ماذا ترسل له؟ كُتُب؟" - هتف ذات يوم السَّيِّد ألفيو، عندما التقى إدواردو في شارع إتنا.

"ذلك هناك، أتخيَّله يحرث ليل نهار في البحر!".

- "أهناك أبناء في الأفق؟" سأل إدواردو.

- "لا شيء" نفث العجوز.

-علَّق إدوارد: "يبدو غريباً، ولكنْ، عندما يزيد ذلك الشيء عن حَدِّه، لا يأتي عن طريقه أبناء. لقد أدركتُ أن الأزواجَ المنهجيِّيْن، أولئك الذين يقضون ليلة واحدة في الأسبوع، يحصلون على ابن تلو الآخر".

- "من جانب آخر، رُزقتُ أنا أيضاً بأنطونيو بعد أربعة أعوام من الزواج. لقد انتظرتُهُ كما المسيح، ذلك الشيء القبيح!".

- "لنقل إنه ليس قبيحاً!".

- "لقد كان مُشعِراً كقرد! ... وبعد ذلك - للحقِّ - تحسَّن".

- "يبدو لي أنه تحسَّن بشكل زائد!".

رفع العجوز وجهه في الهواء، كما اعتاد أن يفعل عندما يريد إخفاء رضاه، وشدَّ على العصا خلف ظَهْره، ثمَّ ابتعد دون أن يَفوهَ بشيء. لكنه استدار بَغْتة، وقال ملوِّحاً بعصاه صوب إدواردو: - "أنتَ" - أخذ في الصياح بصوت حادٍّ - "ألن يجعلوكَ عُمدة أبداً؟".

اشتعل وجه إدواردو بالاحمرار، وهُرِعَ إلى المنزل مصاباً بأزمة عصبية.

- "ذلك العجوز الغبي يحطِّم كل شيء!" - كان يكرِّر عبر الحجرات والأروقة. - "إذا بلغت عبارة مماثلة أسماع كالديرارا، وهو الأمر المحتمل للغاية في ظلِّ وجود جواسيس كُثُر، يتنزَّهون في الطريق، لن يُكلِّفني بمنصب العُمدة، ولا حتَّى إن نزل المسيح على الأرض!".

لكنْ، لم تنله هذه الخيبة. تمَّ تعيين كالديرارا نائباً لسكرتير عامٍّ الحزب بعد أسبوع، وانتقل إلى روما، تاركاً مكانه في كتانيا إلى مَنْ يُدعى بيترو كابانو، وهو شابٌّ من العامَّة في الخامسة والعشرين من العمر، له عينان جاحظتان ككُرَتَيْن من الزجاج، ورأس حليق، ولم يحلم قطُّ سوى بأن يدخل - في تبجيل ومهابة - قاعة الدرس في المدرسة الثَّانويَّة التي درس بها أبوه، وعمُّه، وأخوه، وأخبروه فيها مرَّات عدَّة: "لكنْ، أيَتَّسِمُ كلُّ مَنْ في عائلتكم بالحُمْق؟" عندما وصل كالديرارا إلى روما، ذهب ليقدِّم احترامه للكونت ك. الذي، وحتَّى يبدو مُلِمّاً بأحداث كتانيا، تحدَّث إليه عن إدواردو لينتيني - الاسم الحاضر في ذاكرته؛ لأنه وجده في الخطاب الذي أرسله إليه أنطونيو في عام 1935، وأخفى فيه الابن الأكبر خاتماً سرقه من الأُمِّ. ظنَّ كالديرارا أن الكونت ك. هو حقّاً صديق لينتيني، وقال عرضاً، قبل أن يستأذن للرحيل، إنه قد عيَّنه عُمدة لكتانيا.

لم يجد الكونت ما يُبدي اعتراضه عليه. وبعد خمسة أيَّام وجد إدواردو، عندما عاد إلى المنزل، اثنَيْن من العمَّال يتدلَّيان من الشرفة، وفي أيديهما سلك ومطرقة.

- "أدخلَتْ لنا البلديةُ على نفقاتها الهاتفَ في المنزل". فَسُرَّتِ الزوجة.

خشي إدواردو أن يُصدِّق، وانتظر - مرتعداً من الحمَّى حتَّى إنه اضطرَّ إلى التَّدثُّر في وشاح - أن ينتهي تركيب الجهاز.

وما إن قال العمَّال: "لقد انتهى!"، دقَّ الجهاز، وهنَّأت مئات الأصوات، التي خرجت، واحداً تلو الآخر، من أحياء الموظَّفين والنبلاء، ذلك الشَّابَّ الملتفَّ في وشاح، لتعيينه عُمدة كتانيا.

كان ذلك في الثاني من يناير 1938.

بعد ثلاثة أشهر، كان أنطونيو وباربرا يعودان للسُّكْنى في كتانيا، في جناح في قصر بوليزي. دعا إدواردو العروسَيْن في ذات الليلة لحضور حفل عيد الشفيع في شرفة العُمدة. اتَّجهت العدسات المكبِّرة كلها إليهما. وفي الأروقة، في فترات الراحة، كان الأصدقاء يعانقون أنطونيو:

- "لكنْ، كيف" - كانوا يقولون - "تصير دوماً أكثر شباباً ونحافة؟ لقد برز لنا بعد الزواج بطن، يبدو وكأنه جِوَالٌ من المخلَّفات!".

- "يعني هذا" - قال لويجي دي أجاتا بمكر - "أن الزواج بالنسبة إليه لا يعتبر استرخاءً!".

- "يا لابنة عمَّتي المسكينة باربرا" - هتف من بين أسنانه إدواردو لينتيني - "لا يمكنها رؤية الضوء وهذه الخزانة تجثم على صدرها!".

في اليوم التالي بدأت الزيارات والدعوات على الغذاء.

كان السَّيِّد ألفيو يسير في شارع إتنا بين الابن وزوجته، ويتوقَّف كل دقيقة أمام واجهات المقاهي، ليتطلَّع إلى الحملان المصنوعة من السُّكَّر والمعلَّق بها راية حمراء، لكنه، في الحقيقة، كان يراقب نفسه وأنطونيو وزوجة الابن جميعاً في صفٍّ واحد، كما لو كانوا في لوحة مرسومة.

- "إنهما متحابَّان" - كان يردِّد في المساء، داخل حجرة الصالون، إلى الأقارب الذين يأتون لزيارته - "متحابَّان، هذا كل شيء!".

- "لا يحتاج الوقوع في هوى أنطونيو إلى جهد!" - كانت بعض العمَّات المرتديات السواد يُعلِّقن.

- "يحتاج ولا يحتاج!" كان العجوز يجيب، ليثير مدائح جديدة.

- "لا بدَّ من مداعبة ابني بشكل سليم، وإلَّا خربش كقطٍّ".

- "أنصِتْ لي جيِّداً" - قالت له زوجته ذات مساء بعد أن انصرف الضيوف. " هذه الفوضى كلها في منزلي تُشعِل النار في وجهي، كما أنني قد أُصبتُ بالحُمَّى. سنصير حديث البلدة إذا واصلنا التَّحدُّث هكذا عن ابننا أنطونيو. عقلي يخبرني أن هناك مَنْ يتسلَّى وراء ظهورنا".

- "أيّ وَهْم هذا؟" هتف العجوز. "لم يُولَد مَنْ يستطيع خداعي! وعلى أيَّة حال، يُدمِّر هؤلاء البشر كلهم في المنزل الأرضيَّات بأقدامهم الحديدية كأرجل البغال التي يشبهونها، لا يروقني هذا أنا أيضاً!".

لم يستقبل العجوزان أحداً لبعض الوقت، لكنْ، في بداية شهر مايو، اضطرَّا لتقديم القهوة إلى ابنة العمِّ جوسيبنا، وهي امرأة صمَّاء في العقد الخامس، تحدَّثتْ لساعتَيْن متَّصلتَيْن، محرِّكة، كجواد يركض، الريشَ الذي تحمله على رأسها. وفي النهاية، سألت السَّيِّد ألفيو، وهي تستأذن للرحيل:
- "أصحيح أن باربرا بوليزي ستتزوَّج دوق برونتي؟".

- "أيّ تخريف هذا؟" صرخ فيها السَّيِّد ألفيو، وهو يلمس شَعْرها بأنفه
- "باربرا بوليزي هي زوجة ابني! ...".

وكإجابة وافية، بدأت العجوز في أرجحة وجهها المتخشِّب، تاركةً فمها نصف مفتوح دون أن تَفوهَ بشيء.

- "زوجة أنطونيو! ... ابني!" أضاف السَّيِّد ألفيو رافعاً صوته أكثر.

- "وبالضبط لأجل ذلك!" أجابت العجوز.

- "كيف، بالضبط لأجل ذلك؟ أفهمتِ ما قلتُهُ؟".

- "فهمتُ ما قلتَهُ لي. ولقد أجبتُ: بالضبط لأجل ذلك".

- "إذنْ، صحيح أنكِ لا تفقهين شيئاً؟".

- "يا ابن عمِّي ألفيو، صدِّقني، أنا وحدي في عائلتنا أمتلك عقلاً راجحاً".

- "سارة" - همس العجوز إلى زوجته مسيطراً بجهد عظيم على غضبه - "رافقيها أنتِ، لأنني إن ذهبتُ إلى الباب، وبحقِّ الله، سأُلقيها من السُّلَّم كَجِوَال من الملابس المتَّسخة كما هي! وقولي لها أن تستحمَّ بالفرشاة قبل أن تذهب إلى منازل الناس!".

رافقت السَّيِّدة روزاريا القريبة إلى الباب، قبَّلتها بخفَّة، وعادت إلى الزوج.

- "ها أنتم ترون، أيُّها السادة!" - كان العجوز يهمهم - "أوْضِحْ لها كيف هي الأمور، وأخبرْها أن باربرا لا تستطيع أن تتزوَّج أحداً؛ لأنها متزوِّجة بالفعل؛ ولأنها زوجة ابني، زوجة أنطونيو، وتجيبني: بالضبط لأجل ذلك. وتتظاهر بأنني أنا الأبله!".

- "لكنْ، ألفيو" - قالت السَّيِّدة - "أنتَ تصير أحمق بالفعل!".

- "لماذا؟".

- "كيف تتناقش مع معتوهة، تُوجِّه لكَ حديثاً، ليس له أيُّ معنى؟".

- "ربَّما أرادت إهانتي".

- "وأيّ إهانة توجد في ترديد شيء لا يمتُّ للواقع بصلة؟".

- "لا أعرف، لكنْ، ربَّما أرادت إهانتي".

- "هيَّا، ألفيو، لنتناول هذا السُّمَّ، ونذهب للنوم!".

جلس العجوزان في حجرة الطعام، أحدهما في مواجهة الآخر، وتناولا طعامهما في صمت.

- "أتعلمين ماذا أرادت أن تقول؟" - هتف السَّيِّد ألفيو عندما أشعل البايب - "أن ... ما هناك ... أن باربرا وأنطونيو لا يتَّفقان".

- "انظرْ فيما تنبش! هؤلاء الاثنان لا يفترقان طوال اليوم ... يقوم هو بخطوة ... تقوم هي بالأخرى ... فلماذا يجب ألَّا يتَّفقا؟".

- "وما علمي بهذا؟ لكنهم في كتانيا لا يستطيعون الصمت، لأن ذلك يؤلمهم. أتعلمين ما يقولون؟ إن ابنكِ يمزِّق زوجته!".

- "وكيف يُمزِّقها؟".

- "هيَّا، بحقِّ الشيطان السَّيِّئ، يجب أن أخبركِ كل شيء! ابنكِ أسوأ من كبش، وإذا ما وُجدت امرأة إلى جواره لن يدعها أبداً في سلام".

- "أنطونيو زوج مثل الآخرين!".

- "أنتِ تعلمين أن هذا ليس صحيحاً! إن لأنطونيو وجهاً يبدو كملاك من الحلوى، لكنه في داخله كبش! ... كان يحتفظ في روما بثلاث أو أربع عشيقات معاً! وإذا كانت أنهاره تصبُّ كلها الآن في البحر ذاته، فمسكينة تلك الزوجة! ... لها الحقُّ كله في أن تُصاب بالإنهاك ... على أيِّ حال، أودُّ الحديث غداً مع محرِّر العقود!".

- "حسناً، تحدَّثْ غداً مع مَنْ تريد، لكنْ، دَعْنا نَنام الآن؛ لأن النوم سيمنعكَ من التفكير ... ولا تُضيِّع وقتكَ في النظر تحت الأسِرَّة! ... فلن يأتيَ من تحتها لصوص لنا نحن الفقراء ... إنهم يعرفون أين يذهبون...".

الفصل الخامس

"... وأجل سترى
أشياء، قد تُفقدُ حديثي الثقةَ".

دانتي

"لتصمت الموسيقى، فلا توجد الجنَّة".

ف. لانسا

"لكنْ، كيف، ما يخصُّ المرأة؟ ..."
"مذكَّر ..."
"وما يخصُّ الرجل؟ ..."
"مؤنَّث ..."
"كم هي غريبة لهجتُكُم!"

X

- "ها هو، ها هو، لقد كنتُ محقّاً! ... تسير الأمور كما كنتُ أقول!" - أخذ السَّيِّد ألفيو في الصياح، معيداً السَّمَّاعة إلى المكتب الذي يجلس إليه، ويميل برأسه شطر الرواق كَحَلَزُوْن ضخم. - "هلُمِّي لتسمعي! سارة! روزاريا! ... مَنْ يتحدَّث؟ لا أحد؟".

ظهرت السَّيِّدة روزاريا على باب حجرة الصالون، بوجه أرهقه الجهد، وكساه بالاحمرار؛ لأنها نزعت عن الحائط لوحة ضخمة للقدِّيسة أجاتا، ولا تزال تحتفظ بها في يدها.

- "أيوجد دائماً قدّيسون في يدكِ؟ دعيهم في سلام ... لأنهم هم أيضاً لديهم ... إحم ... في رؤوسهم! هل سمعتِ؟ كنتُ محقّاً! لقد هاتفَني الآن محرِّر العقود بوليزي بصوت جادٍّ، وأخبرني بضرورة أن يتحدَّث إليَّ، وأن الأمور لا تسير على نحو جيِّد، ويجب أن نلتقي على الفور!".

-"أوه، يا إلهي، ساعدنا! وبما أجبتَهُ؟".

- "أنني أنتظره هنا، وأن يُحضر لي علبَتَي سيجار، وهو يمرُّ على بائع التبغ، وذلك لأن زوجتي" - أضاف بصوت قاسٍ ومليء بالتلميحات - "نسيتْ أن ترسل أحداً هذا الصباح كي يبتاعَهم لي".

- "ألديكَ رأس تفكِّر به في هذه الأشياء!".

- "ماذا تريدين، أن أرتديَ السواد، لأن ابنكِ يقوم بدور الديك؟ انظري! يتسلَّى هو بحكِّ رأسه بينما أتحمَّل أنا وِزْرَ ذلك!... ثمَّ، ثمَّ ... هذا المَدعوّ ... محرِّر العقود، بصوته الناعم للغاية، ووجهه بالغ الجدِّيَّة! ماذا يريد؟ أن يضع أنطونيو خارج المنزل ما يجب أن يظلَّ داخله؟ أن يجد لنفسه عشيقة؟ أن يملأ بطون الخادمات؟ إذا كانت ابنته تروق لابني بشدَّة، فليكفَّ هو عن التَّدخُّل في شؤونهما! وليصنع كل امرئ في بيته الخبز كما يهوى. ألم يتزوَّجا بالماء المقدَّس؟".

- "بحقِّ الأب والابن والرّوحِ القُدُس! ماذا تقول؟".

- "وإذنْ؟ ليدعهما! كنتُ أعرف أن ابني فحل!".

- "اصمتْ! لقد دقَّ الجرس ... يا للعذراء المقدَّسة، ساعدينا!".

- "أوه، يا سارة، لا تُضجِريني! ممَّ تخافي؟".

- "لا أعرف، لكنْ، يُستحسن ألّا تحدث هذه الأشياء".

سمعا، في تلك الحظة، صوتاً في الرواق: "سيِّدتي، إنه محرِّر العقود!".

- "أدخِليهِ، أدخِليهِ على الفور!" - بادرت السَّيِّدة - "أين تَركتِهِ، في الرواق؟ يا أخي، لماذا تُكثِر من المجاملات؟ ادخلْ، أنتَ في بيتكَ".

نهض السَّيِّد ألفيو متثاقِلاً من مقعده: - "هل أتيتَ لي بالسجائر؟" سأل.

دخل محرِّر العقود حجرة الصالون في صمت، كما لو كانت الإجابة عن سؤال بهذه التفاهة لا تستحقُّ العناء، مرتدِياً سترةً سوداءَ، وبنطالاً مقلَّماً، وقبَّعةً سوداء من الجوخ.

كان وجهه ينضح بالجدِّيَّة، بينما تصطفُّ شعيرات رأسه وذقنه في نظام كأرقام في دفتر حسابات، وتطلُّ من عينَيْه بصرامة تلك النظرة التي تدفع المحتضرين إلى فَتْح أفواههم، ليتحدَّثوا مرَّة أخرى عن أشياء، تمتُّ لهذا العالَم بصلة. تلاشت على الفور الابتسامة من وجه السَّيِّدة روزاريا، ولم يجد السَّيِّد ألفيو في نفسه القدرة على أن يسأله إذا ما كان قد ابتاع السجائر.

- "أنتِ، يا سارة" - تمتم - "اتركينا قليلاً بمفردنا! وابعثي لنا بفنجانَيْن جيِّدَيْن من القهوة، وأعيدي برفق لوحة القدِّيسة أجاتا إلى حيث نزعتِها".
رفعت السَّيِّدة روزاريا اللوحة المغطَّاة بالغبار، وابتعدت، بعد أن قامت بانحناءة خائفة، عبر الرواق، وهي تنحني كل خطوَتَيْن لتقبيل الزجاج الذي يحمي الصورة المقدَّسة.

- "إذنْ" - قال السَّيِّد ألفيو - "ماذا هناك؟".

جلس محرِّر العقود على مقعد، وانتظر أن يجلس مضيفه أيضاً على الأريكة ذات المسند المكتظِّ بالزجاجات الصغيرة والتماثيل والحلي، وانتظر أن تكفَّ هذه التحف الصغيرة التي هزَّها سقوط جسد السَّيِّد ألفيو عن الطنين، ثمَّ قال ببطء، خافضاً بصره ومُديراً القبَّعة في يده: - "إن أمور أبنائنا لا تسير على ما يرام!".

- "أخي" - أجاب السَّيِّد ألفيو على الفور - "إذا أردتَ الحقيقة، كنتُ أنا أيضاً أنوي مهاتفتَكَ اليوم للموضوع ذاته".

- "آه، حقّاً؟" سأل محرِّر العقود وهو ينهض، وقد ثبتت على وجهه كوتد تلك النظرة الصارمة.

- "أجل؛ لأنني أنا أيضاً ... في هذه الأيَّام الأخيرة ... كنتُ أريد أن أقول ... تعلم أنه هنا في كتانيا لا أحد يهتمُّ بشؤونه الخاصَّة ... كل منهم ينشغل بالآخرين ... سمعتُ أن باربرا مستاءة ...".

- "ليس هذا ممكناً!" قاطعه بجفاف محرِّر العقود.

- "ما هو غير الممكن؟".

- "أن تكون ابنتي قد تحدَّثت في موضوع بهذه الدِّقَّة. أنتَ تعلم تربيتها وأخلاقها وطريقة تصرُّفها!".

- "دَعْنا من ذلك، يا محرِّر العقود! لم يقلْ أحد إنه قد صدرت من فم باربرا كلمة في هذا السياق. لكننا ... في كتانيا جُبِلنا على ذلك ... نقرأ الأشياء في العينَيْن ... وتكفي إيماءة، أو تنهيدة، فيعتقد الجميع أنهم قد فهموا ...".

- "لا أريد أن يكون ابنكَ هو مَن تحدَّث!".

- " أنتَ تُخطِئ الآن، يا عزيزي محرِّر العقود! أنتَ لا تعرف أنطونيو، لا تعرفه حقّاً، ولا تعلم أيَّ حجر كريم هو زوج ابنتكَ!".

- "أنا أوَّل مَنْ يمتدح طيبة وعذوبة وذكاء ابنكَ ... لكنْ، للأسف، في الحياة الزَّوجيَّة - كما تعلم أنتَ أفضل منِّي - توجد أشياء أخرى، لها أهمِّيَّتها ...".

- "هيَّا، يا محرِّر العقود! لها أهمِّيَّة، أجل، لكنها ليست ذات أهمِّيَّة بالغة! يجب ألَّا نبالغ!... وإلَّا تجاوز الأمر حَدَّه! ... وقبل أيِّ شيء، إذا أردتَ رأيي، فإن تدخُّل الأبوَيْن في أمور الأبناء مثل تدخُّل الوثني في الكتاب المقدَّس!".

- "ماذا تريد أن تقول؟".

- ألَّا يتدخَّل الأبوان أبداً، وألَّا يتورَّطا".

- إلى حَدٍّ مُعيَّن".

- "إلى حَدٍّ مُعيَّن بالتأكيد. إذا صارت الأمور خطيرة، وإذا تجاوزت الحَدَّ، عندئذ، أجل، كلمة منِّي وكلمة منكَ، ويمكننا أن نُقنع أنطونيو بأن ... إجمالاً ...".

- "عزيزي سيِّد ألفيو، لا تساوي الكلمات في هذه الحالة الكثير".

- "إيه، لا، يا عزيزي محرِّر العقود! نحن لسنا حيوانات، نحن مسيحيون، مُعمَّدون ومؤكَّدون! إذا كانت باربرا تعاني، سيكون هو أوَّل مَنْ يقلق".

- "باربرا تعاني أخلاقيّاً فحسب".

- "لا أفهم لماذا يجب أن تعاني أخلاقيّاً. لا يهين الزوجة أن يكون زوجها ... أجل، إجمالاً ... متَّقداً للغاية".

ران صمت. قطب محرِّر العقود بين حاجبَيْه بحزن محافِظاً على ثبات نظرته في عينَي مضيفه.

- "ماذا قلتَ؟" همس بعد ذلك.

- "قلتُ" - كرَّر السَّيِّد ألفيو بنفاد صبر - "لا يهين الزوجة أن يُظهِر زوجُها رغبَتَهُ فيها بأكثر من المألوف!".

- "لكن الأمر لا يتعلَّق بهذا!" قال محرِّر العقود.

ران صمت آخر.

- "كيف؟ ماذا قلتَ؟" سأل السَّيِّد ألفيو متلعثماً.

- "إن الأمر لا يتعلَّق بهذا".

- "بمَ يتعلَّق إذنْ؟".

- "آه، كنتُ أظنُّ أنكَ ترتاب بشيء ما. وأرى، على النقيض، أنكَ بعيد تماماً عن تصوُّر ما يحدث بين أبنائنا. أؤكِّد لكَ أن هذا سيجعل من الصعب عليَّ تفسير الأمور لكَ، ومؤلم للغاية أيضاً".

- "لكنْ، يا محرِّر العقود، هيّا! لا تتركني أنتظر على الجمر! بمَ يتعلَّق الأمر؟ أيكون ابني مريضاً؟".

- "لا أعرف إذا كان من الممكن أن ندعوه مرضاً، لكن ... حالته ...".

- "لكنْ، ماذا به؟ ماذا به؟" - قال العجوز مُخفياً رعدة الخوف في نبرة الغضب - "ماذا به؟ أنتَ تقتلني! ماذا به؟".

- "اهدأ، أرجوكَ! صحّته ليست مهدَّدة".

- "روزاريا" - صاح السَّيِّد ألفيو - "ناوليني كوباً من الماء!".

- "اهدأ!" - كرَّر محرِّر العقود - "اهدأ! أؤكِّد لكَ أن أنطونيو بصحَّة جيِّدة: فقط هو ...".

دخلت في تلك اللحظة السَّيِّدة روزاريا، حاملةً بنفسها كوب الماء، على أمل أن تقرأ في وجهَي الزوج والضيف طمأنينة تهدِّئ من روعها. لكنها وجدت وجه محرِّر العقود مُوصَداً بصرامة، كآلة اشتدَّ إحكامها، ووجه الزوج يكتسي نصفه بالاحمرار، ونصفه بالاصفرار، وعينه تدور في محجرها، وتبدو كَرِزٍّ يوشك على الانفصال.

- "ماذا بكما، بحقِّ العذراء المقدَّسة؟" هتفت بمجرَّد أن وقعت عيناها عليهما.

- "اصمتي" - أجاب الزوج - "اصمتي، ضعي الكوب على تلك المائدة، وعودي من حيث أتيتِ!".

خرجت السَّيِّدة مسرعة، وقد أدارت نحوهما، قبل أن تُغلق الباب، وجهها المسكين المذهول.

- "يا محرِّر العقود" - قال السَّيِّد ألفيو بعد أن شرب، وتلمَّظ بلسانه المعجون بالمرارة أكثر من مرَّة - "لنتحدَّث بوضوح، ودونما مهاترات! ماذا حدث؟".

- "ظلَّت ابنتي، بعد ثلاثة أعوام من الزواج، كما خرجتْ من منزلي".

تمتم السَّيِّد ألفيو العجوز: - "كيف؟ مَنْ؟" لكنْ، برفق، لأنه لم يدرك شيئاً على الإطلاق، وثبَّت على محرِّر العقود طويلاً عينَيْن، تبدوان هادئَتَيْن وحالمَتَيْن بينما كان عقله مضطرباً وتائهاً.

تنهَّد محرِّر العقود مدركاً أن كلماته، التي بذل جهداً كبيراً لجعلها حاسمة، لم تُقرِّب السَّيِّد ألفيو، ولا خطوة واحدة، من الحقيقة، وظلَّ الرجلان يراقبان بعضهما البعض في صمت، الأوَّل حزيناً، والآخر مطمئنّاً.

بَغْتة، برقت عينا السَّيِّد ألفيو، كما لو أن شيئاً ما قد انفجر في عقله تارِكاً انعكاساً عميقاً في الحَدَقَتَيْن.

- صرخ: "لا، أيّ هُرَاء تقول؟ لا! لا!".

- "يؤسفني، يا صديقي العزيز، لكنْ، لسوء حظّي وحظِّكَ، هو بالفعل كذلك، كما قلتُ لكَ!".

- "لا، البتَّة!" - أضاف السَّيِّد ألفيو بضحكة مريرة - "بالفعل، البتَّة! ... ولا حتَّى في الخيال! ولا حتَّى إن رأيتُهُ بعيني! مطلقاً! ... لا ... البتَّة!" - نهض ليضحك بشكل أفضل، لكنْ، ارتسم على وجهه التعبير المؤلم لمَنْ ينهض لالتقاط أنفاسه، لأنه شعر بقلَّة الهواء - "ها، ها، ها! ... كيف يمكن أن تكون أحمق، لتعتقد في خطأ جسيم كهذا؟ مَنْ قال لكَ ذلك؟".

"أوه، بالتأكيد ليس ابنتي! لو عاد الأمر إليها، لاستمرَّ الحال على هذا المنوال حتَّى وفاتهما هما الاثنَيْن. لقد تزوَّجت باربرا وهي تجهل كل شيء، كانت كطفلة في دار الحضانة. ظنَّت لثلاثة أعوام أن زوجها يتصرَّف كالأزواج كلهم في العالَم. لقد استغلَّ ابنكَ - واغفرْ لي ما أقوله - سذاجة زوجته. وإذا أردتَ أن تعرف ما أظنُّه حقّاً، لقد أظهر أنطونيو أنه رجل طائش تماماً".

- "إيه، يا محرِّر العقود، دَعْنا لا نُسِئ اختيار الكلمات!".

- "طائش، أجل؛ لأن الشَّابَّ لا يُقدِم على الزواج وهو يعلم ما به!".

- "يا محرِّر العقود، يا محرِّر العقود! ... ما به ابني؟ ما به أنطونيو؟ به ما يمكنه تحطيمكَ ... يا الله، يا الله! لا تجعلني أتحدَّث!".

- "أستتحدَّث أنتَ؟ لكنْ، أنا مَنْ يجب أن يتحدَّث! وعندئذ أقول لكَ إنه إذا كان أنطونيو طائشاً، فأنتَ أكثر نزقاً منه؛ لأن الأب لا يزوِّج ابنه وهو يعلم حالته!".

- "أيّ حالة؟ أيّ حالة، يا محرِّر العقود؟ لقد أفاض ولدي على نساء كتانيا وروما والعالَم أجمع! هذه هي حالة ابني!".

تلت لحظة صمت، تحسَّس خلالها محرِّر العقود لحيته من أسفل لأعلى، وَفَتَلَهَا أكثر من مرَّة.

- "اسمعْ، يا صديقي العزيز" - قال بعد ذلك بصوت يماثل شحوب وجهه - "يجب ألَّا نتحدَّث بهذه الطريقة! إننا ندخل متاهة، لن نستطيع الخروج منها أبداً. نحن والدان مسكينان مصابان بالكارثة ذاتها. أتظنُّ أن وضع شؤون ابنتي، عزيزتي باربرا، على ألسنة الجميع، هو - بالنسبة إليَّ - أمر هيِّن؟ لا، يا عزيزي سيِّد ألفيو، لقد زلزلت هذه الكارثةُ الأرضَ تحت قَدَمي. وإذا كنتَ تراني الآن بأعين جافَّة، فإنني أبكي كطفل عندما أنفرد بنفسي".

- "لكنْ، يا محرِّر العقود، يا محرِّر العقود!"- بدأ السَّيِّد ألفيو في الحديث، ثمَّ انفجر، بَغْتة، في البكاء بصوت هزيل، وخافت حتَّى إن محرِّر العقود ظنَّه يسعل.

"كيف يكون صحيحاً ما تقول؟" تابع بصوت واهن بعد أن صمت النحيب في رئَتَيْه المنهكَتَيْن. "أنا أعرف أنطونيو، لقد فعل كل شيء مع النساء. لماذا الآن إذنْ ... ومع زوجته ... مع فتاة مثل باربرا ... يمكنها أن تعيد البصر لفاقديه ...؟ لماذا؟ لماذا؟ ...".

"أنا لا أعرف لماذا. لكني أؤكِّد لكَ أن موقف ابنَيْنا هذا صار مُذِلاّ لهما، شيء لا يمكن أن يستمرَّ أكثر من ذلك!".

"ماذا تنصحني أن أفعل؟".

رفع محرِّر العقود كفَّيْه في الهواء بيأس، ثمَّ أعادهما إلى ركبَتَيْه".

- "قبل كل شيء" - بادر السَّيِّد ألفيو بالقول - "يجب أن نتصرَّف بشكل يُبقي الأمور بيننا، ويجب ألَّا يعرف أحد، أقول لا أحد، ولا زوجتي، ولا

زوجتكَ، ولا المسيح الذي يسمعنا، شيئاً على الإطلاق! أتفهمني، يا محرِّر العقود؟ ... لا شيء، لا شيء!".

هزَّ محرِّر العقود رأسه، وأعاد رفع كفَّيْه في إشارة أكثر اتِّساعاً وبُطئاً ممَّا فعل سابقاً، وقال، بعد أن تركهما مُعلَّقَيْن بهذا الشكل في الهواء: - "وكيف ذلك؟" تنهَّد.

- "ماذا تعني بكيف ذلك، يا محرِّر العقود؟ أنتَ لا تبدو لي في حالتكَ الطَّبيعيَّة! يعني أن نخيط أفواهنا، ولا نقول شيئاً لأيِّ شخص!".

- "وبعد؟".

- "وبعد، سنرى كيف تسير الأمور ... أتحدَّث أنا إلى أنطونيو ... لأنني يجب أن أتحدَّث مع ابني! ... أنتَ رجل جادٌّ، لكنْ، مَنْ يدري؟ قد تكون أسأتَ الفهم!".

ابتسم محرِّر العقود بمرارة.

- "لكنْ، إجمالاً" - واصل السَّيِّد ألفيو - "أتوافق على أنني يجب أن أتحدَّث قبلاً مع أنطونيو؟".

- "لكَ كل الحقِّ في ذلك، بل إنه واجبكَ. يجب أن تحميَ مصالح ابنكَ، وعليَّ حماية مصالح ابنتي".

- "لكن مصلحة ابني وابنتكَ واحدة، يا محرِّر العقود!".

- "تكون كذلك إذا كان أنطونيو وباربرا زوجاً وزوجةً. لكنْ، هكذا ...".

- "ماذا تعني بهكذا؟ ألم يتزوَّجا طبقاً للشرائع؟".

- "أنتَ تعلم، يا عزيزي سيِّد ألفيو، أن الزواج في هذه الظروف يعتبر كأنه لم يكن ... إنه زواج باطل!".

- "ومَنْ يقول إنه باطل؟ أنتَ؛ لأن هذا ما يروقكَ اليوم".

- "لستُ أنا مَنْ يقول، إنها الكنيسة".

- "أيّ كنيسة، أيّ كنيسة؟ ومتى قالتْهُ الكنيسة؟".

- "لم تقلْهُ بعد، لكنها ستقوله".

- "يا محرِّر العقود، أنتَ تفرز سواداً كالأخطبوط. لنتحدَّث صراحة! ما الذي يدور في رأسكَ، حيث لا يستطيع أحد أن يقرأ أيَّ شيء؟".

- "اسمعْ، يا سيِّد ألفيو، إذا عدتَ إلى هذه الطريقة مجدَّداً، فسأعفيكَ من الضِّيق، وأنصرف".

- "لتنصرف، لتنصرف!" - صرخ السَّيِّد ألفيو الذي فَقَدَ أعصابه مرَّة أخرى - "انصرفْ سريعاً!".

نهض محرِّر العقود، وشدَّ قامته، واعتدل بينما يُحكِم أزرار معطفه، وبدا أكثر حِدَّة وقسوة وتجهُّماً، لكن السَّيِّد ألفيو لم يكن ينظر إليه.

- "وسأقول لكَ شيئاً آخر، يا محرِّر العقود! أنا لا أُصدِّق أيَّ كلمة ممَّا أخبرتَني! سأتحدَّث الآن مع أنطونيو، وسأعرف الحقيقة".

- "ها نحن، حسناً!" - قال محرِّر العقود - "تحدَّثْ مع ابنكَ! وسأهتمُّ أنا بمصالح ابنتي. طاب صباحكَ، واحتراماتي للسَّيِّدة".

ومع قوله هذا، فتح الباب، وإلى جواره كانت تستند السَّيِّدة روزاريا برأسها إلى الجدار، ووجها شاحب كجسد مُحنَّط.

أحنى محرِّر العقود رأسه أمام تلك السَّيِّدة المغشي عليها تقريباً، واختفى في ظلام الرواق.

- "سارة!" - صاح السَّيِّد ألفيو، جاذباً زوجته إلى حجرة الصالون - "أسمعتِ؟ أسمعتِ؟".

- أجل!" - أجابت الزوجة، بدون صوت، وبأنفاس شديدة البرودة كريح فبراير - "أجل ! ... أجلِسْني، يا عزيزي ألفيو!".

أجلَسَ العجوزُ زوجتَهُ على الأريكة، ودسَّ بين شَفَتَيْها كوب الماء الذي لم يشربه هو بالكامل، وبعد أن ربَّت بقوَّة على وجنَتَيْها، كي يعيدَ إليها وعيَها، شرع في الذهاب والإياب عبر الحجرة.

- "كاذب!" - كان يُردِّد - "كاذب ومُفترٍ! ... بحقِّ القدِّيس جوسبي ذلك ... كاذب! أتتخيَّلين أنتِ" - أضاف متوقِّفاً أمام زوجته، ومحرِّكاً يده التي رفعها نحو السقف - "أتتخيَّلين أن أنطونيو ... ابني ... أنطونيو ... عاجز؟ ... لكنْ، لتذهبْ، اذهبْ! اذهبْ لتقصَّ ذلك على الأغبياء في مكتبكَ الذين يستمعون بأفواه مفتوحة لأيِّ حماقة تقول، ولا تقلْهُ لي!".

عاد إلى التَّجوُّل بعصبية من جديد ضارباً الأرض بقَدَمه في كل خطوة، كما لو كان يسحق حيواناً سامّاً. - "إذا كان هناك خطر من وجود أنطونيو في منزله، فذلك يعني أن ابني قد جعل منه تيساً هو وأخيه وأقاربهم جميعهم!".

- "ألفيو، لا تتحدَّث بهذا الشكل!".

- "دعيني أتحدَّث كما أريد، دعيني أُطلِق العنان لنفسي، بحقِّ الله! يأتي لي أنا ليُخبرني أن ابني ... أنطونيو ... ابني ... عاجز؟ ما الذي يعجز عنه أنطونيو؟ ما الذي لا يقدر عليه ... لنكفّ عن المزاح، لنكفّ عن إثارة الضحك! نحن هنا جميعنا قادرون! أنا أيضاً، أنا كما أنا الآن، عجوز ومصاب بداء السُّكَّريّ، إذا أرقدت امرأة أسفل منِّي، أشعر بأنني قادر على إخراج أمعائها!".

- "عزيزي ألفيو، لا تتحدَّث بهذه الطريقة!".

- "لكنْ، أتصدِّقين ذلك؟ أتصدِّقينه؟ أتصدِّقينه؟" كان العجوز يضيف واضعاً أطراف أصابعه مجتمعة بين العين اليمنى والأنف. -"أكاد أُجنّ!".

- "ألفيو، أنصتْ لي!"- قالت الزوجة بصوت عذب كمَنْ يشعر بقواه تخور - "أنا لا أُصدِّق هذه القصَّة. ويجب أن يكون بها شيء شيطاني. لكنْ، منذُ قالت لنا قريبتنا تلك الكلمة، وأنا أشعر بقلبي منقبضاً بشدَّة".

- "القريبة؟ مَنْ؟ ... أيّ كلمة؟".

- "ألا تذكر، ألفيو، ما قالتْهُ جوسبينا الصَّمَّاء؟ كانت تقف هنا حيث أنتَ الآن، وقالت لنا - أصحيح أن باربرا بوليزي ستتزوَّج من دوق برونتي؟".

ضرب السَّيِّد ألفيو بكفِّه على جبينه بقوَّة. وضربها مرَّة أخرى، ومرَّة ثالثة: "أنتِ مُحقَّة! مُحقَّة! بحقِّ الله! أنتِ مُحقَّة! تلك الأفعى كانت تعلم ... بالتأكيد، وكيف لا؟ ... أتريدين أن تخرج تلك الحيوانة من منزلها، عفنة كما هي، إذا لم تكن من بَلِيَّة ستقع على آخرين، لتلوكَها؟ لكنْ، إذنْ"- أضاف فزعاً - "أنحن على ألسنة الجميع؟".

شعر بالأرض تميد تحت قَدَمَيْه بسبب هذا التفكير، واضطرَّ للجلوس.

هذه المرَّة نهضت الأمُّ، لتُمسك برأسه، وتُربِّت عليه برقَّة، وهي تضمُّه إلى صدرها.

- "لا، يا ألفيو، لا!" - قالت - "لا أعتقد أن هذه الصَّمَّاء تعرف كل شيء، إن محرِّر العقود رجل جادٌّ ...".

- "مُرائي!" زام السَّيِّد ألفيو فيما فمه مضغوط في ملابسها.

- "مرائي كما تقول أنتَ ... ولهذا بالضبط يعرف كيف يدير شؤونه، ويدرك - أفضل منَّا جميعاً - أنه إذا جعل الناس تتحدَّث سيكون الخاسر المرأة، وليس الرجل".

- "أجل" - قال السَّيِّد ألفيو، مُبعِداً زوجته ومُستعيداً لونه - "أجل، هذا حقيقي، لكنْ، عندما يُشاع نقيض ما يقوله هو ... وعندئذ، أجل، تكون المرأة هي الخاسرة ... لكنه يعرف كيف يدير شؤونه، واختار الفرية الأكثر سوءاً، وشرّاً، وقذارة، ليؤذيَ ابني وحده!".

- "لكنْ، يا ألفيو، نمكث هنا، ونُمزِّق قلوبنا، ولا نفعل الشيء الوحيد الذي يجب فعله!".

- "أيّ شيء؟".

- يا عزيزي، أن نتحدَّث إلى أنطونيو!".

- "صحيح، صحيح! ... سأُهاتفه فوراً. ما الرَّقْم؟".

- "أنتَ تعرفه، يا عزيزي ألفيو: 17420!".

- "لا أعرفه، ولم أكن كذلك قطُّ، هذا الرَّقْم ذو 17 في المقدِّمة!".

نهض، وتوجَّه إلى المكتب، وبدأ يعبث في قرص الهاتف.

- "لم أعد أرى الأرقام!" - ثمَّ صاح - "ناوِليني النَّظّارة!".

- "لكنْ، يا ألفيو، أنتَ تضعها فوق أنفكَ!".

تحسَّس العجوز عينَيْه، واضطرَّ للاعتراف بوجود النَّظّارة.

- "لا أزال عاجزاً عن الرؤية!" - أضاف - "أديري أنتِ هذا الرَّقْم المشؤوم!".

اقتربت السَّيِّدة بتثاقل من المكتب، نزعت النَّظّارة عن زوجها، ووضعتْها هي، وحاولت أن تدير قرص الهاتف، لكنها انفجرت في النحيب.

- " أنا أيضاً لا أرى" - هتفت. - "لقد سرقوا عشرة أعوام من أعمارنا، هؤلاء الأشقياء!".

تعانق العجوزان، وكلٌّ منهما يبكي على وجنة الآخر.

- "لنستدعِ الخادمة!" قال السَّيِّد ألفيو.

- "لكنْ، لنُجفِّف أعيننا قبل ذلك! يجب ألّا يُدرك أحدٌ أيَّ شيء!".

- "أعطِني منديلكَ، يا ألفيو!".

- "ها هو، المنديل! ... جفِّفي وجهكِ جيِّداً ... هنا، على الأنف! لقد بلَّلتِ قميصَكِ أيضاً".

- "صبراً، يا ألفيو، صبراً! سيُنظَّف القميص. ليتها كانت تلك هي الأشياء السَّيِّئة في الحياة. - "روسينا" - نادت بعد ذلك عندما صارت كأفضل ما يكون، - "روسينا، تعالي هنا!".

ظهرت الخادمة بعد قليل، بأيدٍ حمراء ومُبتلَّة، وجاهدت كثيراً - شبه أُمِّيَّة كما هي - لتُدير الرَّقْم على قرص الهاتف. لكنها أتمَّتْهُ في النهاية.

عندما بدأ الهاتف في الرنين، اختطفه السَّيِّد ألفيو من يدها، ودفعتْها السَّيِّدة روزاريا في عجلة خارج حجرة الصالون، وأوصدت بابها.

- "أشعر بحرارة جسدي ترتفع لاضطراري الاتِّصال بذلك المنزل!" - كان السَّيِّد ألفيو يُتمتم والسَّمَّاعة على أُذنه. - "لا أريد أن يُجيبني محرِّر العقود، أو زوجته الهامدة تلك. بحقِّ الله، سأقول له كلمة، لن ينساها أبداً!".

وعلى النقيض أجاب أنطونيو.

- "مَن المتحدِّث؟ أهو أنتَ، يا أبي؟".

عند سماعه صوت الابن الهادئ، أغلق العجوز السَّمَّاعة بيده، وبدأ في النحيب، كما لو أنه قد عانى من كابوس وهو مفتوح العينَين، والآن يستيقظ.

- "أنطونيو!" - قال - "أنطونيو!".

- "ماذا هناك؟" سأل الابن مندهشاً.

- "كيف، ماذا هناك؟ أنطونيو!" - همس في عجلة للزوجة، وهو يضع يده مجدَّداً على السَّمَّاعة، ويكاد يخرج عن طوره من فرط السعادة - "إنه مندهش. سترين الآن أن هذا كله حماقة! تصوَّري لو كان هذا صحيحاً؟ ... أنطونيو" - ثمَّ أكمل رافعاً يده عن السَّمَّاعة - "يا عزيزي، ألا توجد أخبار جديدة؟".

- "لا، لا شيء، على الأقلِّ، في حدود علمي".

- "فعلاً، لا شيء، لا شيء؟".

- "أبي، لا أفهم. عن أيِّ جديد تتحدَّث؟".

أخذ العجوز يُدير ذراعه اليسرى لزوجته، ليوحي لها بسعادته.

- "لكنْ، إجمالاً" - أكملَ - "ليس لديكَ ما تُخبرني به؟".

- "لا أفهم ... ماذا يجب أن أخبركَ؟".

- "إذنْ"- قال السَّيِّد ألفيو، بصوت مهيب ومرتفع - "إن حماكَ هو أكثر الرجال الذي يمكن أن يلتقيَه أحد دناءة!".

- "لماذا تقول هذا؟" سأل أنطونيو بصوت بدا بَغْتة منزعجاً.

- "لقد كان هنا هذا الصباح، ألا تعرف ذلك؟".

- "عندكَ؟".

- "أجل، عندي، جاء ليُحطِّم قلبي بأحاديث، ليتكَ تسمعها! ... أيوجد أحد إلى جواركَ؟".

- "أجل" - قال أنطونيو بصوت خفيض - "لكنْ، تحدَّثْ!".

- "وكيف أتحدَّث إذا كانت الأشياء التي قالها لي هذا الرجل تحرق شَفَتَيّ؟ ... إنه مجنون خطير، يا بنيّ! ألبِسُوه قميص المجانين، عندما يعود إلى المنزل! وأغلِقُوا فمه؛ لأن كل كلمة يَفوهُ بها تُغرقنا جميعاً في الوحل! ... لكنْ، أتعلم ما جرؤ على قوله، هنا، في هذه الحجرة، وأنا لم أجعله يبتلع لحية الكبش الحقيرة، لأنه كان في منزلي؟ قال لي: "باربرا ..." أوه، كم يصيبني تكرار الحوار بالغثيان! ... "باربرا، بعد ثلاثة أعوام من الزواج، هي كما خرجت ...".

أغلق أنطونيو الهاتف.

الفصل السادس

"يُخبرني قلبي أنكِ قاسية،
أو نسيتِني، أو لم تعودي مُغرمَة بي".

أغنيّة صقلية

"أوه، يا لليلتنا المنكوبة تلك ...".

شكسبير - أونجاريتي

"عندما يرتكب أحدنا حماقة، فمن الأفضل أن يُغلِق فمه، ولا يتحدَّث عنها بعد ذلك ...".

ج. فيرجا

شحب وجهه، واصطكَّت أسنانه، وتصبَّبت قطرات باردة من العَرَق على طول جبينه وصدره. كان يشعر من المعدة لأسفل بامتلاء وثقل شديدين، كما لو أن الدم قد احتشد كله في قَدَمَيه، ولا يطيق صبراً على أن يُدفَن ويتلاشى، وكان من المعدة إلى الرأس، على النقيض، شاحباً وخاوياً تقريباً. كانت تمرُّ بذهنه أفكار متسارعة للغاية، كريح تضرب على ورقة جافَّة، ويداخله الخوف الوحشي الجارف لمَنْ يرى جريمته تنكشف بعد أعوام من الزيف والرياء، وتُنهكه وتواسيه بقوَّة، في الوقت ذاته، متعة الحقيقة الغامرة.

كان أوَّل ما جال بذهنه أن يخرج على أطراف أصابعه، ويهرب ليختبئ في منزل ريفي، أو بين صخرتَيْن كَسِحْلِيَّة، لكنْ، أنبأتْهُ بعض أصوات النساء،

وصخب نعل العمِّ الراهب، ودقَّات ساعة ميدان المحكمة - مَنْ يدري كيف؟ ولماذا؟ - بأن الكلمة الأخيرة لم تُقَلْ بعد، وأن الإصلاح لا يزال ممكناً.

خرج في عُجَالَة، دون أن يُحيِّي زوجته، واتَّجه مباشرة إلى مكتب حَميه بعد أن عبر شارع إتنا الذي يفيض بالشمس. أزاح الأستار الثقيلة التي تنسدل أمام الباب، ودخل الحجرة الأرضية دون أن يرى أيَّ شيء أو شخص، وقد أعمى بصرَه الضوءُ بالخارج.

وعلى النقيض، رآه محرِّر العقود يظهر بوضوح، على ضوء الشعاع المنبعث من الطريق عبر الأستار، ونهض عن المائدة التي يجلس إليها، بقلم في يده، وقلم رصاص خلف أُذنه، محاطاً بفلَّاحين يرتدون ثياباً من المخمل.

- "لحظة واحدة!" - قال للفلَّاحين الذين يُصغون وأكفُّهم الضخمة تستند على المكتب - "يجب أن أتحدَّث إلى هذا السَّيِّد!".

تأبَّط ذراع أنطونيو، كما يجري العُرْف مع الأشخاص الذين تُخشَى فورات غضبهم، وقاده إلى الحجرة الخلفية، عبر رواق صغير ومنخفض، حيث تنبعث من الأوراق القديمة رائحة علب التبغ المسكي.

كان للحجرة الخلفية سقف مرتفع، وفي إحدى زواياها كانت تتكدَّس عشرات المقاعد، كلّ منها فوق الآخر، بينما يضمُّ الصَّفُّ الأخير، بين القوائم المقوَّسة، صورَ محرِّري العقود كلهم الذين امتلكوا ذلك المكتب لقرنَيْن، ومن نافذة مستديرة كانت شمس مايو تلمع.

وضع أنطونيو يداً على جبينه، وهو يشعر أن وجهه ليس في وجهه قطرة دم واحدة، بينما كانت تتدفَّق وتتجمَّع في وجه حَميه وجوه محرِّري العقود كلِّهم الذين يطلُّون من فوق عرش المقاعد المرتفع.

أخذ ينظر إلى الحَمي غير قادر على بدء الحوار، ومُثبِّتاً، بين شعيرات ذقنه، شَفَتَيْه الناعمَتَيْن المستقيمَتَيْن، والحمراوَيْن اللَّتَيْن لا توحيان بأنهما ستنفرجان.

- "ولدي" - قال محرِّر العقود في النهاية، بعد أن ترك وجهه طويلاً طوع تلكما العينَيْن المُبتلَّتَيْن، والمتَّقِدتَيْن، والمُتسائِلَتَيْن، واليائسَتَيْن، - "ضَعْ في اعتبارِكَ أنه لم يكن في مقدوري غير ذلك!".

- "لكنْ، لماذا؟"- سأل أنطونيو - "لماذا؟".

وألقى نظرة واهنة خلف ظهره، كما لو أنه يبحث عن شيء ما.

جذب محرِّر العقود على الفور مقعداً من كوم المقاعد، ودسَّه خلف ركبَتَي أنطونيو الذي سقط عليه بتمهُّل، وهو يتهجَّى مرَّة أخرى: - "لماذا؟".

- "أنطونيو، أنتَ رجل!" قال محرِّر العقود، وسرعان ما اكتسى وجهه بالأحمر، كما لو أنه - بشكل لا إرادي - قد تلفَّظ بكلمة ذات إيقاع ساخر.

انتبه أنطونيو إلى ذلك الاحمرار - ولفطنته المعروفة في التقاط أفكار الآخرين حول هذا الموضوع وتتبُّع مسارها الملتوي إلى أعماق العقول - صار أكثر شحوباً.

- "أنتَ رجل" - أصرَّ محرِّر العقود، بعد أن فكَّر في أن الطريقة الوحيدة لعدم إهانة أنطونيو هي ألَّا يعتبر العبارة التي نطق بها مهينة - "ويجب أن تُظهِر شجاعة! لقد وقعت كارثة، ماذا يجب أن نفعل؟ تحدث كوارث كثيرة، وهذه إحداها!".

- "لكنْ، أيّ ... كارثة؟" - همهم أنطونيو - "أنا لا أفهم!".

- "أوه، لا، لا، لا! دَعْنا لا نسلك هذا الطريق، يا أنطونيو! أنتَ تثق في أن لديكَ زوجة تساوي أكثر من وزنها ذهباً، وتُفضِّل الموت على أن تفتح فمها بكلمةٍ واحدة! لكنه ليس كرماً منكَ! يجب ألَّا تعتمد على هذا، أليس كذلك؟".

- "لكنْ، إجمالاً!" - قال أنطونيو - "ما الذي لم تَقلْهُ باربرا؟".

- "أنطونيو!" - هتف الحمو مغتاظاً - "أنطونيو، أنا مَنْ أسألكَ، ما الذي كان على باربرا أن تقولَهُ إذا فتحت فمها؟ أتفهمني، يا أنطونيو؟".

- "أنا لا، لا أفهم!" - أجاب الشَّابُّ بوَهْن - "وأنتظر أن تجعلني أفهم!".

- "ألا يكفيكَ" - قال محرِّر العقود ببطء - "أن أُخبركَ باسم؟".

- "أيّ اسم؟".

- "چوفانّا".

- "چوفانّا؟" - كرَّر الشَّابُّ شارداً - "چوفانّا مَنْ؟".

- "العام الماضي، في نوفمبر، قمتُم بفصل خادمة. كانت تُدعى چوفانّا ...".

- "وإذنْ؟".

- "وإذنْ ... لا شيء! لكنْ، مباركة هي آلام المسيح!" - أضاف بصوت غاضب - "أتريد أن تُعذِّبني كالمسيح؟! ... لقد تحدَّثت چوفانّا! ما إن فصلتُمُوها، حتَّى هُرِعَت لزوجتي ... وتحدَّثت!" رمقه محرِّر العقود ببرود:
- "أرجو ألَّا تسألني ماذا قالت!".

وضع أنطونيو بقوَّة يداً على زاوية فمه المرتجفة، وقد تملَّكت منها حركة عصبية، ونجح في تهدئتها.

- "بل" - تمتم - "أرغب في معرفة ما قالتْهُ!".

جذب محرِّر العقود من جيبه علبة سجائر من الذهب الخالص، وفتحها، وأخرج منها سيجارة، ثمَّ أغلقها مُظهِراً في حركاته عنفاً كفيلاً بسحق العلبة، وقوةً يسيطر بها على نفسه، أشعل عود ثقاب، وقرَّبه من فمه برعدة مَنْ يجذب طرف إطار مطَّاطيٍّ لأقصاه، ثمَّ أطفأه بضجة، وشرع يُدخِّن، متفرِّساً في أرضية الحجرة، ثمَّ رفع عينَيْه، ببطء وجهد كبيرين للغاية، وثبَّتهما على وجه أنطونيو.

- قال: "ذات يوم شعرتْ باربرا بدوار، وسألتْها الخادمة إذا كانت تنتظر طفلاً. - أجابت باربرا: أعتقد ذلك! -. كانت الخادمة أُمّاً لخمسة أبناء، ولكي تقوم ببعض الحسابات حول ما أعلنتْهُ باربرا، وجَّهتْ إليها أسئلة

أخرى. وهكذا أدركت أن الأطفال - طبقاً لباربرا والتي فهمتْ هذا منكَ - يُولَدون نتيجة للعناق الأخوي الطاهر الذي، بعد منتصف الليل ...".

- "كفى!" - صرخ أنطونيو وهو يهبُّ واقفاً - "كفى!".

- بحقِّ الله!" - هتف محرِّر العقود مُلقياً السيكار وساحقاً إيَّاه بقَدَمِهِ بعنف - "قطعاً كفى! ... كفى، أجل ! ... كيف كفى؟ أأردتَ أنتَ ...".

- "لم أردْ شيئاً!" - أجاب الشَّابُّ -"لكنْ، لماذا لم تقلْ لي هذه الأشياء، بدلاً من أن تُخبر بها أبي؟ كان يمكن ...".

- "ما الذي يمكن؟ ما الذي تريد له أن يكون؟ أنا أكبر سنّاً منكَ، وأعرف هذه الأمور ... وأعرف أنه عندما تكون العلاقات بهذا الشكل، بين زوج وزوجة، لا يوجد علاج آخر سوى الانفصال، والانفصال فوراً!".

أغلق الشَّابُّ عينَيْه، وأسند جبينه إلى راحة يده، رافعاً حاجبَيْه الجميلَيْن، ومُظهِراً بشكل كامل رقَّة الجفنَيْن.

ثمَّ رفع رأسه.

- "فوراً؟" - قال - "لكنْ، مرَّت ستَّة أشهر من نوفمبر إلى اليوم! لماذا أردتَ الانتظار طويلاً إذا كنتَ تعرف بالفعل؟! ...".

بدا، لأوَّل مرَّة، على وجه محرِّر العقود شرود خفيف. - "هذا حقيقي، لا أنفي ذلك! لقد مرَّت ستَّة أشهر! ... لكنْ، كان يجب أن نتأكَّد أوَّلاً ... وأن نتحدَّث إلى باربرا! ...".

- "كيف؟" - سأل أنطونيو - "منذُ ستَّة أشهر، ومن خلف ظَهْري، تتحدَّثون مع باربرا عن ... ؟".

- "لحظة واحدة!" - هتف محرِّر العقود مستعيداً نبرة صوته القاسية - "نتحدَّث إلى باربرا، ليس هو التعبير الدقيق، لكنْ، نحاول التَّحدُّث إلى باربرا، وإقناعها ...".

- "إقناعها بماذا؟".

ثبَّت محرِّر العقود حَدَقَتَيْه، وضيَّقهما، وكأنه يريد التدقيق جيِّداً قبل أن يُطلق عبارته الأشدّ حِدَّة: - "إقناعها بأن تدرك حقيقة وضعها، إنها آنسة لم تتزوَّج بعد!".

- "لا!" - صاح أنطونيو - "أتريدون إثارة فضيحة؟ أن تضعوا على ألسنة الجميع أنني، وأنها؟ ...".

- "لِيَحْمِنَا الله!" قال محرِّر العقود.

- "لا، أتوسَّل إليكَ، أتوسَّل إليكَ!" - هتف أنطونيو - "فكِّرْ في ذلك أوَّلاً! ... خُذْ في اعتبارِكَ ما سيحدث! ...".

- "أيكون ممتعاً ما يحدث الآن؟".

نكس أنطونيو رأسه، وعاد ليرفعه بعد أن فكَّر للحظة: - "إن مَنْ يجب أن يفصل في هذا ليس أنا ولا أنتَ، بل هي باربرا!".

- "باربرا فتاة رشيدة!" قال محرِّر العقود.

- "ماذا تعني بهذا؟".

- "لا شيء! إنها فتاة رشيدة. ويمكنها الحكم على الأمور!".

- "لكنْ، أتعلم باربرا أنكَ ستتحدَّث اليوم معي؟".

- "يا أنطونيو، لقد كنتَ أنتَ مَنْ جاء إلى هنا!".

- "لكنْ، أتعلم باربرا أنكَ ستتحدَّث اليوم لأبي؟".

- "أعتقد أنها لا تعرف ذلك!".

- "تعرف أم لا؟".

- "أعتقد أنها لا تعرف ذلك!".

أدرك أنطونيو أن جداراً بلا مخرج يرتفع أمامه في هذا الجانب. تردَّد للحظة، ثمَّ أزاح حَماهُ الذي يقف أمام الباب، وخرج إلى الرواق، دون أن يُجيبه حتَّى. عبرالمكتب الذي يمتلئ بأكفٍّ مرفوعة في الهواء، فتح الستائر بغلظة وخرج إلى الطريق.

لا بدَّ من الحديث إلى باربرا! فوراً! دونما تأخير!

عبر شارع إتنا، مصطدِماً بكتفَيْه الملتهبتين من الشمس بكثير من الأشخاص الذين لم يكفوا عن التوقف كل لحظة، ثمَّ استدار إلى ميدان تيسيكورو، ودخل بوَّابة بيت بوليزي، وهُرِعَ على درجات السُّلَّم بِدَوِيٍّ مَنْ ينزل مُهروِلاً.

وجد باربرا في حجرة النوم جالسة على مقعد وإبرة التطريز على ركبَتَيْها. شعر على الفور، لرؤية هذا المشهد، بلسعة مرارة في أعماقه، مولدة تفكيراً ساخراً، قد يقع هو ذاته ضحية له: فكَّر حقيقةً في زوجة شابَّة، تَعدُّ لوازم طفلها.

فزعاً من هذه الأحاسيس المرتبكة، والأوهام والاستهزاء المحيط به من كل جانب، وباحثاً عن عون إلهي، رفع نظره إلى الجدار، حيث توجد صورة العذراء، لكنْ، خطر له أيضاً تفكير آخر مغلف بسعادة مُبهَمَة: لقد أنجبت العذراء ولدَها دون اللجوء إلى ذلك الفعل ...

جلس على الأرض عند قَدَمَي الزوجة.

- "باربرا!" - قال - "عزيزتي باربرا!".

وضمَّ يدها الجميلة، شاعراً - كالمعتاد - بعاطفة قوية للغاية، قوامها الرغبات اليائسة، وتصوُّر متعة، لم يبلغها أحد قطُّ بالممارسة الفعلية.

احمرَّ وجه الزوجة احمراراً، يخرج في دفقات من الوجنَتَيْن - كالدم من أحد الشرايين - وينتشر في دوائر تزداد اتِّساعاً، وصولاً إلى الجبين وتحت الشَّعْر وخلف الأُذنَيْن.

- "باربرا! "لماذا يحمرُّ وجهكِ هكذا؟".

- "أسألكَ العفو" - أجابت، بينما تنطلق موجة جديدة أكثر قِرْمِزيَّة من سابقيها من وجنَتَيْها - "أسألكَ العفو! أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً!".

كان يتفحَّصها من أسفل لأعلى، وقد أخذه الجمال غير العادي لمسار

تلك الانعكاسات الحمراء، وجرحتْهُ بألمِ الأفكار التي يُفترَض أن تتحرَّك خلف موجات الدماء تلك.

نهض بَغْتة على ركبتَيْه، وأمسك زوجته من ذراعَيْها.

- "باربرا" - قال - "لقد وقع هذا الصباح شيء خطير للغاية! أتعلمينه؟".

زال الاحمرار عن وجهها، كما لو أنها قد توقَّفت عن الحياة، ونظرت في عيني الزوج، وأجابت: - "أجل!".

- "أجل؟" - سأل - "أتقولين أجل؟ ... أتعلمين أن والدكِ قد ذهب لأبي هذا الصباح؟".

- "أجل، أعلم ذلك!".

- "ومنذ متى تعلمين؟".

- "لقد أخبروني فيما بعد!".

- "لكنْ، كيف؟ هل قام والدكِ بخطوة خطيرة كهذه دون استشارتكِ؟".

أدخلت باربرا السترة بحِدَّة في إبرة التطريز التي خرجت منها، ولم تفهْ بشيء.

- "باربرا" - أصرَّ الزوج رافعاً وجهها من الذقن - "باربرا، أخبريني الحقيقة: أتؤيِّدين ما قام به والدكِ؟ ... هيَّا، أجيبي: أتؤيِّدينه؟".

صمتت هي للحظة تاركة ذقنها في يد أنطونيو وعينَيْها على وجهه. ثمَّ قالت: - "أجل!".

نهض أنطونيو على قَدَمَيْه.

- "أتؤيِّدينه؟" - هتف في فزع - "أتؤيِّدينه؟".

وأمام صمت الزوجة، هذا الصمت الذي لم يجرؤ على تصديقه، وقد شعر به يلطم وجهه ويمزِّق جِلْدَه، وضع يده على عينَيْه، وهمس:

- "يا الله، يا الله، أيّ عار! يا الله، يا الله، أيّ عار!".

عادت الزوجة للعمل دائماً في صمت، وسرت رجفة غير ملحوظة في

شَفَتَيْها المغلَقَتَيْن، - "لكنْ، يا باربرا" - أضاف أنطونيو - "لماذا، بعد ثلاثة أعوام من الزواج، بَغْتَة، وبدون سبب مُعيَّن، تقرِّرين أنتِ ووالدكِ .. ؟".

قاطعتْهُ باربرا مُستعيدَة القليل من لونها: "أنتَ لستَ مُنصفاً، يا أنطونيو! أنتَ تعرف أنني أدركتُ فقط في نوفمبر من العام الماضي من تلك المرأة ...".

وأحنت رأسها حتَّى إنها أسقطت بعض خصلات شَعْرها أمام وجهها الذي عاد للاحمرار.

- "هذا صحيح!" - همس أنطونيو، بعد أن بلع ريقه. - "لكنْ، بعد ذلك، لم نتعاهد على الحياة معاً، وتبادل الحُبِّ بالدرجة ذاتها، بل أكثر؟ ... كم من المرَّات أخبَرْتِني أنكِ هكذا أكثر سعادة من الطريقة الأخرى؟ وأن الله يبارك منزلنا، حيث لا ... ؟".

- "لكنني علمتُ الآن" - قالت باربرا، بينما راحت تلفُّ الخيط حول إصبع يدها اليسرى - "أن الكنيسة لا تُباركنا!".

- "ولماذا؟" - هتف أنطونيو - "مَنْ نؤذي؟".

- "لا نؤذي أحداً، لكن زواجنا ليس له وجود أمام الله!".

- "منذُ متى تعلمين أن زواجنا ليس له وجود أمام الله؟".

- "منذُ بعض الوقت!".

- "منذُ متى؟ منذُ متى؟ أريد أن أعرف بالضبط!".

تردَّدت باربرا لوَهْلَة؛ ثمَّ قالت: - "منذُ أوضح لي السَّيِّد رئيس الأساقفة!"

- "كيف؟" - سأل أنطونيو مذهولاً - "أتحدَّثْتُما عن هذه الأشياء مع كبير الأساقفة أيضاً؟ ... لكنْ، هل صرتُ أنا، إذنْ، مُضغة في أفواه الجميع، هل ألقيتُما بي إلى كلاب هذه البلدة؟ ... بينما أنا" - أضاف برعدة في صوته - "أعيش معكِ مطمئنّاً، وأنتِ تَبدين بهذه السعادة، وهذا الحنو،

وما إن أُدير ظهري، تشرعون على الفور في التسامر مع الرهبان، ورؤساء الأساقفة؟ ...".

- "لقد حدث هذا منذُ سبعة أيَّام مضت!" - قاطعتْه باربرا - "فقط سبعة أيَّام مضت!".

- "لكنْ، كيف حدث؟ ولماذا؟ ما الذي جَدَّ منذُ سبعة أيَّام؟".

- "لا أعلم ما الذي حدث منذُ سبعة أيَّام، لكنْ، يا عزيزي أنطونيو، لديَّ التزاماتي كابنة، بخلاف التزاماتي كزوجة، وعليَّ أن أُطيع أبي!".

- "إذنْ، كان والدكِ هو منْ أخذكِ منذُ سبعة أيَّام إلى رئيس الأساقفة؟".

- "أجل!".

- "ولماذا بدأ هذا الرجل المبجَّل في الانزعاج لأجل علاقتنا منذُ سبعة أيَّام فقط؟ كان يعرف منذُ نوفمبر ...".

- "أنطونيو" - قالت في استياء - "أنتَ تلومه لأنه تصرَّف هكذا أم لأنه تصرَّف متأخِّراً؟".

- "أنا لا ألومه، لكنْ، لن يستطيع أحد إقناعي بعدم وجود نوايا خفية تجاهكِ!".

- "لا أعرف نوايا والدي تجاهي، لكنْ، أيّاً كانت، فلن تكون إلَّا نوايا أمينة، ومُحِبَّة. إن أبي رجل طيِّب، رجل يذهب للاعتراف، ويتناول أكثر ممَّا تفعل أنتَ بكثير، وواجبي أن أُطيعه".

- "باربرا" - صاح - "انظري في عينَيّ! ... أنتِ تعرفين الحقيقة، يا باربرا!".

- "أنا لا أعرف شيئاً" - أجابت، بينما توقَّف وجهها عن الشحوب، والاحمرار، واكتسى ذلك الجمود القاسي، والقوي الذي يثير الرهبة في عائلة بوليزي حيث يصمتون أكثر ممَّا يتكلَّمون.

- "باربرا!" أضاف أنطونيو بصوت متوسِّل، وهو يعود ليجلس عند قَدَمَي زوجته - "أين ذهب الحُبُّ كله الذي كنتِ تشعرين به نحوي؟".

- "أنا أشعر به دوماً" قالت باربرا في عذوبة - "لكنه لم يعد من زوجة تجاه زوجها!".

- "لماذا لم يعد كذلك؟".

- "لأننا لسنا زوجاً وزوجة!".

- "ومنذ متى لم نكن كذلك؟".

- "أوه، أنطونيو، لم نكن كذلك قطُّ ... لكنْ، أنا لم أكن على علم بذلك. والآن أعلمه".

- "ولأجل هذا لم تعودي تُحبِّينني؟".

- "أُحبُّكَ، أُحبُّكَ، كيف يجب أن أقولها لكَ؟ أُحبُّكَ! لكنْ، ليس حُبَّ زوجة لزوجها. إنه نوع آخر من الحُبِّ". ألحَّتْ هي بعينَيْن مُبتلَّتَيْن.

- "أنا لا أعرف من أيِّ نوع يكون حُبّكِ" - قال أنطونيو - "لكنْ، أعرف أنه ليس بمقدور أحد أن يؤذيني أكثر ممَّا تَنتَوين أنتِ!".

- "الأذى الأشدُّ، يا أنطونيو، هو أن يستمرَّ رجل وامرأة، غير متزوِّجين حقّاً، في العيش معاً! ... لكنْ، ألم تدرك" - أضافت بصوت غريب - "أنه - منذُ شرحوا لي - لا أستطيع أن أظلَّ إلى جواركَ دون أن أشتعل احمراراً كالجمر؟".

- "لكننا لا نفعل ما يشين ونحن معاً!".

- "نحن لا نفعل شيئاً، لكنَّ هذا يُخجلني كثيراً!".

- "يمكننا أن نفصل بين فراشَينا، وأن يعيش كلٌّ منَّا بمفرده في حجرتَيْن مختلفتَيْن!".

هزَّت رأسها.

- "في شقَّتَيْن مختلفَتَيْن".

هزَّت رأسها.

- "إذا شئتِ، أرحل أنا. أتظاهر بالقيام برحلة ولا أعود ... أذهب للعمل في إفريقيا ... وأظلُّ هناك طوال حياتي!".

- "ألن يكون ذلك أسوأ، يا أنطونيو؟".

- "لا، لن يكون أسوأ! ليس هناك أسوأ ممَّا تعدِّين لي! ... أنصِتِي لي!" - ثمَّ أضاف بصوت مَنْ عثر على طوق نجاة كان ميئوساً منه - "لنذهب إلى أمريكا، ونحصل على الطلاق!".

- "لا" - أجابت بحزم - "أنا كاثوليكية، ولن أتطلَّق أبداً، حتَّى لو قتلتَ ابننا!" - عضَّت شَفَتَيْها، واحمرَّ وجهها، وقد شعرت بأنها قد تعثَّرت بحُمْق في واحدة من خمس أو ستِّ كلمات كانت قد أقسمت ألَّا تنطق بهم في وجود الزوج. - "يا عزيزي" - أضافت، بعد أن مرَّرتْ يدها على عينَيْها - "اطلبْ منِّي أيَّ شيء، لكنْ، ليس ما يخالف ضميري!".

- قال أنطونيوك "لكنْ، إذا اعتبرت الكنيسةُ الزواجَ باطلاً، لنعتبره نحن باطلاً أيضاً! سأذهب لأعيشَ بعيداً عن هنا ... لن نمكثَ معاً، لن نلتقيَ، أو سنلتقيَ كأغراب، أحياناً ... وكل شيء سيُحَلُّ!".

- "لا" - قالت - "أنتَ تعرف أكثر منِّي أن هذا لا يكفي!".

- "لا يكفي؟ ماذا يلزم أكثر من ذلك؟".

- "يجب أن نعترف أمام الكنيسة بخطئنا، ولِتَتَولَّ هي إصلاحه!".

- "تتولَّ إصلاحه، كيف؟".

- "بإلغاء عقد الزواج الذي عقدناه بالخديعة!" - تدخل، بَغْتة، صوت الحماة، من بين ستائر غرفة الملابس.

ظهرت السَّيِّدة أجاتينا مرتدية ثياباً من الريش القصير والفراء والريش الطويل والفيونكات وطبقات من الشيفون، في حفيف الحرير الذي يحتكُّ فيما بين الركبتَيْن الضخمَتَيْن وأسفل الإبطَيْن، بينما يُلقي الريش الطويل والقصير بظلالها اللَّامعة، ويمتزج فيما بينه على الكتفَيْن والصدر والوجه.

انتصب أنطونيو، وتراجع إلى الخلف بضع خطوات، متطلِّعاً بعَيْنَيْن تائهتَيْن إلى البابَيْن الآخرَيْن، كما لو أن أشخاصاً جدداً سيخرجون من هناك.

- "أكنتِ تستمعين؟" تمتم.

- "لم أكن أتنصَّت" - أجابت السَّيِّدة أجاتينا بجفاف - "لقد ذهبتُ إلى غرفة الملابس لآخذ مرآة، وسمعتُ! ...".

- "لقد أخطأتِ بإنصاتكِ، يا أُمِّي!" - قالت باربرا ناهضةً هي أيضاً - "لم يكن عليكِ أن تُنصتي! لم يكن عليكِ ذلك!".

وبقولها هذا، انفجرت في البكاء، مُخَبِّئَة وجهها في مَرْفِق الذراع الأيمن.

ولم ينبس أحد ببنت شَفَة لبضع دقائق. كان أنطونيو يتابع تشنُّجات باربرا واحدة بواحدة، مُصاحِباً إيَّاها بحركات الشفاه، كما يحدث في لحظات الاستحواذ، مع الأشخاص الذين يقولون وبصوت مرتفع كلمات تُقنعنا، وتُغوينا، وتنال تأييدنا الكامل.

لكنْ، ظلَّت الحماة تراقب باربرا مُثبِّتةً وجهها على أنطونيو بطريقة تجعله يقرأ، في حركة العين الموحية تلك، الكلمات التي تدور في صدرها: - "انظرْ ما الذي فعلتَهُ هنا!".

- "لم أعد أستطيع الاحتمال!" - هتفت باربرا بَغْتة - "لم أعد أستطيع الاحتمال!".

وألقت السترة وإبرة التطريز على السرير الكبير، ثمَّ خرجت من الحجرة منكسة الرأس، ومنتحبة.

ولوَهْلَة سمع أنطونيو والسَّيِّدة العجوز تلك التَّشنُّجات وهي تبتعد تعكس عاكسة صفاء تلك الفتاة عبر الأروقة والحجرات. قالت الحماة: - "كما ترى، لا تستطيع الاستمرار بهذا الشكل!".

لم يجبْ أنطونيو بشيء، ولم يعد يستطيع التَّصرُّف مُحاصراً كما هو بخور في القوى يلفُّه، ويُواسيه. كان وجهه المنعكس في مرآة الزينة، وفي مرآة صُوان الملابس المستطيلة يشي بأفكار دقيقة، وعلى شَفَتَيْه تُخفق

تلك الكلمات السامية التي يمكن أن تدور على شفاه الأرواح النبيلة مرَّة واحدة فقط في الحياة.

لم تستطع السَّيِّدة أجاتينا أن تحول بين نفسها وبين أن تتناول إحدى يَدَيْه، وتحملها إلى صدرها.

-- قالت:"عزيزي، يجب ألَّا تيأس! أنتَ لا تزال في عنفوان الشباب!".

ومنجذبة إليه أكثر، أحاطت بذراعَيْها المكسوَّتَيْن بالفراء كتفَيْه، وضمَّتْهُ بقوَّة مُسندة إحدى وجنتَيْها إلى وجنته.

- "عزيزي!" - كانت تكرِّر - "عزيزي أنطونيو!".

- "لكنْ ... لكنْ ..." - كان الشَّابُّ يُتمتم، دون أن يتمكَّن من طرد ذلك الحرف الذي تعلَّق بشَفَتَيْه - "لكنْ ...".

- "ماذا تريد أن تقول؟ تحدَّث! معي، يا عزيزي، يمكنكَ أن تتحدَّث!" - أجابت السَّيِّدة أجاتين، وهي تضمُّه إليها بقوَّة أكبر. - "أنا عجوز ... لقد رأيتُ من ذلك الكثير! ... يمكنكَ أن تتحدَّث معي!".

- "لكنْ، أرغب فقط في أن أعرف" تابع أنطونيو بصوت خافت حتَّى إن السَّيِّدة اضطرَّت أن تُحدِّق عن قرب في شَفَتَيْه الجميلَتَيْن الجافَّتَيْن، لتقرأ كلماته.

- "هيَّا، تحدَّث، ماذا تريد أن تعرف؟" كانت السَّيِّدة تسأل، وهي تتحدَّث إليه ببطء، بالقرب من شَفَتَيْه.

- "أريد أن أعرف لماذا تظاهر محرِّر العقود لستَّة أشهر أنه يجهل كل شيء، ثمَّ بَغْتة، ودون أن يستشيرني ليسمع منِّي، قرَّر إقناع باربرا، وحملها على الحديث مع رئيس الأساقفة، وذهب إلى أبي، ذلك العجوز المسكين ...".

- "إيه، أنطونيو!" - تنهَّدت الحماة مُسنِدَة وجنتها إلى وجنته مجدَّداً - "يا عزيزي أنطونيو! يجب أن تفهم!".

- "ما الذي يجب أن أفهمه؟ أنا مُستعدٌّ للركوع أمام الوالد، وأمام باربرا ... إذا كنتُ قد أهنتُهما بشكل لا إرادي!".

- "لا، يا عزيزي، لا، يا حبيبي، لا، يا أنطونيو، لا يتعلَّق الأمر بهذا! لماذا يجب أن يركع شابٌّ مثلكَ؟ يجب ألّا يركع عزيزي أنطونيو الجميل كالشمس أمام أيِّ شخص! لم تقع إرادة الله مع باربرا! صبراً! هذا يعني أنه كان مكتوباً لكَ في السماء أن تتزوَّج بأخرى! تعرف السماء ما تريد، وعندما لا يكون الزواج مسطوراً في الكتاب، نرغب - نحن المساكين - في أن نكتب أسماءنا الواحد إلى جوار الآخر في سجلِّ الكنيسة ... ويظلُّ الزواج حبراً على ورق! ... صبراً، يا حبيبي! أنتَ شابٌّ! إيه، يجب أن تبدأ الحياة بالنسبة إليكَ! سترى أنكَ ستجد الزوجة الحقَّة، تلك التي أرادها الله لكَ، وباربرا، المسكينة، أيضاً ... أنتَ لا تريد لها أن تظلَّ عانساً! ... إن لها حقوقاً هي الأخرى! ... لا يوجد ما يُسيء في أن تجد هي أيضاً الزوج الذي أراده الله لها!".

كان الحوار يتوالى بنبرة خافتة وواهنة حتَّى إن حفيف الحرير الذي تُثيره أيُّ حركة من السَّيِّدة كان يكفي لإخفاء الكلمات الأخيرة.

- "باربرا ستتزوَّج سريعاً؟ مِنْ مَنْ؟" سأل أنطونيو بعذوبة تعادل حِدَّة الألم الذي يُشعِر بالخلاص منه بفعل الوَهْن الذي اجتاحه تماماً.

- "أتعلم مَنْ يعشقها؟" - همست الحماة، شاعرة هي الأخرى بشيء غريب، كحلم السعادة الذي يجعلها تُفرِط في الحديث - "يعشقها حتَّى إنه ليُمزِّق نفسه من أجلها، ويتخلَّى عن الملايين التي يمتلكها؟ دوق برونتي!".

- "آه، دوق برونتي؟ هو؟" - سأل أنطونيو بتمهُّل - "أليس متزوِّجاً؟".

- " أخوه هو المتزوِّج، الأمير، وليس الدوق!".

- "كنتُ أعلم أن مَنْ يتزوَّج في تلك العائلة فقط هم الأخوة الأكبر!".

- "أجل ، لكنْ، لم يُنجب الأخ الأكبر هذه المرَّة، ولذا سمحوا للآخر بالزواج".

- "أوه، دوق برونتي!" - قال أنطونيو بوَهْن - "لكنه بدين للغاية! ... أو على الأقلِّ، هكذا يبدو لي! أم أنا مُخطئ!".

- "لقد ذهب إلى باريس، ليُنقص من وزنه! لقد كلَّفه مليوناً! ... وأنتَ، يا حبيبي، مَنْ ستتزوَّج، إذا كان يجب أن تتزوَّج من أحد؟".

- "أوه، أنا، أبداً، أبداً!".

- "أبداً كيف؟ ولماذا؟ مصيبة كهذه تحدث مرَّة واحدة، وليس مرَّتَيْن!".

- "أنا، أبداً! بداً!".

- "حبيبي، لماذا؟".

- "أبداً، أنا، أبداً!".

وبقوله هذا، وقد استحال صوته إلى تلك الهمسات التي يعتقد الأشخاص المبجَّلون أنهم يسمعونها إلى جوار القبور، واكتسى وجهه بشحوب أبيض لامع تقريباً، أغلق أنطونيو عينَيْه، وسقط مَغشيّاً عليه.

- "كاترينا! جرازيلا!" - أخذت الحماة في الصياح، وهي تشعر بثقل الشَّابِّ كاملاً على ذراعَيْها، "جرازيلا! كاترينا! هَلُمَّا!".

في هذه الأثناء، وبعد أن سحبت أنطونيو إلى جوار الفراش، ومدَّدتْهُ عرضيّاً كأفضل ما يكون، نهضت بَغْتة مُعتقِدة (أو ربَّما حلمتْ؟) بأنها قد قبَّلتْهُ أكثر من مرَّة على شَفَتَيْه.

الفصل السابع



"وَمَنْ يقرأ ما في رؤوسنا؟".
مقولة صقلية

"أيّتها المرأة، كلَّما نفذتُ
إلى خفايا قلبكِ أكثر،
تردَّدتُ في إيماني بكِ،
أو تقدير ما يبدو عليكِ ...".

ت. تاسو

"بالمثل هذه المرأة الشَّابَّة
تبدو جامدة كالثلج تحت الظلال
فلا يحرّكها إلَّا كما الحجر
الوقت العذب ...".

دانتي

بعد أن أفاق من إغمائه، لم يرد أنطونيو أن يمكث دقيقة واحدة في بيت حَميه، وذهب ليأوي إلى شارع باتشيني، حيث منزل الأبوَيْن. وهنا أغلق حجرته على نفسه، وظلَّ فيها وحيداً لثلاثة أيَّام، يسمح فقط بدخول الأمِّ التي تجلس على الوسادة برقَّة، وتتطلَّع إليه، وهو نائم في صمت، مبتسمة له بين الحين والآخر عندما يفتح عينَيْه قليلاً.

بعد اليوم الثالث بدأ في الظهور في بعض الأروقة والحجرات، لكنْ، ليس فيها جميعاً؛ لأنه لم يرد رؤية الخادمة قطُّ، وعادة ما كانت تسبقه في

نوبات خروجه تلك صيحة من السَّيِّد ألفيو، أو من السَّيِّدة روزاريا: "ادخلي الحمَّام، يا روسينا، وأغلِقي عليكِ! سأُخبرك أنا متى يجب أن تخرجي! ...". وافق على الالتقاء بأبيه، لكنْ، في حضور الأمِّ، ولم يحدث ذلك بمفرده قطُّ؛ كان يحرص دوماً على المرور بعيداً عن واجهات الشرفات الزُّجاجيَّة خوفاً من أن يظهر لأعين الجيران؛ وكان يخشى بشكل أساسي النظرة الواخزة للعانس أرديتسوني، التي يتخيَّل رأسها معلَّقاً على جدار المنزل المجاور الخارجي كرأس خُطَّاف، وعندما يحلُّ الظلام، وقبل أن يدير زرَّ المصباح، كان يرسل والدته، لتُوصِدَ مصراعَي النافذة جيِّداً. وهكذا قبل أن يفتح أيّاً من الأبواب، كان يُدير مقبضه في صخب مرَّات عدَّة؛ لأنه في المرَّات التي تنقَّل فيها، خفية، في صمت من حجرة لأخرى، كان دائماً ما يُباغت الأب وهو يوشك على لَطْم خَدَّيه، لكنه سرعان ما يُوقِف كفَّيه على مبعدة سنتيمتراً من غايتهما، أو الأمّ تضغط بمنديل على فمها، لتخفي بداخله تشنُّجاتها الطويلة.

قالوا للأصدقاء كلهم، وحتَّى لإدواردو الذي يبعث كل صباح بحارس البلدية ومعه لِفافة من السمك الطازج، إن أنطونيو أُصيب بالحصبة، وهي مرض فادح لمَنْ يصاب به في الكِبَر، ويُشكِّل خطورة على باربرا وأقاربها الذين لم يُصابوا به في طفولتهم، وأنه انتقل إلى منزل الأب، ولن يستقبل أحداً قبل أن يُشفَى تماماً.

- "يجب أن تعدَني" - قال السَّيِّد ألفيو إلى محرِّر العقود بوليزي - "بقدر محبَّتك لابنتكَ، إنه لن تصدر منكَ، ولا من أحد من أقاربكَ لخمسة عشر يوماً أيُّ إشارة لما حدث!".

- "لكَ كلمتي!" قال الآخر.

- "انتبه، يا محرِّر العقود، إن مكانة الثور في قرنَيه، ومكانة الرجل في كلمته!".

- "طالما اتَّسم آل بوليزي بالاستقامة، وبمعرفتهم واجبهم! وهذا يعني

أنا - ولخمسة عشر يوماً - لن نذهب حتَّى للاعتراف، ولن تعرف أفواهنا ما تقاسيه قلوبنا!".

لكنْ، كانت الخمسة عشر يوماً تنقضي، ولم ينجح السَّيِّد ألفيو في استجماع شجاعته، ليُدير مع الابن حواراً بمفردهما.

كان يمرُّ، ويعاود المرور في الرواق أمام باب حجرة أنطونيو، ويحتكُّ به أحياناً متحسِّساً إيَّاه بكفِّه، لكنْ، عندما يصل الأمر إلى الطرق، فإن أصابعه المطبقة تظل معلَّقة، منتظِراً أن تُهرع زوجته من حجرة الصالون، وتصيح فيه: "يا ألفيو، ماذا تفعل؟ دَعِ الابن في سلام! ألا ترى كم هو هزيل؟"، وإذا لم تُهرع الزوجة، كان يخفِض على مهل القبضة المعلَّقة، ويعاود الذهاب والإياب.

قبل انقضاء الخمسة عشر يوماً بقليل، لَمْلَمَ شجاعته بيَدَيْه، وفتح الباب بعنف، ودخل.

- "يجب أن تُخبرني بشيء واحد!" - قال بدون مقدِّمات، مُستغِلاً على الفور ذلك القليل من الحزم الذي يحرِّكه: - "هل باربرا مثل النساء الأخريات أم أن بها عيباً؟".

- "أيُّ عيب سيكون بها، يا عزيزي ألفيو؟ نحن النساء خُلِقنا جميعاً على الشاكلة نفسها!" تدخَّلت السَّيِّدة روزاريا التي هُرِعَت من حجرة الصالون، عند رؤيتها الزوج يدخل حجرة أنطونيو، وفتحت الباب.

- "اصمتي أنتِ!" - هتف السَّيِّد ألفيو - "دعيني أتحدَّث مع ابني!" ودفع الزوجة خارج الحجرة، مُطلاً بنصفه في الرواق، ليرى ما إذا كانت قد ابتعدت حقيقةً. ثمَّ عاود الدخول، وأغلق الباب بالمفتاح.

كان أنطونيو قد قفز من الفراش الذي يتمدَّد عليه، وذهب ليُسنِدَ جبينه إلى واجهة الشرفة الزُّجاجيَّة، وهو يُخفي نفسه خلف الستائر.

- "إذنْ؟" سأل السَّيِّد ألفيو.

- "لا، يا أبي" - أجاب أنطونيو مُولياً إيَّاه ظَهْره كما هو - "باربرا ليس بها عيب واحد!".

- "إذنْ، لماذا؟ ... سأُجنّ!".

لم يجبْ أنطونيو بشيء.

- "لكنْ، أتعمَّدتَ ذلك؟ أأردتَ قصداً أن ...؟".

صمت. ظلَّ عنق أنطونيو الشَّمعيُّ اللون تحت الشَّعْر الذي تُرِك ينمو، وكان فاتناً، ثابتاً كما لو كان لشخص نائم، لكنْ، سقطت في إحدى طيَّات الستائر قطرة دم من شَفَتَيْه.

- "أجل، لقد تعمَّدتُهُ!".

- "لا أريد أن أعرف أكثر من ذلك!" - صاح السَّيِّد ألفيو وهو يهبُّ من مقعده - "اصمتْ! لا تتحدَّثْ! لا أريد أن أعرف أكثر! يكفيني ... يا الله، أشكركَ! ... يكفيني، يكفيني! لا أريد أن أعرف أكثر!".

استدار أنطونيو نادماً على كلماته ومقرِّراً تصحيحها، لكنْ، كان الأب قد خرج من الحجرة محرِّكاً يَدَيْه لأعلى.

- "آه، بحقِّ العذراء!" - كان العجوز يصيح ويتَّجه في عجلة صوب حجرة الصالون - "كنتُ أريد أن أقول ... لقد أراد هو ألَّا ... وستكون لديه مبرِّراته الوجيهة. سنعرف هذا فيما بعد ... لقد أُزيحَ عن كاهلي عبءٌ ثقيلٌ ... الآن سأُودِّبه أنا ذلك الفاشل بلحية الكبش".

- "ما الذي حدث، يا ألفيو؟" سألت الزوجة وقد ملأها القلق.

- "لقد منحني ابني الحياة مجدَّداً ... أوه، يا للكتاب المقدَّس! هلُمِّي، أديرِي ذلك الشيء ... ذلك الرَّقْم ذا السبعة عشر!".

- "لكنْ، ماذا تريد أن تفعل؟".

- "أديرِي، قلتُ لكِ، ذلك الرَّقْم ذا السبعة عشر في المقدِّمة!".

وضعت السَّيِّدة زوجَيْن من النَّظَّارات واحداً فوق الآخر، وأدارت رَقْم محرِّر العقود بوليزي.

-"إذنْ" - قال السَّيِّد ألفيو مُمسِكاً سمَّاعة الهاتف - "أهذا أنتَ؟ ... إذنْ أقول لكَ هذا، يجب أن نفعل شيئاً ما! ... أجل، إنه أنا، ألفيو مانيانو ... أنصِتْ لي! ... يجب أن نفعل شيئاً ما، أن نذهب ثلاثتنا، أنا وأنتَ وابني عند امرأة ... حيث تريد أنتَ ... حتَّى لو في كوخ ... ستظلُّ أنتَ هناك لتراقب حتَّى النهاية! ... ماذا يجب أن تراقب؟ ما يفعله ابني!".

- "لكنْ، ألفيو، ألفيو!" هتفت السَّيِّدة وهي تمدُّ يدها كما لو كانت تريد منعه.

-"أنتَ معتوه" - أجاب بكياسة، من الجانب الآخر، محرِّر العقود - "وإذا كنتَ معتوهاً، اذهبْ إلى باليرمو!".

"لا، أنا لستُ معتوهاً على الإطلاق! ولا حتَّى في الحلم! ولتضع في رأسكَ جيِّداً أنكَ، قبل أن تنشر أقاويلكَ الدنيئة، يجب أن تأتيَ معي أنا وابني، شئتَ أم أبيتَ؛ لأنكَ إن لم تفعل، سأقتادكَ، وأنت مثلي عجوز، إلى هناك من لحيتكَ، وسأُمرِّغ وجهكَ ... هناك! ... يجب أن ترى!".

-"بعد غد" - أجاب محرِّر العقود ببرود - "سنُوكل الأمر إلى المحامين، وسيُقرِّرون هم".

- "لا" - صاح السَّيِّد ألفيو بحَدَقَتَيْن مُتَّسعَتَيْن، كما لو كانا على وشك الانفجار - "يجب أن ترى أنتَ قبلاً، أنتَ! ... في ذلك الشيء هناك ... في الكوخ! سأقتادكَ إلى هناك من وجهكَ! ...".

- "لكنْ، أبي، أبي!" - ارتفعت صيحة - "ماذا تفعل، يا أبي؟".

كان هذا أنطونيو الذي استمع إلى الكلمات الأخيرة، ونزع السَّمَّاعة من يد أبيه وأعادها إلى الجهاز، مُطفِئاً بذلك، كقطعة حجر في الماء، ردَّ محرِّر العقود.

- "أبي، أتريد هلاكي؟".

- "أريد هلاكي أنا، أنا،!" هتف العجوز وهو يسقط على المقعد محرّكاً الهواء بيَدَيْه.

- "بعض من هذا ... بعض الماء!".

في اليوم التالي ذهبت السَّيِّدة روزاريا لتُصلّي في كنيسة العذراء الصغيرة في شارع سانت إيوبليو.

بينما كانت راكعة أمام مذبح القدّيسة ريتا، قال صوت: - "أعلم جيِّداً ما يدور في هذا الرأس المسكين!".

وُضِعَت يد راهب شابٌّ على الجدائل الرَّماديَّة المتجمعة حول العنق من الخلف، والمُثبَّتة بعدد لا نهائي من الماسكات غير المَرئيَّة تقريباً.

كان هذا الأب رافائيل، قسّ الاعتراف الجديد للسَّيِّدة روزاريا، والذي حلَّ محلَّ الأب جوفانيّ، بعد أن توقَّف قلب هذا الأخير، بَغْتة، بينما يتلوَّى من الغضب وهو يُلقي موعظة ضدَّ أفعال بعض الخطاة السَّيِّئة، وقد تعرَّف فيهم بعض جواسيس الحزب، الراكعين بين الحشد ورؤوسهم منكسة على صدورهم، النَّازيّين.

- "أيُّها الأب رافائيل" - قالت السَّيِّدة موجِّهة شطره عينَي طفلة فزعة - "أتعلم نيافتكَ؟".

ساعدها الأب على النهوض مُمسِكاً بمَرْفِقَيْها: - "أعلم، للأسف، أعلم!".

- "لكنْ، مَنْ كان يفكِّر في مصيبة عظيمة كهذه ... ؟".

ابتسم الراهب بحزن.

- لكنْ، أصحيح" - تابعت السَّيِّدة متطلِّعة بعينَيْن مرتعبتَيْن إلى القدِّيسين كلهم، واحداً تلو الآخر، المُطلِّين من المحاريب والقباب - "إن الكنيسة ضدَّنا؟".

- "ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟" همس الراهب الشَّابُّ في أُبُوَّة. - "الكنيسة هي الحقيقة والعدل".

تفرَّست السَّيِّدة في وجه الراهب مُحاولِة أن تُدرِكَ لماذا كانت عينا ذلك الشَّابِّ عذبَتَينْ هكذا ومُطمئنَّتَينْ، بينما اتَّسمت كلماته، على النقيض، بالغموض.

- "وباربرا" - سألت - "نيافتكَ تعرف باربرا. كيف ترى تلك الفتاة المباركة؟".

- "أنا لا أستطيع الحكم عليها: فَدَوْر الراعي أن يقود رعاياه، لا أن يحكم عليها. لكنْ، يجب أن أعترف أن ..." تردَّد القسُّ.

- "أن؟ ..." أصرَّت السَّيِّدة.

- "أنني وجدتُ فيها قلباً قاسياً".

- "أيُّها الأب" تضرَّعت السَّيِّدة، وهي تتعذَّب لعدم استطاعتها فَهْم كلمات رجل تضع فيه جُلَّ ثقتها.

- "ماذا تعني بقاسٍ؟".

- "أعني" - أجاب الراهب معذَّباً هو الآخر لعدم استطاعته استخدام الكلمات التي ترد على شَفَتَيْه تلقائياً - "أعني قلباً خلقه الله، ليُحيِّرنا نحن القسِّيسين الفقراء، قلباً ليس بمقدور أحد أن يدرك، ولا أن يفهم فيه شيئاً! تبدو مشاعره كلها في إطارها الصحيح، ولا يمكننا سوى أن نؤيِّدها ونمتدحها، إلَّا إذا" - أضاف وقد تلوَّ ن وجهه باحمرار دماء رجل ريفي - " إلَّا إذا أردتُ الاستماع إلى إحساسي، وليس إلى حكمي. لا أرغب" - قال صارخاً تقريباً - " في دخول تلك الفتاة إلى الكنيسة، ولا حتَّى جثَّة هامدة!".

فقد وجه الراهب الشَّاب ذلك اللون العذب لرجل أضناه الجهد وقت الغروب، والذي طالما اتَّسم به، وأزال التَّأمُّل الطويل والمطالعات آثارهم من فوق وجنَتَيْه اللَّتَينْ لم تعودا منخفضَتَينْ، وغلى الغضب الصقلي بقتامة في عينَيْه المتباعدَتَينْ والحولاوين قليلاً.

أضاف: "إن قلب تلك الفتاة كالشّعاب المرجانية، لا يزداد إلّا جفافاً وصلابةً! كلّما أكثرت الحديث إليها، قلَّ اقتناعها، ولا تفقه شيئاً في أمور الدِّين! لكنْ، أتريدين معرفة ما الذي أخبرتْني به، ليس في اعترافها قطعاً، لأنه في هذه الحالة لم يكن فمي ليتكلَّم؟ ... أخبرتْني أنه منذُ شرحوا لها أن الكنيسة تعتبر زواجها باطلاً، لم تعد تسمح لنفسها أن تُحبَّ رجلاً ليس زوجاً لها! أفهمتِ؟ لم تعد تسمح لنفسها ... إنها لنفس هادئة (وليغفر الله لي، سأذهب غداً للاعتراف!)، خُلِقَت بشكل لا يجعلها تعاني أبداً، أبداً، إلّا في سبيل نفع شخصي عظيم، أو إرضاءً للعائلة، ولن تخاطر أبداً بفُقدان نفسها أو فُقدان ليرة واحدة!". مكتبة سر من قرأ

أصاب السَّيِّدة روزاريا الذهول أمام غضب الراهب. وإن كانت لم تفهم الكلمات كلها، إلَّا أنها فهمت مرادها العامَّ.

- "أبتاه، ألا يمكنني التَّحدُّث مع هذه الابنة الطاهرة؟" سألت.

- "إذا شئتِ، سيكون لكِ ذلك! لكنكِ لن تصل إلى شيء. لقد تعبَّقت تلك الأنوف الآن برائحة المال".

- "رائحة المال؟ ما الذي يعنيه هذا؟" همست السَّيِّدة، وهي تَفقِدُ طيف السعادة الذي أعاد إليها الحياة.

- "أجل، رائحة المال! يملك دوق برونتي، الذي سيصير زوجاً لباربرا، متى تمَّ إلغاء زواجها من ولدكِ، ثلاثة آلاف مليون! لِنرَ ما حدث: ما إن أبدى ذلك السَّيِّد الكريم نَدَمَهُ على أنه لم يتزوَّج من فتاة عملية مثل باربرا، يقابل الأب رئيس الأساقفة، وبعد كثير من اللعب بالكلمات، يسأله النُّصح حول الطريقة التي يجب أن يتصرَّف بها مع الابنة وزوج الابنة ...".

- "لكنْ، منذُ سبعة أشهر! ...".

- "بالفعل، كان يعلم منذُ سبعة أشهر كيف تسير العلاقة بين أنطونيو وباربرا، لكنْ، ماذا يريد؟ في تلك الأشهر السبع لم يلتقِ قطُّ برئيس

الأساقفة! ألم تتواجدوا أنتُم، أيُّها القسّيسون المساكين؟! - هكذا ستقولين أنتِ - أليس لديه هو نفسه في منزله أحد الدومينيكان كبار الشأن؟ أوه، يا سيِّدتي العزيزة، أنتِ ساذجة بالفعل! يلزم الأمر رئيس الأساقفة، أو الحبر الأعظم شخصياً، ليفتح فم أحد محرِّري عقود عائلة بوليزي في قضية شديدة الحساسية!".

- "لكنْ، يا أبتاه، أتعتقد أن الزواج سيُلغَى؟".

- "أجل، أيَّتها الصديقة العزيزة، لا تَدَعي نفسَكِ فريسة للأوهام! إذا كانت الأمور كما يقولون، سيُلغى الزواج!".

أخذت السَّيِّدة في النحيب ببطء: - "أتُصدِّق، أيُّها الأب! ... ابني أنطونيو ... الذي كان وجه الأب چوفانيّ يتكدَّر عندما يراه يدخل الكنيسة يوم الأحد؛ لأن النساء كلهنَّ كنَّ يبقين بأعناق ملتوية ... ابني أنطونيو، أيُّها الأب، الذي ارتكب في روما الكثير من تلك الخطايا التي يجب أن يرتكبها الشباب! ... أحياناً، أضرب رأسي، لأنني أفكِّر أن الله أراد أن يجيبني عندما كنتُ أدعوه أن يُهدِّئ من ابني متدفِّق الذُّكُورة! ... أأَرَدْتِهِ هادئاً؟ أجاب الله، ها أنا قد أصبتُهُ بالبرودة جيِّداً! أيمكن، يا أبتاه، أن يكون الله قد عاقبني مبتلياً إيَّانا بهذا العار؟".

- "لكنه ليس عاراً على الإطلاق، سيِّدة روزاريا!".

- "أوه، إنه عار، أيُّها الأب، عار! ... دعكَ من ذلك، إنه عار! وحقيقي أن الكنيسة تُلقي باللاَّئمة علينا، وأيضاً السَّيِّد رئيس الأساقفة الذي نسي كم من الصنائع أدَّاها زوجي إليه، الجميع في صفِّ باربرا ضدَّ ابني أنطونيو!".

- "أوه، يا إلهي، لا أعرف كيف أُفسِّر كلماتي!" قال القسُّ ممرِّراً ظَهْر كفِّه بقوَّة على جبينه. - "الكنيسة لا تُلقي باللاَّئمة على أحد، إنها ببساطة تُلغي الزواج!".

- "لم تضف شيئاً، يا أبتاه! ... ستُلغي الزواج! تفعل ما تريده باربرا،

ما يريده محرِّر العقود، وما يريده دوق برونتي ... إذا لم تكن تُلقي باللّائمة علينا، كانت ستفعل ما نريده نحن، ولا تقوم بإلغاء الزواج! ... لا، يا أبتاه، لا! لقد أراد الله معاقبتي، لأنني قد زُلَّ لساني، ودعوتُهُ كثيراً أن يُهدِّئ من دم ابني! ويعني هذا أنه لا يجب على أيّ أُمٍّ أن تؤدِّي هذه الصلاة، ولا حتَّى في خيالها، ولا بدَّ من ترك الأبناء الذُّكور يفعلون ما يرغبون فيه، لا بدَّ من تركهم ليلهوا! ... لكنْ، كان الأب چوفانيّ، وليباركه الله في عليائه، قد أدخل الرعب إلى قلبي عندما قال لي: - إذا استمرَّ ابنكِ على هذا المنوال، سيشيع الاضطراب في الكنيسة المقدَّسة، وستكون الكنيسة قاسية معه! - وها نحن الآن، لقد صار ابني كملاك رقيق، يتصرَّف كملاك نزل على الأرض، كالقدِّيس يوسف مع العذراء، والكنيسة قاسية معه بالقدر ذاته، بل أكثر، وتستعدُّ للقيام بشيء سينكس رؤوسنا أمام أفراد عائلتنا كلهم! ما الذي لدى الكنيسة ضدَّ ابني؟ ما الخطأ الذي ارتكبه؟ ما الخطأ الذي ارتكبناه؟".

- "أيّ تشوُّش داخل ذلك الرأس المسكين!" - تمتم القسُّ مُداعِباً بيأس جدائل السَّيِّدة العجوز. - "كيف أستطيع أن أُوضِّح لكِ؟".

- "لكنْ، يا أبتاه، ألا أقول صواباً؟ إذنْ، ألا أعقل؟ كنتُ أتأسَّى بشدَّة عندما يصل إلى علمي أن ابني يروق للنساء الأخريات! ولمَنْ يجب أن يروق أحد الأبناء، إن لم يكن للنساء؟ يا لمصيبتي! ولماذا، بدلاً من إطلاق الشكاوى، لم أشكر الله بلسان يلهج بالحمد، لأنه وهبني ابناً جميلاً، كانت الفتيات تأكلنَهُ بأعينهنَّ؟ والآن ... ها أنا هنا ... حيث لا يريد أحد مساعدتي، ولا حتَّى أنتَ، أيُّها الأب رافائيل!".

- "لا، يا سيِّدتي، غير صحيح ما تقولين!" - هتف القسُّ - "أنا على أتمِّ استعداد لأن أُقبِّل قَدَمَي ابنَكِ، إذا شئتِ".

وفكَّر كم من المرَّات أصابتْهُ بحُمَّى، هو الذي تغذَّى على اللبن

والهِنْدِبَاء، ليصير دمه فاتراً كالندى، صورة باربرا تلك، وربَّما لأجل هذا كان قاسياً للغاية عليها!

- "إنها باربرا مَنْ يجب أن تُقبِّل قَدَمَي ابني!" - قالت السَّيِّدة - "ليس أنتَ، أيُّها الأب رافائيل! باربرا التي ذبحتْنا بسكِّين مسموم ... أبتاه،" - أضافت بعد هُنَيَّة - "يجب أن تُسدي لي هذا الصنيع، لا يمكنكَ أن ترفض!".

- "أيَّ صنيع، يا سيِّدتي؟ أخبريني!".

- "يجب أن تجعلني أتحدَّث مع زوجة ابني، لكنْ، ليس في منزل أولئك الخبثاء، بل هنا، في الكنيسة، أمام يسوع المسيح الذي يرانا!".

- "كما تريدين، يا صديقتي العزيزة! لِتأتِ يوم السبت، في الخامسة عصراً، وسأتصرَّف بطريقة تجعلكِ تجدين زوجة ابنكِ".

بعد يومَين، في الخامسة تماماً، عادت السَّيِّدة روزاريا إلى كنيسة العذراء في شارع إيوبليو.

ابتعد في تلك اللحظة عن إحدى نوافذ الاعتراف، دون لويجيانو كامبانوني، الرجل الذي روَّع في شبابه الحقول المجاورة بأعمال السَّلْب والنَّهْب، وفَقَدَت خمس فتيات عذريَّتهنَّ على يَدَيْه تحت أحد الأشجار في لمح البصر ... لكنْ، يا للعذوبة التي تطلُّ من عينَيْه الآن! ويا للوَلَه بالعادات البرجوازية المعتدلة في ارتداء الثياب! تلقَّت السَّيِّدة روزاريا أكثر التَّحيَّات راحة وتفهُّماً في تلك الأيَّام، من قاطع الطريق الحاذق هذا الذي انحنى في تبجيل مشيراً بيده اليمنى، وكأنه يرفع القبَّعة التي كان يحتفظ بها في تلك اللحظة في يده اليسرى.

ولانتقالها من عينَي قاطع الطريق التائب العذبَتَيْن إلى عينَي باربرا الراكعة أمام مُصلَّى القدِّيسة ريتا الباردَتَيْن، شعرت السَّيِّدة روزاريا بارتعاد يَدَيْها في مزيج من الغضب والفزع.

- "طاب صباحكِ!" قالت بصوت خافت.

- "لتباركيني!" أجابت باربرا.

مكثت المرأتان في صمت راكعَتَيْن الواحدة إلى جوار الأخرى، وهما تتظاهران بالقراءة، كلّ منهما في كتابها.

- "أنذهب إلى مخزن الثياب؟" قالت باربرا بعد ذلك، وهي ترسم الصليب سريعاً سريعاً.

- "كما تريدين" أجابت السَّيِّدة روزاريا.

وفي حجرة صغيرة من حجرات المخزن الذي خرج منه الأب رافائيل بهدوء، ظلَّت باربرا والسَّيِّدة روزاريا متواجهتَيْن لدقيقة بأعين منكسة.

بَغْتة ارتمت باربرا عند قَدَمَي العجوز، واحتضنت ركبَتَيْها منتحبة.

حاولت السَّيِّدة روزاريا مداعبة شَعْرها، لكن يَدَيْها كانتا تنتفضان من رعدة تهزُّهما.

بدأت تشنُّجات باربرا هادئة، ثمَّ ازدادت قوَّتها وتسارعها، والتحق بها نوع من الصراخ الخافت، ثمَّ خرجت الكلمات مختلطة مع التَّشنُّجات، وإن ظلَّت ملتبسة بها، مندفعة وغامضة.

- "مغفرة!"- ظنَّت السَّيِّدة أنها تسمع - "أطلب مغفرة ابنكِ للإهانة التي ألحقتُها به! يجب أن أُصلحَ الأمر فوراً!".

شعرت السَّيِّدة روزاريا بقلبها يذوب، وبعد أن ضمَّت وجه باربرا الغارق في الدموع إلى ركبَتَيْها، بدأت في مواساتها.

- "كفى!" - قالت لها - "كفى! اهدئي، يا عزيزتي، كفى!".

لكنْ، لم يعد ذلك يُقلقها، عندما كرَّرت باربرا، بعد أن هدأت قليلاً وانتشلت كلماتها واحدة تلو الأخرى من نشيجها، العبارة التي نطقت بها أثناء البكاء بهذا الشكل:

- "المغفرة، المغفرة يجب أن يسألني إيَّاها أنطونيو، لأجل الإهانة التي ألحقها بي! ويجب أن يُصلح الأمر فوراً!".

كانت، في الحقيقة، ترثي لحالها بذلك البكاء، واتجهت مشاعر التعاطف التي ما زالت تربكها نحو نفسها.

زمّت السَّيِّدة روزاريا شَفَتَيْها، غير قادرة على إخراج أيِّ كلمة من صدرها الذي يُطبق عليه الفزع، لكنْ، في النهاية، ألقت موجة من الغضب بخمس أو ستِّ كلمات على شَفَتَيْها: - "ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟".

لم تعتقد باربرا أن عليها تكرار العبارة التي نطقت بها بشكل بالغ الوضوح.

- "لكنْ، لماذا أهانكِ أنطونيو؟" - تابعت العجوز المسكينة - "ماذا فعل بكِ أنطونيو؟".

- "سيِّدتي" - قالت باربرا مُخفية وجهها في ثياب الحماة القاتمة - "عندما تزوَّجتُ أنطونيو، ويشهد الله هنا على ذلك، كان عقلي عقل فتاة في الثالثة من عمرها؛ إن متُّ وقتها - وهذا ما كان على الله أن يفعل! كان يجب أن يأخذني آنذاك! - كنتُ سأذهب مباشرة إلى الجنَّة! كانت أيُّ كلمة تخرج من بين شَفَتَي أنطونيو - بالنسبة إليَّ - قانوناً وحقّاً ... الله في السموات وأنطونيو على الأرض! ها هو ديني ... لقد أحببتُهُ كنفسي! ... وكنتُ أعتقد أنه هو أيضاً يحبُّني ...".

- "ولماذا؟ أليست هذه هي الحقيقة؟".

- "لا، ليست الحقيقة!".

عادت باربرا إلى النحيب، لكنْ، بهدوء شديد، بداخلها تقريباً.

- "أنا لم أعد الطفلة ذات الثلاثة أعوام التي كانت تُقسم بكلمات أنطونيو، كما تفعل بكلمات الإنجيل!" - أكملت - "الآن عرفتُ!".

- "لكنْ، ماذا عرفتِ؟".

- "ما يجب أن تعرفه امرأة متزوِّجة".

- "لكنْ، أوضحي لي، ابنتي! انزعي ذلك السِّكِّين من قلبي!".

- "أنطونيو لم يحبّني قطُّ، لقد كان دائم الاحتقار لي".

- "لكنْ، إذا كانت عيناه تلمعان كلَّما رآكِ؟".

- "أجل، كان مهذَّباً، وعطوفاً، لم يكن يستطيع النوم إذا لم يحتضنِّي...".

- "أترين؟ أترين؟ لقد كان يقبض عليكِ في راحة يده كالكنز".

ران صمت.

- "لقد كان يحتقرني!" كرَّرت باربرا بجفاف.

- "حتَّى تُفسِّري لي لماذا كان يحتقركِ، سأقول إن هذه ذريعة منكِ!".

- "ذريعة؟" - سألت باربرا بعينَيْن صارمَتَيْن - "ذريعة؟ ... إذنْ، لماذا تعاملَ معي كقطعة حجر؟ هل تعامل مع النساء الأخريات بالطريقة ذاتها؟".

لوت السَّيِّدة روزاريا فمها يساراً لأسفل، وقالت: "باربرا، أنتِ لا تزالين طفلة! أتعتقدين أنكِ تعرفين كل شيء، لكنْ، يجب أن تمرِّي بالكثير، لتختبري أمور الحياة! ... ما حدث لأنطونيو هو كارثة ... كارثة، يا ابنتي، ... يمكن أن تحدث لأيِّ شخص!".

- "أعرف هذا أيضاً" - أجابت باربر وقد نهضت على ركبَتَيْها - "أعرف أن هذه الكارثة يمكن أن تحدث للرجال!".

- "أتعرفين متى تحدث؟".

- "أعرف".

- "تحدث عندما يحبُّ شخصاً ما بقوَّة، ويخفق قلبه بشدَّة ... ويرى في هذا الشخص مخلوقاً سماويّاً ...".

- "أعلم ذلك ... لكنه يحدث ليوم، اثنَين، ثلاثة! يحدث لشهر. ثمَّ عندما تحدث الألفة، وتقع الطمأنينة، ويرى أن زوجته هي امرأة من لحم ودم ككل الأخريات تنتهي الكارثة".

- "وإذا ظلَّ الشَّابُّ بذلك الانطباع، وأن زوجته مخلوق سماوي، واستمرَّ قلبه في ...؟".

- "لا، اتركي القلب جانباً! في أيَّامنا الأولى، كنتُ أشعر به يَخفِق على وسادتي حقّاً، وحتَّى في الفراش. لكنْ، بعد ذلك، لم أشعر به حتَّى في الجانب الأيسر، عندما كان يضمُّ يدي إلى صدره أثناء النوم ...".

- "أرأيتِ، أرأيتِ" - قاطعتها السَّيِّدة روزاريا منتحبة - "كم كان يحبُّكِ؟ كان ينام ويدكِ مضمومة إلى صدره، كما كان يفعل معي وهو طفل! لأنه ظلَّ طفلاً، طفلاً!".

أمالت باربرا ذقنها تعبيراً عن الانزعاج، وتقريباً السأم.

- "أجل" - قالت - "عندما كان يخلد للنوم ضامّاً يدَكِ إلى صدره، يا سيِّدتي العزيزة، كان هذا دلالة على حُبِّكِ، أمَّا عندما كان ينام بتلك الطريقة مع يدي، فكان ذلك يعني شيئاً آخر... أنني بالنسبة إليه قطعة من الحجر!".

- "ها نحن قد عدنا إلى قطعة الحجر! ..." - قالت الحماة بصوت حادٍّ - "إجمالاً، باربرا ... نحن امرأتان متزوِّجتان، أنتِ لم تعودي طفلة، إنكِ بالغة أيضاً، في مثل عمركِ كان لديَّ ابن يبلغ الثانية عشرة ...".

- "ليس خطئي" - قالت باربرا غاضبة - "إذا لم أكنْ قد رُزقت بابن!".

- "إيه، صغيرتي! يجب ألَّا تستهيني بي! أنا طيِّبة وحنون، لكن هذه الكلمات التي تنضح بسُمِّ آل بوليزي لا تُؤثِّر بي! ... أنا أُحصي ما في جيبكِ من مال بالنظر إلى وجهكِ فحسب!".

نهضت باربرا على قَدَمَيْها.

- "اهدئي!" - قالت السَّيِّدة روزاريا - "ولا تظنِّي أنكِ تُرهبينني! قِفي، اجلسي، تمدَّدي، اجعلي رأسكِ لأسفل وقَدَمَيْكِ في الهواء ... كيفما تريدين! هذه الأشياء، كما أخبرتُكِ، لا تُؤثِّر فيَّ بِقليل أو كثير! نحن لن نبرح هنا، إذا لم نقل الحقيقة!".

- "أتعلمين؟ ..." انطلقت باربرا ثائرة.

- "اهدئي!" - قاطعتْها السَّيِّدة العجوز - "من الأفضل لكِ أن تهدئي ... سأتحدَّث أنا قبلاً. وسأبدأ بقولي إنه يجب ألَّا تُقصّي عليَّ تلك القصَّة التافهة عن احتقار أنطونيو! إيه لا! أنتم، آل بوليزي، لا تحاولوا ذلك معي؛ لأنني أقرأ ما يجول في رؤوسكم قبل أن تقولوا حرفاً واحداً! ... أنا أعرف عنكم كل كبيرة وصغيرة! ... إذنْ، دعي تلك القصَّة عن الاحتقار حيث هي! تعلمين أفضل منِّي أن أنطونيو لا يحتقركِ، بل يحبُّكِ كعينَيْه! ابني، أتدركين كيف أعرفه؟ عند اقترابه منِّي فقط، أُدرك ما في قلبه! ومنذ متى هذا؟ دوماً، منذُ كان طفلاً، كان يكفيني أن أسمعه يتقلَّب في الفراش، لأدرك ما يحلم به! ... إذنْ، دعي تلك القصَّة عن الاحتقار حيث أتيتِ بها! ... لماذا يجب أن يحتقركِ؟ أتريدين مصارحتي بذلك؟ ... أنتِ جميلة كزهرة، بصحَّة وافرة، وعينَيْن خضراوَيْن، وشَعْر أسود فاحم، وجسد أبيض شاهق ... إيه، يبدو وكأنكِ خُلقت، لتُثيري إعجاب أنطونيو!".

- "أجل، لكنْ ...".

- "أجل، لكنْ، لا شيء! ... لقد وقعت كارثة، لذلك الابن المسكين! لم يشأ الله ...".

- "وإذا لم يشأ الله ..." قاطعتْها باربرا.

- "لا تتعجَّلي! انتظري حتَّى أنتهيَ من الحديث! ... لم يشأ الله حتَّى اليوم. لكنْ، غداً، مَنْ يدري؟ لقد بعتِ فراء الدُّبِّ قبل صيده! نحن لا نجلس فوق اللهب حتَّى أنه لا يمكننا الانتظار قليلاً!".

- "وفيم يفيد الانتظار؟".

- "كيف؟ فيم يفيد الانتظار؟ ما لا يحدث اليوم قد يحدث غداً! أنطونيو شابٌّ تتمنَّى معاشرته النساء كلهنَّ! ... هذه المرَّة قيَّده الشيطان! لكنْ، ما الذي يعنيه هذا؟ يمكن تحطيم القيد أيضاً! كان بإمكانكِ الانتظار، يا ابنة الرَّبِّ! فلم يكن الهواء هو ما ينقصكِ!".

- "سيِّدتي" - قالت باربرا بجمود - "يسلك الحوار طريقاً لا يروق لي! كنتُ آمل أن تكوني قد أتيتِ لمواساتي، لعلمكِ ما عانيتُ في هذه الأعوام الثلاثة!".

- "لكنْ، ما الذي عانيتِ، باربرا؟" - صاحت الحماة - " أتقصِّين عليَّ أنا هذه التُرَّهَات؟ ما الذي عانيتِ؟ يمكن العيش بشكل طيِّب للغاية بدون هذا الشيء! لا يهلك الناس! لقد ذهب زوجي للحرب بعد عشرين يوماً من زواجنا، ومكثتُ أنا في انتظاره هادئة تماماً لعامَين. مَنْ كان يفكِّر بذلك الشيء؟ أوه، ليحمِنا الله ويخلِّصنا، حقّاً، مَنْ كان يفكِّر بذلك؟".

احمرَّ وجه باربرا، واتَّسعت عيناها.

- "لكنْ، إجمالاً" - صرخت - "لم يأتِ الله بي إلى العالَم، لأتلقَّى الإهانات من آل مانيانو! يضعني ابنكِ جانباً كقطعة قماش بالية، وتقومين أنتِ بإهانتي ... كفى! ...".

- "كفى، هُرَاء! إذا لم أقل كل ما عندي، ستنزل بي نازلة!".

- "إذنْ، أنصتِي لي! ذلك الشيء الذي تتحدَّثين عنه ليس لي به علم على الإطلاق. وحتَّى سبعة أشهر مضت، لم أكن أعلم حتَّى بوجوده. لم يكن للحماقات والاضطرابات وجود في رأسي. أعتقد أنني أكثر النساء برودة ...".

- "ها هو، ها هو، ها هو!" - صاحت الحماة ناهضة هي الأخرى من مقعدها - "ها هو تفسير كل شيء! لقد نطقتِ به أنتِ بنفسكِ! ... لتحملي على نفسكِ، إذنْ، إن وقع ما وقع! ظننتُ ذلك دائماً، أنكِ باردة كالجليد، وتقضين على رغبة مَنْ يظنُّ أنه الأحذق، لتحملي على نفسكِ، إذنْ!".

- "سيِّدتي، تحيَّة!" قالت باربرا مُولية إيَّاها ظَهرها بعنف، وبعد أن توقَّفت لبُرْهَة خلف الباب، لتُهدِّئ من شَفَتَيْها اللَّتَيْن كانتا لا تزالان

ترتجفان، فتحت المصراع، وابتعدت عبر الممرّ، وفي نهايته، فتحت باباً آخر، وولجت إلى الرواق، حيث غمرها على الفور الشعاع الملوَّن الذي يسقط من إحدى الواجهات. اختفت تاركةً السَّيِّدة روزاريا وقد سمَّمتها حتَّى النخاع المرارة غير المحتملة لمَنْ يشعر أنه مُحقٌّ، ولأن خصمها البارع اضطرَّها إلى التَّصرُّف بقلَّة حنكة، فقد ظلَّت غير راضية عن الإهانة التي تلقَّتْها، ويملؤها الندم أيضاً.

كانت المرأة المسكينة تعضُّ المنديل وتبكي.

- "لا يقدر على تلك الفتاة أحد!" قال لها بعد ذلك بقليل الأب رفائيل مرافِقاً إيَّاها إلى باب الكنيسة.

- "كان يجب أن تتَّسم بالحذر! إنها صادقة عندما تشعر بشيء ذي جدوى لها. تتحدَّث بحمية الحقيقة، وبالحِذْق الجهنَّميّ لمَنْ يفكِّر بروية. وهي تجهل بالفعل أنها قد فكَّرت سلفاً في مشاعرها كلها".

- "أيُّها الأب رافائيل، أتذكر عندما أتيتَ لي بالزيت المقدَّس، لأنني كنتُ على وشك الموت منذُ سبعة أعوام مضت؟".

- "كما لو كان بالأمس، يا صديقتي العزيزة!".

- "بينما كنتَ تناولني المسحة الأخيرة، صلَّيتُ للعذراء أن تتركَني أحيا حتَّى أرى ابني متزوِّجاً ... أوه، أيُّها الأب رافائيل، أيّ صلاة أدَّيتُ! كم سيكون جميلاً ألَّا أحيا اليوم في هذا العالَم!".

- "لا، يا سيِّدتي، أنتِ مُخطِئة. لم يقتلْ ابنكِ، ولم يسرقْ. فكِّري كم من النساء المساكين أُمَّهات لقَتَلَة أو لصوص!".

- "وماذا تريدني أن أقول، أيُّها الأب رافائيل؟ أُوشك على فَقْد إيماني. يبدو لي أنه لم يبعث الله بعار كعارنا إلى أحد قطُّ!".

- "أنتِ تسبِّين، يا صديقتي العزيزة! ستدركين مع مرور الوقت أن ما بابنكِ ليس عاراً ولا هواناً. الذنب كله لباربرا!" - أضاف وقد عاوده الحقد

على صورة تلك الفتاة التي تُثيره بازعاج أكبر كلَّما حكم عليها بأنها أكثر شرّاً وبرودة، حتَّى إنه لم يعد يدري إن كان ما يقول حكماً قاسياً عليها أم طريقة لإبداء استحسانه ... لكنه أمسك بزمام نفسه. - "باربرا هي ما تكون!" - قال بصوت هادئ - "وربَّما كانت أفضل من الأخريات، وقطعاً أفضل منّي أنا الذي أتحدَّث بحُمْق ... من الأفضل ألَّا تُخبري زوجكِ شيئاً! نحن الرجال دماؤنا حارَّة. إلى اللقاء، يا صديقتي العزيزة، ليَحمِكِ الله!".

لكن السَّيِّدة روزاريا لم تستطع إلَّا أن تُسِرَّ لزوجها بما حدث.

- "لقد تصرَّفتِ بشكل سيِّئ!" - قال - "لم يكن عليكِ أن تتقي بها هكذا! لقد تعلَّمتُ كيف يكون الحديث مع آل بوليزي. انظري، هكذا: بفم مضموم كما يفعلون هم. لقد أعددتُ بضع كلمات باردة، سأُجمِّد بها دماء أوَّل مَنْ ألتقيه منهم لمدى الحياة. بحقِّ الله! لنرَ إن كان بمقدور ألفيو مانيانو أن يصير مُرائياً هو الآخر!".

بعد يومَيْن، التقى، في شارع إتنا، الأب روزاريو، عمّ باربرا.

حاول الراهب في البداية تجنُّب العجوز مانيانو، وتوقَّف ليشاهد واجهة أحد محالّ الثياب، ثمَّ سرعان ما أدرك أنه ليس من اللَّائق لأحد رهبان الدومينيكان أن يتفحَّص مشدَّات الصدر والكورسيهات العلوية التي يكتظُّ بها العرض، وبينما يستدير بَغْتة، وجد نفسه وجهاً لوجه مع ذلك الذي أراد التَّملُّص منه. لكنْ، أيّ مفاجأة عندما رأى، بدلاً من العجوز الغاضب الذي كان يتوقَّع، سيِّد كيس هادئاً، تحدَّث إليه بشَفَتَيْن مضمومَتَيْن، ومبتسِماً تقريباً!

- "سيادتكَ، يا مَنْ أنتَ أعلم بذلك، يجب أن تُخبرني بشيء!" - قال السَّيِّد ألفيو على الفور - "كيف يمكن أن تعتبر الكنيسة زواجاً باطلاً لمجرَّد أن الزوج والزوجة لم يأتيا بأفعال جسدية؟".

- "أنا لا أعلم عن ذلك شيئاً على الإطلاق، يا عزيزي سيِّد ألفيو! أؤكِّد لكَ أنني لا أنوي التَّورُّط في ألاعيب الشباب! لقد منحناهم المكيال، وليكيلوا هم! أنا لا دخل لي! لا دخل لي! لا دخل لي!".

- "أعرف ذلك" أجاب السَّيِّد ألفيو، والعَرَق يغطِّيه من أخمص قَدَمَيْه إلى رأسه من جهد الحفاظ على أعصابه هادئة. - "لكنْ، أريد أن أستزيد علماً حول هذه القضية، هكذا، بشكل عامٍّ، لكنْ، فيما يتعلَّق بابني ... أنا شغوف بمعرفة كيف تسير هذه الأمور!".

ألقى الراهب نظرة خاطفة على وجه محدِّثه، ولأنه بدا شاحباً، وهادئاً كَمَنْ قضى نحبه بهدوء منذُ فترة وجيزة، فقد شعر برعدة. لم يكن هذا الهدوء معتاداً من السَّيِّد ألفيو، وبأيِّ حال، إذا كان على أحدهما أن يكون هادئاً، كان الراهب يُفضِّل أن يكون كذلك.

- "اسمعْ، يا صديقي العزيز!" - قال بصوت عطوف - "لنتحدَّث كأشخاص متحضِّرين وكأقارب: أقدر ألمكَ واستياءَكَ!".

منع السَّيِّد ألفيو صرخة صَعِدَتْ من صدره، ونجح مرَّة أخرى في الابتسام بشَفَتَيْن مضمومَتَيْن.

- "لا، لا، لا!" - قال الراهب متطلِّعاً إليه - "دعكَ من هذا! أنتَ أب، ولأجل ابنكَ يضيع البصر من عينَيْكَ، ولكَ كل الحقِّ في ذلك!".

- "لندخل من ذلك الباب!" انطلق السَّيِّد ألفيو، وقد غلبه احمرار شديد خرج من ياقة السترة، وغزا وجهه بالكامل.

ولجوا إلى فناء عريق، رطب، وخاوٍ.

- "والآن لتُخبرني سيادتكَ!" - قال السَّيِّد ألفيو بصوته الطَّبيعيِّ تاركاً لوجهه حُرِّيَّة العبوس والاختلاج كما يحلو له - "فَسِّرْ لي! لماذا تقوم الكنيسة بإلغاء زواج لمجرَّد أن الزوجَيْن لم يأتيا بأفعال جسدية؟ ماذا تريد الكنيسة، أن ... ليل نهار؟ أهذا ما تريده الكنيسة؟".

لرؤية السَّيِّد ألفيو واللُّعَاب يُغرِق شَفَتَيْه، تنفَّس راهب الدومينيكان الصعداء، ودخل بيُسر في ذلك البرود الذي خرج منه الآخر بلا رجعة.

- "الزواج، يا عزيزي سيِّد ألفيو، سرٌّ حقيقي. بل أقول لكَ ما هو أكثر: إنه أحد الأسرار الأشدّ قدسية".

- "وبالضبط لأجل هذا، أقول ... إنه شيء مقدَّس. لا يمكن تحطيمه بين يوم وليلة، لمجرَّد أن الزوج - ولدوافع خاصَّة به - لم يُردْ معاشرة زوجته".

- "يؤسفني أن تعبر بتلك الطريقة! إن الزواج سرٌّ ...".

- "إنه سرُّ الله! ...".

- "لا تكفر؛ لأنكَ إن كفرت سأكون مضطرّاً للانصراف!".

- "سيادتكَ لن تنصرف، أيُّها المبجَّل، لن تنصرف! إذنْ، لنفكِّر: الزواج هو ما يكونه ...".

- "لا، لا، لا! الزواج ليس ما يكونه، إن الزواج سرٌّ! أوَ تعلم مَنْ يقوم بالمراسم؟ العروسان ذاتهما! الراهب يبارك ولا يمارس".

- "حسن للغاية! ولأجل هذا؟ كيف يُبطل السِّرّ لمجرَّد أن الزوج - ولدوافع خاصَّة به - أكرِّر، فلا أريد أن أُفصِّل هنا، لم يُرد معاشرة زوجته؟".

- "لا تتحدَّث هكذا، أتوسَّل إليكَ، أتوسَّل إليكَ!" - هتف الراهب فاقداً بعضاً من هدوئه - "كيف يجب أن أقولها لكَ؟ أتوسَّل إليكَ! ... الزواج يتألَّف من عنصرَيْن: أحدهما روحيّ، والآخر ماديّ ...".

- "حسن، حسن للغاية! وإذا أراد شخص ما أن يجعل من هذا الزواج فعلاً روحيّاً فحسب - أقول ذلك افتراضاً؛ لأننا نحن آل مانيانو، نؤدِّي هذه الأشياء جسديّاً دوماً! - لكنْ، إجمالاً ... إذا أراد شخص ما - ولمعايير خاصَّة به - أن يجعل منه فعلاً روحيّاً فحسب، فما الذي لدى الكنيسة لتقوله؟ يجب أن تكون سعيدة، وراضية هي التي تُضجِرُنا دوماً وتعظُنا ضدَّ الجسد!".

- "لكنْ، في الزواج، عزيزي سيِّد ألفيو، يُعتبر الجانب الماديُّ مقدَّساً، كذلك الرُّوحيّ! جسد واحد، ودم واحد(*) ...".

- "حدِّثني كما أتحدَّث إليكَ، أيُّها المبجَّل، وفَسِّرْ لي!".

---

*) العبارة باللغة اللاَّتينيَّة.

"جسد واحد ودم واحد!".

- "أه، تُردِّدون الآن هذا الموَّال! الآن وقد وضعتُم نُصب أعينكم أرض دوق برونتي! وعندما كان ابني في روما ... وأنا نفسي، حتَّى الأمس، هنا ... كنَّا نمارس مع النساء جسداً واحداً ودماً واحداً، لماذا تصرخون كثيراً، أنتُم يا كهنة الاعتراف داخل الكابينة الخشبية وكأننا ننتزع أعناقكم؟".

- "لكنْ، يا سيِّد ألفيو، لا ترغب سيادتكَ في إعمال العقل! أنتُم تمارسون جسداً واحداً ودماً واحداً مع نساء لَسْنَ نساءكم".

- "أجل، حسناً، لم يكنَّ نساءَنا، لكنهنَّ كُنَّ يمكثنَ ويَبدُون سعيدات بأنهنَّ نساؤنا! ... عندما تكون للرجل زوجة مريضة، أو يكون أعزب، أين، وبحقِّ الشيطان، يجد الجسد والدم، إذا لم يبحث عنهما عند أخريات؟".

- "أتعرف ما الذي يجب أن يفعله الرجل في هذه الحالات، يا عزيزي سيِّد ألفيو؟ أن يحفظ نفسه طاهراً! أتظنُّ الطهارة تؤذي؟ إنها جيِّدة للعقل والصِّحَّة! إن الطهارة أكبر الفضائل ...".

- "تبّاً! ... سيادتكَ تنتزع السباب منِّي! ... وإذا كانت الطهارة أكبر الفضائل، لماذا عندما يمارسها أحد الرجال في منزله، تلعنونه، وتُشهِّرون به، وتُبطِلون زواجه؟".

- "يا لصبر الله! لكنْ، الزواج، كما أخبرتُكَ، يتألَّف من عنصرَين، أحدهما رُوحيّ أو معنوي، والآخر ماديّ. وإذا لم يتمّ إتيان الفعل الماديِّ، يتَّضح فساد الرُّوحيِّ أيضاً. انموا وتكاثروا! هكذا قال إلهنا للأزواج ...".

- "أو لا تكفُّون أنتُم، أيُّها الرهبان والأساقفة، يا نعيق الغربان، وسواد الدخان، لجعل العائلات تنمو؟".

- "أتوسَّل إليكَ، يا سيِّد ألفيو، لا تتحدَّثْ بهذه الطريقة!".

- "أنا أتحدَّث كما يبدو ويحلو لي!".

- "إذنْ، سأنصرف!".

أبدى الأب روزاريو تحرُّكه للانصراف.

- "وإذا انصرفتَ" - صاح السَّيِّد ألفيو كمعتوه - "سأهرع خلفكَ وأُشينكَ في الطريق!".

- "أيّاً ما تقول لي، يا صديقي العزيز، يدخل من أُذن، ويخرج من الأخرى!".

- "وإذا صحتُ في كلِّ مَنْ ألتقي أن لحم آل بوليزي يُباع لمَنْ يدفع أكثر؟".

فَقَدَ الراهب أعصابه تماماً.

- "أنتَ الآن تُخطِئ حقيقة، يا سيِّد ألفيو!" صاح بعينَيْن حمراوَيْن.

- "أنا لا أُخطِئ!".

- "أنتَ تُخطِئ!".

- "لا!".

- "أجل!".

- "لا!".

- "أجل ، سيادتكَ تتجاوز الحَدَّ!".

- "أنا لا أتجاوز الحَدَّ!".

- "أجل، سيادتكَ تتجاوز الحَدَّ!".

- "أنا لا أتجاوز الحَدَّ!".

- "أجل، بحقِّ الله، سيادتكَ تتجاوز الحَدَّ!".

- "لا، بحقِّ الله، أنا لا أتجاوز الحَدَّ!".

لطَمَ الراهب صدغَيْه بكفَّيْه، ومرَّة ثانية، وثالثة ليُهدِّئ من غضبه ويُفرغه، ويُصيب شخصاً ما، ويكبح نفسه؛ ثمَّ خرج من الفناء، ووجهه مغطّى بكَفَّيْه مُتمتماً بكلمات غير مفهومة، وربَّما منتحباً، واتَّجه إلى اليسار.

لم يتبعْهُ السَّيِّد ألفيو.

الفصل الثامن

"يجب أن يثير هذا القلقُ الخوفَ فقط وقت المغامرة، عندما تتعذَّب أنفسنا بقوَّة بين الرغبة والاحترام".

مونتاين

"لأنه كان يتوسَّل إليَّ لأساعده على إيجاد بعض السلوى لألمه، كنتُ أُوكله لعناية ممثِّلة صغيرة محنَّكة: لكنني أعتقد أنها لم تنجحْ في الأخذ بيده".

چيد

لم يجرؤ العجوز مانيانو على أن يُحدِّث السَّيِّدة روزاريا بحواره مع الراهب.

كان يقضي نهاره في حجرة الصالون متطلِّعاً إلى زوجته التي ترتق الثياب، وكلَّما توقَّفت عن العمل، لتُجفِّف عدسات الرؤية التي يُعتمها البكاء بشدَّة، كان يرفع راحَتَيْه في الهواء، ويضرب بهما بقوَّة على ركبَتَيْه.

- "سيُقضى عليَّ!" - كان يردِّد - "كلَّما فكَّرتُ فيه، بدا لي غير حقيقي! ... لكنْ، كيف يمكن أن يحدث؟ كيف حدث؟ ... ماذا يعني؟... ما الذي انتواه؟ ... لماذا؟ ... لماذا ... أتحدَّث معكَ؟" كان يضيف بصوت أكثر سكينة.

كانت السَّيِّدة ترفع كتفَيْها دون أن تُحرِّك عينَيْها عمَّا ترتقه من ثياب.

- "لنكن منصفين، يجب أن أتحدَّث أنا الأب إليه! لكنْ، كيف ذلك؟ أُفضِّل التَّحدُّث إلى الله ذاته أكثر من ابني! ألهذا الحَدِّ وصلتُ؟".

لكنْ، نحو نهاية شهر يونيو، وصل إلى كتانيا، بعد غياب عشرين عاماً، شقيق السَّيِّدة روزاريا، إرمينجيلدو فاسانارو. كان عائداً من خارج البلاد عجوزاً، منهَكاً، هزيلاً. كان الجِلْد الخاوي يتدلَّى مترهِّلاً من الأنحاء جميعها غير متَّصل بالجسد تقريباً. ولطالما اتَّسمت أسنانه بالطول، فكان يظهر قليل من اللون الأبيض دوماً للعيان حتَّى عندما يُغلق فمه، لكنْ، إذا اعتبر ذلك نقيصة في الرجل اللطيف الذي منحتْهُ الطبيعة ابتسامة لا تُقاوَم تظلُّ عالقة ببروز أسنانه، فإن تلك الأسنان المجرَّدة من اللحم والمصفرَّة تبدو، الآن، ضخمة كأسنان جواد عجوز، وهناك، حيث كانت تلمع في الماضي ابتسامة مخاتلة، ظهرت فتحات عديدة بينها تتسلَّل إليها، في نهاية كل وجبة، قطع صغيرة من الخضراوات والفاكهة. أين انتهى البطن الجميل والصدر النضر والوجه الأملس الصافي؟ وبينما يسير في شارع إتنا، بخطى، يحاول أن يحافظ على سرعتها، كان يقول له الناس: "أنتَ تعصف الهواء عندما تمرُّ، يا سيِّد دون جيلدو!"، اضطرَّ للتَّوقُّف مرَّات عدَّة في منتصف الرصيف، كما لو أنه قد رأى الطريق ينتهي بَغْتة أمام جدار، أو أن حيواناً ينقضُّ عليه؛ وعندئذ كانت تلك العصا العاجية ذات المقبض الفضِّيِّ، المُسندة على الفور إلى جانبه - والتي كانت، في عام 1918، تدور بنعومة في يده اليمنى متنقِّلة بين إصبع وآخر - تميل لأقصى درجة، مجاهدةً لحمله.

وفي المقاهي القديمة، حيث كان يدخل خلسة؛ لأن حلوى الريكوتا - ويا للمسكين - تروق له كثيراً، أثار على الفور انتباه المرأة التي تقدِّم الخدمة على الطرف الآخر من طاولة البار. كانت تلك المرأة الحاذقة تتطلَّع إليه، وتتفحَّصه في بلاهة، ثمَّ قدحت شرارة العبقرية! ... فغرت المرأة فمها حتَّى لامس ذقنُها صدرَها تقريباً، وأخذت في هزِّ رأسها. وفي النهاية غامرت بالسؤال: - "لكنْ، لتغفر لي، ألستَ الفارس فاسانارو؟".

- "أجل" - أجاب مبتسماً، والكريما معلقة بين شَفَتَيْه، وبهيئة مَنْ يسأل إذا ما كان الانطباع الذي صدر عنه سيئاً بشدَّة، ويعتذر عنه.

- "ألستَ الفارس فاسانارو؟" عادت السَّيِّدة تسأل.

- "أجل" عاد السَّيِّد إجابته بخجل.

- "أنتَ! بحقِّ الأب والابن والروح القُدُس!" - رسمت السَّيِّدة الصليب ثلاث مرَّات - "أوه. ليُمجِّد الله، كم هي متقلِّبة الحياة! ... كارميلو!" - نادت - "كارميلو، هلمَّ، لترَ كيف هو الفارس فاسانارو! هلُمَّ، كارميلو، وأخبرني إن لم يكن القدر، في بعض الأحيان، متقلِّباً؟".

جفَّف الفارس فاسانارو فمه بعجلة شديدة، وخرج قبل أن ينتهيَ صاحب المطعم من غسل يَدَيْه، كي يُهرَعَ لتفحُّصه.

فقط الشقيقة روزاريا، والسَّيِّد ألفيو لم يشيرا بشيء إلى تدهور حالته هذه؛ كانا مستغرقَيْن في كارثتهما.

- "أترى، جيلدو" - قالت له على الفور السَّيِّدة روزاريا بعد أن قصَّت عليه معاناتها كلها - "أترى إن تحدَّث معكَ! نحن، المساكين، لا نملك الشجاعة لأن نسأله شيئاً!".

- "سأجنُّ لأدرك حقيقة ما حلَّ به!" كرَّر السَّيِّد ألفيو.

- أضافت السَّيِّدة روزاريا ملتفتة إلى الأخ: "كانت تجمعكَ مع أنطونيو ألفة على الدوام. لترى إن كان بإمكانكَ أن تقدم لنا هذه المعجزة، عزيزي جيلدو! أنسألكَ الكثير؟ نريد أن نعرف حقيقة ما حدث له، وماذا يريد أن يفعل. هكذا تطمئنُّ قلوبنا، ولا نعاود الحديث عن ذلك أبداً!".

- "لا تعاودي أنتِ الحديث عنه مرَّة أخرى!" - هتف السَّيِّد ألفيو - "أمَّا أنا، لا! طالما بي نَفَس يتردَّد، سأتحدَّث! يجب أن أبثَّ الذعر في نفوسهم، هؤلاء هناك! يجب أن أجعلهم يسيرون وهم يتوجَّسون منِّي، الحمقى الكريهون! يجب أن يتعلَّموا كيف هو ألفيو مانيانو! وكلَّما

رأوا ألفيو مانيانو، يجب أن يُغيِّروا طريقهم! لن أتزحزح في الصباح من أمام قصرهم القبيح، وعندما يوشك أحدهم على الخروج، سأصرخ فيه بصوت جَهْوَرِيٍّ: اذهبْ، لتنام مجدَّداً، أيُّها التعس الخائن، هكذا لن تؤذيَ أحداً غيركَ! اذهبْ، لتنام فوراً بقَدَمَيْكَ، وإلَّا حملتُكَ على ذلك بنفسي! اذهبْ، لتنام، يا خادم أمراء برونتي، يا مَنْ بعثَ لهم ابنتكَ!".

- "أنا أعرف أمراء برونتي هؤلاء" - قال إرمينجيلدو ضامّاً صدغَيْه، ليحملهما على التثاؤب - "منذُ كنتُ طفلاً؛ لأنني كنتُ أسكن مع أبي وأُمِّي في أحد أجنحة قصرهم، وأنتِ أيضاً، يا روزاريا، لا بدَّ أنكِ تتذكَّرينهم!".

- "لا، لقد وُلدتُ في المنزل الجديد!".

- "آه، حقّاً، أجل ..." - انزلق إرمينجيلدو في الذكريات بالسرعة التي يسقط بها المنوّم مغناطيسياً في النوم - "يا الله، كم من الذكريات! ..." هتف. "في المنزل الجديد، قلتِ؟".

- "لا تَشْطِطْ في الحديث!" - قاطعه السَّيِّد ألفيو - "ادخلْ في صلب الموضوع!".

- " هذا هو صلبه، إنهم أثرياء، أثرياء للغاية، لا يعرفون أين يُنفقون أموالهم. أو تعلم لماذا؟".

- "لأنهم أولاد كلب" - قال السَّيِّد ألفيو - "وأولاد الكلب محظوظون".

- "لا يقسمون ثروتهم أبداً منذُ ثلاثمئة عام. وعندما يكثر الأبناء، يتزوَّج الابن الأكبر فقط، وإذا لم يستطع إنجاب وريث، يعمل الأقارب في صمت تامٍّ على أن تنتقل الزوجة إلى البندقية الثانية ... هكذا يدعونها".

- "ماذا تعني بالبندقية الثانية؟" سألت السَّيِّدة روزاريا.

- "ماذا يفعل القنَّاص عندما تخيب الطلقة الأولى؟ يُطلق بالبندقية الثانية. هكذا حال الأميرة، عندما لا تُنجب من الزوج، تنال الطلقة الثانية من صهرها".

- "أوه، ليُخلِّصنا الله، ويُحرِّرنا!" - علَّقت السَّيِّدة روزاريا - "ثمَّ يمتلكون جرأة أن يُقرِّبوا أفواههم من القربان المقدَّس؟".

- "يمتلكونها" - تابع إرمينجيلدو - "لأنهم يعتقدون أن لحم الشقيق لا يعتبر خيانة ... ولربَّما كانوا مُحقِّين، مَنْ يدري؟ ... كاد الابن الثاني في وقت من الأوقات يصير راهباً، ومنذ فترة وإلى الآن هوعازب ... عندما كنتُ طفلاً، كنتُ لا أتزحزح من الشرفة لساعات وساعات ووجهي بين أعمدة السياج ..." - توقَّف - "يا الله، كم من الذكريات! ... كان وجهي صغيراً لدرجة أنه يمكن أن يمرَّ بين أعمدة سياج؟ ...".

- "دعكَ من هذه التُّرَّهَات" - تأوَّه السَّيِّد ألفيو - "أكمل! كنتَ تنتظر لساعات وساعات؟".

- "كنتُ أنتظر أن يخرج شقيق الأمير، الدوق الصغير".

- "مع أُمِّه؟" سأل السَّيِّد ألفيو بجفاف.

- "أيّ أُمٍّ! كان في الخمسين من عمره. وكانوا يُلقِّبونه بالدوق الصغير؛ لأنه الابن الأصغر. كان يرتدي السواد دوماً، بياقة مُنشَّاة، وربطة عنق بارزة، ومشبك من الجواهر على ربطة العنق، وعصا من البامبو أسفل إبطه بين الحين والآخر، وفي جيب السترة الصغير، كان يحمل بيضَتَيْن، بدلاً من المنديل. كنتُ أراهما من أعلى، يطلَّان من الثوب الأسود ككُرَتَي بلياردو".

- "ولماذا كان يحمل بيضَتَيْن، ذلك المعتوه الملعون؟" - هتف السَّيِّد ألفيو - "أيّ هَوَس ذلك؟ ماذا كان يظنُّ ذلك الخَرِفُ، أن بمقدوره أن يحمل بيضَتَيْن في الجيب الصغير، ويُظهِرهما للعيان فقط، لأنه دوق برونتي؟".

- "بل، لم يكن يريد إظهارهما للعيان، وكان يحملهما في الجيب الصغير، ليقيَهما الصدمات".

- "وإذنْ؟ بإيجاز، ماذا كانتا تعنيان؟".

- "كانتا تعنيان - وقد أدركتُ هذا فيما بعد - أنه يتوجَّه إلى عشيقته، وهي امرأة تُدعى كونشيتا، أرملة أحد الحمَّالين ... وكان بخيلاً كيهودي".

- "أسوأ" - هتف السَّيِّد ألفيو، بالرغم من أنه لم يكن على أدنى معرفة بذلك الدوق - "ماذا تقول، يهودي؟! أسوأ كثيراً!".

- "إجمالاً، كان بخيلاً. واختار امرأة فقيرة عشيقة له، وكان يهديها بيضَتَيْن في كل مرَّة يقوم فيها معها بما لم تكن الأميرة تريد فعله بعد أن أنجبت ابنَيْن، وهما الأمير والدوق الحاليان".

- "ومحرِّر العقود بوليزي" - صاح السَّيِّد ألفيو - "يحرث في الماء بنَزْع ابنته من أنطونيو، وإعطائها هؤلاء الحقراء!".

- "إن الأميرة عنيدة كأحد البغال" - قال إرمينجيلدو - "لم يستطع أحد أن يفعل معها شيئاً: لا القصبة الأولى، ولا الثانية. يبدو أنها عاقر! ... لهذا أَذِنَ الأقارب للابن الثاني بالزواج، والإنجاب أيضاً".

- "أيجب أن يُنجِبَ ذلك الخنزير؟" - صاح السَّيِّد ألفيو - "لقد أخبروني أنه عندما يذهب إلى أحد المنازل، يوصدون الباب ولا يدعون أحداً يدخل، لأنه يُصابُ بأزمة تنفُّس، ويسمعونه يشهق من جنبات الحجرات جميعها، وأيضاً من درجات السُّلَّم ...".

- "وأنتَ، يا ألفيو" - قالت السَّيِّدة بمرارة - " لقد عاقبكَ الله بسبب لسانكَ هذا، حتَّى إن الجميع بالنسبة إليك لديهم نقائص! ويُلصقون السمعة السَّيِّئة بابننا الآن!".

- "أيّ سمعة سيِّئة - صاح السَّيِّد ألفيو ثائراً - "أيّ سمعة سيِّئة؟ أتفعلين مثلهم أنتِ أيضاً؟ إن بمقدور ابني أن يثقب الصخر! ... جيلدو" - ثمَّ قال بصوت متوسِّل - "جيلدو، غداً، بعد الغداء، سنخرج أنا وهذه من المنزل، وتظلُّ أنتَ بمفردكَ معه ... جيلدو، ستكون لي رسولاً من الله على الأرض، إذا نجحتَ في أن تفتح ذلك الفم الذي لا يتحدَّث أبداً، وجعلته يخبركَ الحقيقة كلها واضحة كما هي!".

- "سأبذل قصارى جهدي" - قال السَّيِّد - "وإن كنتُ بحاجة إلى أن أمكث في المستشفى أكثر من التزامي بأمور أخرى!".

في اليوم التالي، بعد الغداء، خرج العجوزان من المنزل بصحبة الخادمة التي كانت تتقدَّمهما على درجات السُّلَّم المعتمة متمتمة بلا انقطاع: "انتبه، سيادتكَ، فما زالت هناك درجة!".

ظلَّ الخال وابن الأخت بمفردهما.

- "أيُّ ويل جلبتُهُ لنفسي!" - انطلق إرمينجيلدو على الفور. "ألا يكفيني ما بي من ويلات؟ ألا يكفيني ذلك الكلب القابع في أحشائي ينهشها، وصعوبة التَّنفُّس، والذباب الذي أراه في عيني، والشياطين الأخرى كلها التي تستولي عليَّ؟ ... على أيّة حال، لأتشجَّع!".

اقترب من باب حجرة أنطونيو، ولأن مصراع الباب كان مشرعاً، دفعه بتمهُّل، ومدَّ رأسه.

كان أنطونيو ممدّاً على الفراش، وحالته المعنوية مرتفعة بشكل ظاهر، لأنه سمع أن الأب والأمّ سيخرجان، وسيكون المنزل خاوياً من الأشخاص الذين يعانون لأجله.

أزعجه دخول إرمينجيلدو قليلاً.

- "لقد مكثتُ بالمنزل" - قال الخال على الفور معلِّلاً وجوده تقريباً - "لأن ذلك المُمِلَّ مارارو قد طلب شهراً إجازة من البلدية، وليس لديه ما يفعله في هذه الساعة، فيظلّ مُرابضاً على الرصيف كالديك فوق الحجر، متأهِّباً لتحطيم روح مَنْ يرى من المعارف. كما يتصادف أيضاً أن سكرتير الاتِّحاد سينزل إلى شارع إتنا، مع أولئك المتملِّقين كلهم الذين يلعقون قَدَمَيْه، ويُسمِّمون دمي لرؤيتهم ... سأخرج لاحقاً. أيُزعجكَ أن أرافقكَ قليلاً؟".

- "لا، يا خالي العزيز" - قال أنطونيو - "يمكنكَ البقاء كما تشاء".

- "إذنْ، إنْ أَذِنْتَ لي، سأجلس على هذا المقعد".

أومأ أنطونيو بالإيجاب منكساً رأسه، ومبتسماً بوَهْن.

تناول الخال مجلَّداً ضخماً من فوق الطاولة، وطَفِقَ يتصفَّحه.

- "أَيَسيئُكَ" - قال بعد ذلك معيداً المجلَّد - "أن أُدخِّن البايب؟".

أومأ أنطونيو بالنَّفي رافعاً رأسه، ومبتسماً بوَهْن، ثمَّ أغلق عينَيْه تاركاً نفسه بلا تحفُّظ لاهتمام ذلك السَّيِّد الكيس الذي هرم قبل الأوان، وأحسَّ بارتياح مَنْ يتألَّم، ويشعر إلى جواره بآخر ربَّما يكون أشدّ تألُّماً منه.

- "إن العالَم قبيح!" - قال إرمينجيلدو حادساً أنه كلَّما أبدى سخطه، حاز ثقة أنطونيو - "العالَم قبيح بالفعل! ..." لكنه توقَّف، لأن الآخر ظلَّ مغمضَ العينَيْن.

- "لستُ نائماً"- قال أنطونيو، دون أن يفتح عينَيْه - "أسمعكَ. قُصَّ لي أين كنتَ!".

- "أين كنتُ؟ إيه! لقد كنتُ حيث لم يكن عليَّ أن أكون! كنتُ في إسبانيا، ويا لمصيبتي، وعرفتُ مَنْ هم مُعاصريّ، والناس بشكل عامٍّ ... إنهم في غاية القبح، يا عزيزي أنطونيو، وبقدر محبَّتكَ لوالدتكَ، صدِّقني، هم يثيرون بي الفزع!".

انتظر أن يفتح ابن الأخت عينَيْه، لكنْ، لأن هذا لم يحدث، أشعل البايب المنطفئ مجدَّداً، وتابع:

- "لا تسألني مَنْ مُحِقٌّ، ومَنْ مُخطِئٌ، أو أيّاً من المبادئ سينتصر في المستقبل! فهم يحتفظون بالأفكار في رؤوسهم، ولم أرها، لكنني رأيتُ أنهم على استعداد لذبح وتمزيق وحرق كل مَنْ تقع عليه أيديهم، سواء في هذا الجانب أو في الجانب الآخر، وإذا سقطت ضحية لكرههم، فاستعدّ لإطلاق صرخة ألم، لم تكن تتصوَّر أنها قد تخرج من أحشائكَ قطُّ، أنتَ الإنسان المؤمن!".

توجَّه إلى الشرفة، وفتح المصراعَين، ثمَّ بصق خارجاً، وأغلق المصراعَين، وعاد للجلوس.

- "لا يمكنكَ تخيُّل أيَّ آلام يمكنهم أن يسببوا لجسدكَ! يكفيهم سنتيمتر واحد من جِلْدك ليغرسوا به الجحيم كله!... لا توجد شجاعة كافية، يا ولدي! أنا لستُ رعديداً، لكنني أؤكِّد لكَ أنه لا توجد شجاعة كافية! الحضارة الإنسانية والعدالة الاجتماعية: يا للكلمات الجميلة! كلٌّ منها خير ثمين للبشرية، لكنْ، انظر بعد ذلك لتعبيرات الجثث التي تُترك لتتعفَّن أيّاماً كاملةً في الوحل، أو تلك التي تمرُّ على وجوهها العربات المدرَّعة، لتقضي على أيَّة ملامح لها، وقلْ لي إذا كان خير البشرية يُؤسَّس بهذه الطريقة! لقد كانت بشراً أيضاً هذه الجيف، وبحقِّ الله، لقد قدموا إليها الخير هكذا! ستقول لي إن كل شيء يُعدّ لرجال الغد ... لكنْ، سيفكِّر رجال الغد في المستقبل أيضاً، وسيتطلَّعون هم أيضاً لفعل شيء ما لرجال مستقبلهم، ويذبحون بعضهم، الواحد تلو الآخر، كما يفعل معاصرونا! لا توجد لهذا النوع من الخير نهاية أبداً! ... لا، يا أنطونيو، صدِّقني، البشر مخيفون، وأنا أحلم بهم ليلاً!".

- "لقد أصابكَ انهيار عصبيّ!" - قال أنطونيو بعذوبة - "يجب أن تتناول أدوية منوِّمة حتَّى لا تحلم ليلاً!".

- "ادعُهُ كما تريد! ... لِتَدْعُهُ أيضاً انهياراً عصبياً ... لكنني لم أعد قادراً على النوم بلا أحلام، حتَّى إنني أقترب من الانتحار مع عقار الفيرونال. لم يعد بمقدور عقلي أن يُغلق بشكل جيِّد، كمصراع نافذة قديم، ومفكَّك، يترك الآلاف من خيوط الضوء تمرُّ ... وليته كان الضوء فحسب! ... لكنْ، ضوضاء، وشياطين، وأحاديث... لماذا أردتُ رؤيتهم وجهاً لوجه أولئك الوضعاء؟ بحقِّ الله، مَنْ حملني على هذا؟ كنتُ أريد أن أعرف مَنْ منهم مُحقٌّ، ومَنْ مُخطئٌ، ولم أعرف سوى أن الجميع مُفزِعون! لقد ربحتُ جيِّداً من رحلتي إلى الخارج! مكسب جيِّد فعلاً! تحيَّة! تهاني! ... ولحظِّي الحسن تضخَّم قلبي، واختنقت رئتاي، وكل شيء يُنبِئ بأنكم ستستمعون العام القادم إلى إطلاق أعيرة عيد القدِّيسة أجاتا بدوني".

- "لكنْ، ماذا تقول، يا خالي؟" أنا واثق أنكَ ستكون مَنْ يرافقنا جميعاً إلى القبر!" همس أنطونيو، بعينَيْن مغمضَتَيْن دوماً.

- "لا، لا تنزعْ منّي هذا المتنفَّس الوحيد! كي أنام ليلاً، أحتاج للتفكير بأن الموت يتربَّع على وسادتي. إنه التفكير الوحيد الذي يعطيني قليلاً من الطمأنينة. وأشعر بعيداً عنه باضطراب وفزع وأرق وعَرَق بارد. لا، يا أنطونيو، إنه كذلك فعلاً. لحظِّي الحسن، لن تتمكَّن الثورات من فعل شيء لي في غضون أشهر قليلة، ولا حتَّى الثورات المضادَّة. ستدعني الفاشية والاشتراكية ... آنذاك مطمئنّاً. لتنتصر أولاهما أو الأخرى، فلن يكون بمقدور أحد من أولئك الجبَّارين أن يفعل لي شيئاً نازعاً منِّي الخبز أو الهواء، لن ينجح أحد في أن ينتزع من أحشائي تلك الصرخة التي حاولتُ مراراً، في منزلي، وبمفردي تماماً أمام المرآة، أن أُحكيَ معها، لأُهدِّئ من روعي باكتشافي أنها من القدرات البشرية، حاولتُ، أجل، لكنْ، بلا جدوى، ولذا قدَّرتُ كم يجب أن تكون وحشية تلك المعاناة التي تفرضها بَغْتة هكذا على كائن بشري!".

عاود أنطونيو فتح عينَيْه، مُغرَماً بحنو بذلك الرجل الذي أضفت عليه الرغبة في الموت عذوبة.

- "وأنتَ بالأحرى" - قال الخال - "ما الذي يحدث لكَ؟ ... أو لنكن أكثر صِدْقاً: أعلم ما يحدث لكَ! ألا تعتقد أنني أُدركه؟ ... أعلم جيِّداً ما حدث لكَ! ... هنا يتساءل الجميع: لكنْ، ما الذي حدث؟ لكنْ، كيف؟ لكنْ، لماذا؟ ... على كلٍّ، لا أحتاج الكثير لأحدس كيف سارت الأمور ... ولستُ بحاجة لأن تُخبرَني بذلك! لستُ بالفعل بحاجة لذلك ... هكذا لا تتحدَّث أنتَ! سأتحدَّث أنا ..." - توقَّف إرمينجيلدو ليرى إن كان ابن الأخت قد قرَّر الحديث، لكنْ، لأنه ظلَّ صامتاً، تابع - "سأقول أنا كل شيء ... سأقول كل شيء بالتفصيل. أنصِتْ لي! ... لقد أنهكتَ نفسكَ بشدَّة! أتذكَّركَ في روما بذلك الوجه الهزيل الشبيه بشمعة تحترق. في

منزلكَ كان يكثُر الرائح والغادي كبيت فيه متوفىً ... لكنْ، كان كل مَنْ يأتي لرؤية النعش من النساء، وفي داخله كنتَ أنتَ ممدّاً كميت، أجل، لكنكَ حَيّ، ومستعدّ دائماً للبدء من جديد. كان يبدو على تلكم الفتيات غطرسة شديدة وهنَّ يدخلنَ من بابكَ، فلم تكن تستطيع أن تقول لإحداهنَّ: "كم هو جميل وجهكِ ..." وذات يوم، بينما كنتُ أنزل السُّلَّم، قابلتُ إحداهنَّ تصعد، ولمجرَّد أنني توقَّفتُ لأتطلَّع إليها، دارت من الناحية الأخرى، كما لو أنها قد رأت كومة من المعكرونة المُتقيَّأة. لكنْ، بعد قليل، كانت أنوفهنَّ تُنكس، ويقبعنَ عند قَدَمَيْكَ على أتمّ استعداد لتطأ وجوههنَّ الجميلة ... لقد عرفتَ منهنَّ أكثر ممَّا ينبغي ... كنتَ شارداً على الدوام، عيناكَ معلَّقتان بالنافذة، كما لو أنكَ تفكِّر في أرواح العالَم الآخر ... تتثاءب، تزجرهنَّ حيناً، فيزداد وَلَهُنَّ، ومَنْ يدري أيَّ غُنْج كنَّ يمارسنَهُ عليكَ، أيّ مداعبات، وأيّ تضحيات؟! وهكذا أكْسَبُوكَ عاداتٍ سيِّئةً، أفسدوكَ ... وعندما وجدتَ نفسكَ، ذات يوم، مع زوجة فخورة إلى حَدٍّ ما، متشدِّدة إلى حَدٍّ ما، متحفِّظة إلى حَدٍّ ما، أصابكَ الانزعاج، وأدرتَ لها ظهركَ، وبقيت تخلُد للنوم لثلاثة أعوام، ووجهكَ شطر الجدار مفكِّراً في فتيات روما".

ألقى أنطونيو نظرة خاطفة على وجه الخال، وعاد ليخفض جفنَيْه.

- "والآن أخبرني: هل أدركتَ الحقيقة أم لا؟" - تابع السَّيِّد - "لقد حقدتُ عليكَ، ماذا تظنُّ؟ لقد حقدتُ عليكَ بمرارة عندما كانت النساء تروق لي أنا أيضاً. وكم كنَّ يرقنَ لي! كم كُنَّ يرقنَ لي! ... لكنْ، ذات يوم، أصابني السأم منهنَّ. لقد فكَّرتُ: أيجب عليَّ الاستمرار - بعد سنوات عديدة، حتَّى إنني لم أعد أتذكَّر متى كانت أوَّل مرَّة - للأبد، وبحُمْق، في ملء ثقوب من اللحم بلحم؟ إنه دائماً الشيء ذاته، يا للخيبة! حتَّى وإن ذهبتُ للفراش مع الملكة، إنه الشيء ذاته: يبدأ بالطريقة نفسها، وينتهي بالطريقة نفسها. بخلاف أنني لا أجرؤ الآن حتَّى على الموت ... لكنْ،

إجمالاً، لندع أموري وشأنها، وأخبِرْني بصِدْق: ألم أكشفكَ، وأمحِّصكَ عندما تحدَّثتُ عنكَ منذُ قليل؟".

- "لا" قال أنطونيو.

- "لاااا؟".

- "لا!".

- "إذنْ، لنسمع: ما هي الحقيقة؟".

كان أنطونيو قد جلس على الفراش يفرك يَدَيْه.

- "الحقيقة؟" – قال - "الحقيقة؟ ... أتريد أن تعرف الحقيقة؟".

- "بالتأكيد أريد أن أعرفها!".

- "ثمَّ، ثمَّ؟".

- "ثمَّ لا شيء ... لا تفرك يَدَيْكَ! ... سنرى!".

- "خالي ... خالي ..." - همس أنطونيو وهو ينهض من الفراش، ويتجوَّل شاحباً كميت - "أنتَ لن تُصدِّقها ... لكنْ، أنا ...".

- "لكنْ، أنتَ؟ ...".

- "كان من الأفضل لي ألَّا أُولدَ على الإطلاق!".

- "أنتَ، أتقول هذا، يا أنطونيو؟ ولماذا تقوله؟ اتركني أنا أقوله، فهو يتناسب معي!".

- "ولماذا يتناسب معكَ؟ ألأنكَ رأيتَ أن البشر يملؤهم الشَّرُّ، يَذبحون ويُمزِّقون بعضهم البعض؟ أنا لا أعبأ بقيام البشر بهذا! فهم - بالإضافة إلى ذلك - يقومون بشيء، أنا، أنا، أنا ..." - تعثَّر صوته مجدَّداً مُكرِّراً، كصرخة تزداد قوَّتها، تلك الكلمة التي لم يكن بمقدوره انتزاع نفسه منها - "أنا، أنا ..." - ثمَّ انتهى إلى شهقة، يمكن سماعها بالكاد - "لم أقمْ به قطُّ!".

ارتعد السَّيِّد الكيس كأحد الأعواد. - "لم تقمْ به قطُّ؟" قال، بعد أن

نهض من مقعده، ودنا من أنطونيو الذي يُدير له كتفَيْه، وحاول أن يُديره بشتَّى الطُّرُق شطره، ويرى وجهه الجميل للغاية الذي حقد عليه مراراً بسبب الاضطراب الذي يُثيره في النساء. -"لم تقمْ به قطٌّ؟" كرَّر مرَّة أخرى.
- "أفهمتُ جيِّداً؟ لم تقمْ به قطٌّ؟".

لم يجبْ أنطونيو بشيء وقد جمَّده تشنُّجٌ، لم يستطع الخال أن يُزحزحه بسببه.

- "أنطونيو، أتوسَّل إليكَ: انظرْ في عينَي! أنا خالكَ، يا للخيبة! أنا رجل راشد. لا يمكنكَ أن تخشى عجوزاً مثلي!".

استدار أنطونيو ببطء، وكلَّما ظهر في واجهة الشرفة الصدغ النحيف، والأنف الرطب الخاوي من الدماء، وتجويف العينَيْن الشاحبتَيْن، شعر السَّيِّد بتجمُّد الأمل في قلبه في أن يكون قد أساء الفَهْم، أو أن عبارة مبالغ فيها قد خدعتْهُ.

- "لكنْ، أنطونيو" - سأل - "أشعر بالحَيْرة! أيكون حقّاً ما أخبرتَني به؟".

امتقاع مُحزن استشرى في وجه الشَّابٌ، فأجاب عنه.

- "أبداً؟" - تابع إرمينجيلدو - "أبداً، أبداً؟".

زوى أنطونيو ما بين حاجبَيْه، كما لو أنه يُركِّز ذلك البصر الضعيف المتبعثر في حَدَقَتَيْه المنطفئتَيْن، وقال - "تقريباً أبداً!".

فزع إرمينجيلدو، ولكنه بَغْتة، تشبَّث بقوَّة بذلك الشعاع من الأمل الذي حوتْهُ الكلمتان. - "تقريباً أبداً لا يعني مطلقاً!" - هتف - "تقريباً أبداً هو شيء آخر تماماً!".

لم يفهْ أنطونيو بشيء.

- إيه، تقريباً أبداً" - أكمل الخال بنبرة تزداد حيوية، كما لو أنه يحاول بَثَّ الشجاعة في نفسه - "تقريباً أبداً قد تعني أشياءَ كثيرة! فـ "أبداً" تختلف تماماً عن "تقريباً أبداً"! يجب أن أقرَّ لكَ، أنني أنا أيضاً، في بعض الأحيان

... ولا أقول دوماً، أو حتَّى غالباً ... لكنْ، إجمالاً في بعض الأحيان؟ ... مَنْ يأكل يترك فُتَاتاً، هكذا اعتادوا القول ... مَنْ يمكث على متن الجواد طويلاً يجب أن يُكبَّ على وجهه من حين لآخر".

- "خالي، خالي، خالي!" صاح أنطونيو غاضباً في البداية، ثمَّ يائساً، ثمَّ متوسِّلاً - "كُفَّ عن الحديث، يا خال!".

ران صمت.

- "إذنْ، سأصمت" - عاود إرمينجيلدو الحديث - "لكنْ، تحدَّثْ أنتَ، إذنْ! تحدَّثْ، يا ولدي! تحدَّثْ!".

ران صمت آخر.

لم يستطع أنطونيو الحديث، وأرسل عبر أسنانه المغلقة تنهيدة خفيفة، ومتَّصلة، كما لو أنه قد شهق هواءً كثيراً، ليتمكَّن من إقامة حوار من ألف كلمة بطلاقة، ثمَّ ها هو يُخرِجه الآن خاوياً تماماً، وبدون حرف واحد. احتشد في هذه التنهيدة الهتاف والصراخ والتساؤلات، وحتَّى التَّشنُّجات، لكنْ، كان ذلك كله خامداً، وغير مسموع بالمرَّة.

- "لا، يا عزيزي، لا!" - قال الخال - "يجب أن نتحدَّث بصراحة، وبصِدْق، وبصوت مسموع، ويجب ألَّا نَفقِدَ الوقت؛ لأنه في نحو السابعة سيُصيبني دوار، لا أدري معه الفرق بين السماء والأرض".

- "تقريباً أبداً تعني هذا" - صاح أنطونيو بَغْتة، بكل ما أُوتي من صوت - "أن هذا الشيء، أنا ...".

- "بهدوء!" - قاطعه الخال فزعاً - "بهدوء! يجب ألَّا نُخبر به البلدة كلها!".

- "لتعرفه البلدة أيضاً! لتعرفه البلدة أيضاً!" - صاح أنطونيو مهتاجاً، ومتلوِّياً كَمَنْ يحاول تحطيم القيود التي يُكبَّل بها - "أنا، أنا، أنا ...".

وبعد أن عضَّ يَدَيْه ومعصمه ومَرْفِقه من الداخل، استلقى على ظَهْره على الفراش متنفِّساً بصعوبة من بين أسنانه التي عادت لتُغلَق مرَّة أخرى.

جلس الخال على وسادته، وطَفِقَ يداعبه في جبينه منتظِراً في صمت أن يهدأ.

حلَّ الغروب، وكانت الشرفة تلمع دون أن تتمكَّن من قَهْر ظلام الحجرة، عندما ظنَّ السَّيِّد الكيس أن أنطونيو قد خلد للنوم، أو بالأحرى أُغشي عليه.

عند ذلك الحَدِّ بدأ في الارتفاع صوت هادئ، وخاوٍ تماماً من الإحساس، والنبرات والحرارة البشرية، صوت يبدو وكأنه لا يمتُّ حقّاً لأحد بصلة، صوت ميت متجرِّد، ارتفع من الوسادة التي يضع أنطونيو رأسه عليها بعينَيْن مغمضَتَيْن.

- "تقريباً أبداً، أجل" قال الصوت مكرِّراً ببرود تلك الكلمات التي صرخ بها، وبكاها.

- "حتَّى الثامنة عشرة كنتُ أقوم به في الحلم فقط، ثمَّ، ذات مرَّة، قمتُ به في منتصف منزل في شارع ماديم، وتقيَّأتُ في ذلك المساء. كان الثالث من مايو عام 1924. بعد ذلك لم أقم به قطُّ، ولا حتَّى في الحلم، ولا حتَّى المنتصف؛ لأنني كلَّما سلكتُ ذلك الطريق، أو صادف تفكيري، وهو يتجوَّل بين الذكريات، ذكرى الثالث من مايو، شعرتُ برغبة في التَّقيُّؤ كَمَنْ أصابه دوار البحر. ذات يوم، وجدتُ في أحد المقاهي، على سطح الطاولة الرُّخاميِّ، رسماً لشكلَيْن، يمارسان ذلك الفعل، شحب لوني كثوب بالٍ، واضطررتُ للهَرَع إلى الحوض لغسل جبيني. في الوقت ذاته، كنتُ مغرماً بشدَّة بالنساء كلهنَّ، خاصَّة وجوههنَّ، وأعينهنَّ، وأقدامهنَّ، وفي الليل، عندما كنتُ أخلُد للنوم عند جَدِّي في الطابق الأوَّل، كان يكفيني أن أسمع صوت أيَّ كعب مرتفع يبتعد ببطء، لأتلوَّى بين الأغطية، كمحكوم عليه بالنَّفْي يشعر في الزنزانة التي سُجِن بها بابتعاده عن ميناء مدينته، وأكثر الأُغنيَّات عذوبة".

أغلق الخال عينَيْه، بينما يتلقَّى من ابن أخته ما تلقَّاه ابن الأخت منه منذُ قليل: البوح القوي بألم يختلف عن ألمه.

- "مع النساء" - تابع صوت أنطونيو البارد، كنتُ على هذا الحال: كنتُ لأُلقي بنفسي عند أقدامهنَّ متمرِّغاً على الأرض، وطالباً الرحمة!".

- "لكنْ، يا عزيزي ... أنا لا أُبرِّر" - قال الخال مغامِراً بكلماته في الظلام

- "إذا لم أكن مُخطِئاً، كانت النساء أيضاً مغرماتٍ بكَ!".

- "هذا ما تقولونه أنتُم" - تابع الصوت - "لكنني كنتُ أرى الأمور بطريقة أخرى، كان يبدو لي في عينَي كل فتاة دعوة متهكِّمة تقريباً، وتحدٍّ بأن أقترب منها، وأكون رجلاً. كنَّ يواجهنَني بصدور مفتوحة، وبمظهر ضاحك جسور كمَنْ يقترب من عدوٍّ يُصوِّب نحوه غدَّارة فارغة ... ربَّما كنتُ مُخطِئاً!".

- "أنتَ مُخطِئ بدون شكٍّ!" هتف الخال رغبة في مقاطعة ذلك الصوت البارد للغاية والمُملّ أكثر من رغبته بَثَّ الراحة فيه.

- "في روما، في عام 1930، حدثت لي واقعة مثيرة. في ليلة وصولي ذاتها، وبعد أن تناولتُ عشائي، وشربتُ أكثر من المعتاد، توجَّهتُ إلى أحد المنازل، وقبل أن ينال منِّي الخوف أو الغثيان نجحتُ في أن أصير رجلاً!".

- "آه، حقّاً؟ آه، جيِّد، حسناً، بحقِّ الله!".

- "كان الأمر يبدو لي عسير التصديق، وخرجتُ مترنِّحاً من السعادة ومقبلاً الجدران والأبواب المصطفَّة كلها بين الموقع الذي كنت فيه وشعرت بالانتصار، وميدان سان سيلفيسترو ... وفي الليل حلمتُ بأنني أكرِّر ما فعلتُهُ، وصرختُ بقوَّة حتَّى إن مالكة البنسيون هُرِعَتْ إليَّ بملابس النوم. فطنتُ وقتها إلى أن الابتسامة التي ترمقني بها النساء، والتي كنتُ أظنُّها ساخرة ومتحدِّية، تُومِئ إلى هوى صادق للغاية. وسرعان ما اتَّضح لي أن ذلك التعبير، الذي بدا على وجه السَّيِّدة، منذُ اثنَتَي عشرة ساعة، متَّسماً بفضول شرِّير وسخرية، هو انعكاس لرغبة - وُلِدَتْ في اللحظة ذاتها التي عرفتْني فيها - في أن تراني في وضع حميمي أكثر. أدركتُ ذلك من احمرار الرضا الذي غمر وجنَتَيْها، بمجرَّد أن ولجتْ حجرتي، ومن السرعة التي هُرِعَت بها، وكأن الرغبة في إتمام ذلك الفعل، قد وضعتها في حال

إتمامه سريعاً ... لن أقول لكَ إنني كنتُ في تلك الليلة شديد الجسارة. كنتُ قد امتلأتُ، وكان عليَّ أن أنتظر ستَّةَ أيَّام، لأشعر بانتهاء حالة الامتلاء. بعد ذلك، استطعتُ إسعاد مالكة البنسيون ونفسي، وتظاهرتُ في اليوم التالي بالمرض، لأنني لم أكن أعرف كيف أُبرِّر انقطاع علاقتنا. كانت تلك الفترة هي الأوفر حظّاً في حياتي. كنتُ أبلغ الرابعة والعشرين، والنساء يُغرمنَ بي من أعماقهنَّ، وكان بمقدوري، كل سبعة أيَّام، أن أجعل إحداهنَّ تُجنُّ من السعادة. وفي اليوم التالي، سرعان ما تبدأ الأكاذيب، والذرائع؛ لأنني كنتُ أتجنَّب العودة إليها بأيِّ ثمن ... وكم من المرَّات توجَّهتُ إلى نابولي، وانتظرتُ، في أحد الفنادق المطلَّة على البحر، بينما تعذِّبني موسيقى الماندولين، وأصوات القُبل التي تخترق الجدران إلى سمعي، أن تَكثَّف الرغبة المبعثرة في جسدي في المكان الذي خُلقَ لها، حتَّى إنني كنتُ أنضحها من يدي كلَّما ضممتُ إليَّ امرأة ما ... كتبتُ هذه الأشياء التي لم أُخبر بها أحداً قطُّ، وأعدتُ كتابتها مئات المرَّات على أوراق، أحرقتُها بعد ذلك، وأحفظها الآن عن ظَهْر قلب! وأعترف لكَ أنني عندما كنتُ أفكِّر في شخص، يمكنني الوثوق به، كنتَ أنتَ هذا الشخص!".

شدَّ الخال على يده في صمت.

- "كنتُ سعيداً في ذلك العام" - أكمل الصوت - "بل كنتُ حتَّى فخوراً ومُستخِفّاً. كل سبعة أيَّام، ليكنْ إذنْ! ... لكنني كنتُ أبدو كثور. من جانب آخر، كان هذا الإحساس، بالرغم من ندرته، عنيفاً حتَّى إنني في اليوم السابق لامتلاكي له، كنتُ أدخل في حالة من الإثارة لا يشعر بها الآخرون، وهم يجرِّدون امرأة معشوقة من ملابسها لأوَّل مرَّة، وكان يسري بعد ذلك، ولمدَّة يومَيْن، في دمي مذاق العسل، وأيّ شيء بالغ الحيوية كنتُ أراه، أو ألمسه، أو أشعر به، كان يتَّسم بعذوبة قادرة على أن تُفقدِني الوعي. أوه، كم كانت الحياة جميلة! كم كانت جميلة!".

ران صمت، لم يجرؤ إرمينجيلدو على مقاطعته.

- "في مايو" - أكمل الصوت - "رأيتُ في أحد مقاهي فيلاً بورجيزي فتاة ألمانية، تجلس إلى جوار خطيبها الشَّابِّ، وهو ضابط نمساوي. كان كلٌّ منهما خارق الجمال حتَّى إن الأزواج المحيطين بهما كلهم كانوا يبدون غاية في التعاسة والكآبة، ولم يكن أحد من الرجال أو النساء الجالسين معاً يجرؤ على القيام بمداعبة، أو ضمَّة يد، كما لو أنهم يدخلون هكذا في تنافس مُدَّعٍ، وسخيف مع الأجنبيَّيْن الساحرَيْن ...".

- "لكنْ، أنتَ" - قال الخال - " لستَ قليل الشأن في الجمال!".

- "أجل، أنا ... حسناً. لكنْ، إن رأيتَ ذلك الضابط النّمساويّ، كانت لتسري رجفة في جسدكَ!".

- "في الحقيقة، لا أتطلَّع إلى الرجال مباشرة أبداً! لكنْ، دَعْنا من هذا! قُصَّ! كيف كانت هي؟".

- "طويلة، وذات شَعْر وردي ...".

- "وردي، كيف؟".

- "ربَّما كان سيبدو مائلاً للاحمرار مع أخرى، لكنْ، معها هي كان جميلاً للغاية حتَّى إنه يبدو وردياً. عيناها زرقاوان، لكنْ، كانت نظرتها تبدو وكأن مسحوق تجميل خفيفاً للغاية - تكاد تشمُّ عطره - يُضفي عليها لوناً شاحباً ...".

- "أيّ شيء تقول؟" همس إرمينجيلدو مُصرّاً أسنانه.

- "النهد قوي، والساقان طويلتان، ورائعتان بركبتَيْن تلوحان من أسفل أيِّ ثوب، كما لو أنهما تبرقان! لا بدَّ أن البطن كان لامعاً أيضاً، وبدت لي تلك الانفراجة بين السَّاقَيْن التي دفعتْني، في أوقات أخرى، للتَّقَيُّؤ، برَّاقة ككنز ثمين!".

سرت رعدة في ظَهْر الخال.

- "أتريد أن ترى" - فكّر - "إنني عجوز كما أنا، لكنْ، فقط لسماعكَ تتحدَّث عنها ...؟ وهذا الفتى المنكوب إذنْ ... ؟".

- "كنتُ أتوجَّه كل عصر، بشكل لا إرادي، إلى مقهى فالادير، وأجد فيه الزوج الألماني دوماً. كنتُ أتظاهر بالتَّطلُّع إلى روما التي تميد تحت قَدَمَيّ، لكنْ،كانت كتفاي ترياتها، كما تراها الشعيرات على عنقي، وأشعر بقلبي ملتفتاً للخلف، حتَّى إن ذلك المشهد الممتدّ كله أمام ناظري كان يُشعِرني بألم، كما لو أنه يمتدُّ أمام ناظري أحد الموتى ... بعد خمسة عشر يوماً، وجدتُ الفتاة الألمانية بمفردها، غائصة قليلاً في المقعد الباص، ويداها في جيبَي السترة، والعدسات الشَّمسيَّة الزرقاء تغطِّي عينَيْها، والساقان مكشوفتان سنتيمتراً أكثر من المعتاد. جرؤت على التَّطلُّع إليها، غير أنني شعرتُ بالخجل، لأن الخطيب، الذي كان غائباً آنذاك، بدا لي كأحد الآلهة، وأنه يُسدل عليها ذلك الظِّلّ أزرق اللون، الذي يغمر المقعد الشاغر إلى جوارها، من السماء ...".

- "يا للمبالغة!" - هتف إرمينجيلدو، وكرَّر بإصرار - "أنتَ لستَ قليل الشأن فيما يخصُّ الجمال، بحقِّ الله!".

- "أنتَ تُكرِّر دوماً الموال نفسه! كان بمقدور خطيب تلك الفتاة أن يدير رأس قدِّيسة ترقد في النعش والموكب يسير خلفها!".

- "حسناً، ليكن! ..." - قال إرمينجيلدو، وقد استولت عليه تلك الكراهية القديمة للرجال كلهم الذين يمكنهم إزعاجه - "أتطلَّعتَ إليها، إذنْ ... ؟".

- "تطلَّعتُ إليها".

- "وهي إذنْ؟ أتطلَّعتْ إليكَ؟".

- "بل فعلت ما هو أكثر، لقد توجَّهتْ لي بالحديث!".

- "تب ...!" همس الخال من بين أسنانه، وهو يشعر بدَوِيٍّ في صدره مثل ذلك الوقت الذي كانت فيه صحَّته جيِّدة.

- "قالت لي: "اغفرْ لي، يا سيِّدي، هل أنتَ معتاد الحضور إلى هنا؟

..." - "أجل" - أجبتُ، وأنا لا أُصدِّق أُذُنيَ. لكنْ، هل يمكن، بحقِّ المسيح - كنتُ أفكِّر - أن تهتمَّ هذه الفتاة لأمري حقّاً حتَّى إنها تبدأ بالحديث إليَّ، مع وجود ذلك الخطيب الذي يجب أن تُشعلَ أمامه الشموع ليل نهار؟".

- "دَعْكَ من هذا! دَعْكَ من هذا! لندخل في صلب الموضوع!".

- "كانت تُدعى إنجيبورج، وفي المنزل يدعونها إنج، ولأنها كانت تقيم في باريس، فقد كان الأصدقاء الباريسيون ينطقونه أنجي... لذا دعوتُها أنا أنجلو(*)!".

- "يا للمبالغة!" قال إرمينجيلدو بينه وبين نفسه هذه المرَّة.

- "عاد الخطيب إلى فيينا، وكانت تقرأ خطاباته الطويلة بالقرب منِّي، ويكتسي وجهها باللون الأحمر، كما لو أن أحداً يُقبِّلها تحت ناظري. -"أخبار جيِّدة؟" - كنتُ أسألها. وكانت هي تبتسم شيئاً فشيئاً، وتضع الخطاب في جيبها. كنتُ أودُّ التَّحدُّث إليها دوماً عن خطيبها، وقد استولت عليَّ صورة ذلك الرجل، لكنها كانت تُغيِّر الموضوع دوماً ...".

- "لكنْ، إجمالاً" - قاطعه الخال - "ألم تحاولْ أنْ تُدبِّر أمراً ما؟".

- "لا، غير أنني، كما أخبرتُكَ، كنتُ أشعر بنفسي ممتلئاً، ومتوحشاً ككبش. كنتُ أُقضي ما بعد الظهيرة كل ثلاثة أيَّام مع إحدى الفتيات التي هجرتُها من قبل بوقار، والتي كانت تصاب بنوبة هستيرية حقيقية لرؤية رأسي بشكل غير متوقَّع يتوسَّط وسادتها ... لا أعرف إن كنتَ قد لاحظتَ أنني قلتُ "كل ثلاثة أيَّام". في الحقيقة، كانت هذه المعجزة قد وقعت لي: لم أكن بحاجة للانتظار سبعة أيَّام لأشعر بنضوج أزكى ثماري! كانت سعادتي بريئة حتَّى إنني أرجعتُ هذه المعجزة إلى إقامتي في المدينة التي يقطنها البابا، وذات يوم توجَّهتُ مع إنج إلى إحدى جلسات الاستماع العامَّة في قصر الفاتيكان، وبينما نحن راكعون أمام الحبر الأعظم، وإنج تسأله أن

*) كلمة إيطالية تعني "ملاك".

يدعو السماء كي يسود الوئام بينها وبين خطيبها، شكرتُ بداخلي مبعوثَ الله على الخير الذي نلتُهُ في مدينته ... ثمَّ تذكَّرتُ كلمات إنج، بينما نخرج من القصر. -"لكنْ، كيف؟" - قلتُ لها، - "ألا يسود بينكما الوئام؟" - "أوه، أجل" - أجابت: "إننا نتَّفق في كل شيء، تروق لنا كل الكُتُب، والموسيقى، واللوحات، والطُّرُق، والزهور، إنه طيِّب، ومهذَّب، ووسيم بشدَّة ...". وهنا قرأتُ على شَفَتَيْها كلمة "لكن" سوداء كالقبر! ...".

- "لكنْ، أذهبتَ معها للفراش أم لا؟ صاح الخال نافد الصبر.

- "ذات مساء بينما نجلس داخل العربة" - أكمل الصوت بارداً ورابطَ الجأش، كما لو كان آليّاً - "ولم أكن أرى وجهها، ولأنني لا أرى وجهها، فلم أرَ وجه خطيبها، الذي بدا لي دوماً إلى جوارها ...".

- "لكم تُسهب في ذلك!" فكَّر الخال.

- "قبَّلتُها بقوَّة، وبالرغم من أنني قضيتُ ما بعد الظهيرة، في اليوم السابق، مع إحدى الفتيات، إلَّا أنني شعرتُ مجدَّداً بذلك العسل كله بداخلي يتكثَّف بقوَّة في المكان الذي يحلو لي أن أشعر به فيه ... لم أقلْ شيئاً، لكنني أطلقتُ صرخة في داخلي، لا بدَّ أنها قد بلغت في السماء أولئك القدِّيسين كلهم الذين ترفَّقوا بي أخيراً! ... بعد أسبوع كان علينا أن نذهب للمسرح، لكنْ، ما إن وصلتُ في الموعد، أدركتُ، من الطريقة التي كانت إنج تمدُّ لي يدها بها، أنها قد قرَّرت أن تهبَني نفسها في تلك الليلة ذاتها. وفي دار الأوبرا، كان مُغنُّو التينور والسوبرانو ينشدون دون جوفانني، بينما أفكِّر: لكنْ، ذلك الخطيب؟... كيف يمكنها خيانته؟ كيف جُبل عقل النساء؟ إنهنَّ حمقاوات، بالفعل حمقاوات! ... وبعد أن خرجْنا من المسرح، وبلغْنا باب منزلها، فطنتُ إلى أنني قد أدركتُ كل شيء حتَّى إنها أبدت اندهاشها من لحظة التَّردُّد التي انتابتْني قبل أن أعبر المدخل، وأصعد درجات السُّلَّم معها. بعد قليل ... ".

- "لا، لا تتجاوزْ! قُصَّ كل شيء بالترتيب! في أيِّ حجرة أدْخَلَتْكَ؟".

- "في حجرة نومها".

- "كيف، هكذا، مباشرة؟".

- "أجل ، واستلقيتُ على ظَهْري مرهَقاً وسعيداً. أمَّا هي، فقد ذهبت إلى الحمَّام، وعادت بعد بُرْهَة في رداء منزلي، ووجه تغطِّيه الدموع".

- "لا تُصدِّق هذه الدموع!" - صاح الخال كما لو كان حاضراً المشهد كجمهور ثائر يُشجِّع بطله - "لا تلقِ لهنَّ بالاً، لا تُصدِّق هذه الدموع!".

- "جلستْ على حافَّة الفراش، وقصَّت عليَّ سيرتها ... تنتمي إلى عائلة ألمانية عريقة، وذهبت إلى باريس للدراسة. وقعت هناك في غرام مهندس معماري إسباني، عرفت منه - وقد استولت عليها البهجة، وأدهشتْها - ذلك الشيء الذي لم يحظَ قبل ذلك بأيِّ فضول منها. كان المهندس المعماري ضئيل الحجم، ودميماً، لكنه أحرقها بالنار التي تسري في دمه ...".

- "قطعاً!" - هتف الخال - "إنه إسباني، وكأنه صقلي تماماً!".

- "لكنْ، عارضتْ عائلتها الزواج. كان المهندس المعماري أجنبيّاً، واعتبروه منتمياً إلى عِرْق أدنى. اتَّجهت إنج إلى برلين لإقناع أبوَيْها، لكنْ، صمَّ أولئك آذانهم تماماً ...".

- "يا للألمان!".

- "كتب لها المهندس المعماري، الذي أغضبتْهُ كثرة التسويف والمعارضة وجرحت كبرياءه، خطاب وداع وقَّعه بألقاب عائلته النبيلة كلها. عادت إنج إلى باريس، وقد قرَّرت أن تُلقي بنفسها في نهر السين. التقت خلال الرحلة بأحد أصدقاء الطفولة، ذلك الضابط النّمساويّ شديد الوسامة الذي حدَّثْتُكَ عنه، والذي كان يفكِّر هو أيضاً في الانتحار، بسبب بليَّة لم يجرؤ على الحديث عنها، ولا حتَّى عندما تحرَّر كلاهما - بعد أن اجتازا الحدود مع فرنسا - من الضغط الغريب الناتج عن وجودهما في أراض ألمانية، وباحا بآلامهما، وتعانقا. بعد مرور شهر، أعلنا خطبتهما ...".

- "يا للنساء!".

- "هاتفا عائلتها في برلين، وتلقيا كثيراً من التهاني ومن التمنّيات بالسعادة. قرَّرا الزواج، وعندئذ ... أنتَ تعرف كيف هنَّ نساء الشمال ...".

- "إيه، قليلاً!".

- "عندما كان عليهما أن يصيرا زوجين، ذهبا للنوم في الفراش ذاته ...".

توقَّف أنطونيو.

- "حسناً، ذهبا للنوم في الفراش ذاته؟ ..." سأل الخال.

- "وهنا...".

- "وهنا؟".

- "هو ...".

- "هو؟".

- "لا شيء!".

- "كيف، لا شيء؟".

- "هكذا ... لا شيء!".

- "بحقِّ الله، ذلك الشَّابُّ الطويل القوي؟".

- "أجل، ذلك الشَّابُّ الطويل القوي!".

- " لكنْ، هل أعادا المحاولة؟".

- "أجل".

- "حسناً؟".

- "لا شيء!".

- "لا شيء أيضاً!".

- "دوماً!".

- "بحقِّ الله، بحقِّ الله!".

"باحت إنج لوالدتها التي أخبرتْها بأنها يجب ألّا تُلقي بالاً لذلك، وأنه ما زال عليهما أن يتزوَّجا، ثمَّ مع الوقت ... لكنْ، استولى الخوف على إنج من أن يكون الذنب ذنبها، إنها ليست جيّدة على الإطلاق، وعليها أن تتصرَّف بطريقة ... عند سماعي هذه الكلمات، متعالياً وسخيفاً كما كنتُ في تلك الأيّام، انفجرتُ في الضحك. أنتِ؟ قلتُ، وماذا تريدين أن تفعلي؟ ولماذا يجب عليكِ؟ فتاة جميلة مثلكِ؟ ... يجب ألّا تفعلي شيئاً! أنتِ تفعلين الكثير عندما يعلو صوت تنُّورتكِ! ... ضمَّتني إنج إلى صدرها وعنقها، تعبيراً عن البهجة والامتنان. كانت كلماتي تمثِّل لها بوضوح أقصى الأحلام سعادة وخيالية. وعندما عاودت الحديث، باحتْ لي بأن هذا هو سبب بكائها مراراً، والذي لم أكن أفهمه، هذه هي الكارثة التي فكَّر الضابط النّمساويّ في الانتحار لأجلها في رحلته إلى باريس، هذا هو عدم الانسجام الذي توسَّلت إلى بيو الحادي عشر ليُصلحه ... لم نقل شيئاً بعد ذلك، وتعانقْنا بعد أن انطفأ المصباح. بعد قليل، كان قد أُغشي عليها من السعادة تقريباً، وهي تتفتّح شيئاً فشيئاً كزهرة تحت الشمس، وكنتُ، في انطلاقي لسعادة تفوق سعادتها، أُحذِّر نفسي داخلياً من إطفاء الصرخة التي أشعر بها في حلقي، والتي سأُطلقها بعد بُرْهَة، عندما ...".

توقَّف. لم يفه الخال بشيء شاعراً بعينه اليمنى تنتفض كذبابة سقطت في شِبَاك عنكبوت.

- "عندما" تابع أنطونيو، وتوقَّف مجدَّداً.

- "عندما" - عاود مرَّة ثانية - "تسلَّل إلى جسدي فزع بارد، ومباغِت، وبالأخصِّ من ذلك الجزء الذي، إن كان عليَّ الموت نتيجة إصابتي بتجمُّد وشَلَل، كنتُ أرجو ألا يصل إليه ذلك إلا في النهاية!".

صمت.

أخذ الخال شهيقاً طويلاً وقويّاً، في تأوُّه حزين للشُّعَب الهوائية، لكنْ، عند إخراجِه، فتح فمه، وزفر في صمت.

- "كانت لا تزال مستلقية، وفمها لأعلى وعيناها مغمضتان، وانزلقتُ أنا، وقد جمَّدني الخجل، لأسفل، إلى جوارها، ساحقاً شَفَتَيَّ المرتجفَتَيْن في الوسادة. كانت النهاية، الموت بالنسبة إليَّ! لم يكن الدم الذي عادة ما يتركَّز بحرارة، وبلذة قوية في تلك النقطة من جسدي، قد هرب منها فحسب، بل بدا وكأنه قد تلاشى من عروقي كلها، وجفَّفتْهُ رياح باردة، كنت أشعر بها آنذاك تتدفَّق بدلاً منه. بدا لي بوضوح أنه إذا كان من المقرَّر أن يعود الدم إلى عروقي، فقد أُقصي من تلك النقطة إلى الأبد، فعندها تبدأ تقريباً أرض تخصُّ كائناً آخر، ولم يكن بمقدور أفكاري، ورغباتي، ونزواتي أن تتخلَّلها على الإطلاق. بهذا اليقين في قلبي، والذي تأكَّد خلال ساعَتَيْن من الصمت إلى جوار تلك المرأة الساكنة تماماً، كما لو أنها قد سُحقت تحت ثقل خجلي وخجلها مجتمعَيْن، ساعتين من الصمت ذهبت خلالهما جهودي كلها لإعادتي إلى وضع الرجل السعيد أدراج الرياح تاركةً داخلي شعوراً بعجز أكبر عن ذلك النوع من السعادة، وأن اللحظات القليلة التي نلتُها في الماضي غير حقيقية وغير معقولة، ساعتين بدتا لي وجيزتَيْن، وثابتَتَيْن، كاللحظة التي تخرج فيها رصاصة من قصبة البندقية إلى ظَهْر المذنب، نهضتُ من ذلك الفراش الذي لم أره مرَّة أخرى، ونسيتُ شكله واتِّساعه، وخرجتُ من الحجرة تاركاً خلفي امرأة، نسيتُ كيف هي أيضاً، حتَّى إن حرارة البهجة التي بثَّتْها في نفسي ذات مرَّة، والصقيع الذي أشعرتْني به في تلك الليلة جعلاها بالنسبة إلي مضطربة، مزدوجة، ومخيفة".

الفصل التاسع

"وكل شيء حزين
إذا لم أسمع صوت تنفُّسك
الهادئ في بعض الحجرات".
هـ. مونرو- ريبورا
"ونجمة الحُبِّ تمكث بعيداً
لأجل الشعاع المضيء الذي يعتليها
ويقطعها حتَّى إنه يغطِّيها".

دانتي

"مات بورتسيا، بعد أن ابتلع الفحم المشتعل ... ماذا سيحدث لي أنا الذي ابتلعتُ نيران رغبتي؟ إن عذابي المستتر هو أنني يجب أن أصمت ...".

تيرسو دا مولينا - فيرارين

أحنى الخال رأسه، وأخذ بالكاد يؤرجها محرِّكاً الجِلْد الذي يتدلَّى من ذقنه.

- "وبعد؟" سأل.

لم يجبْ أنطونيو بشيء.

- "وبعد؟" كرَّر الخال.

- "أغلق المصاريع!" قال أنطونيو.

ذهب إرمينجيلدو ليُغلق مصراعَي الشرفة، وسرعان ما غمر الحجرةَ الضوءُ الكهربائي.

كان أنطونيو جالساً على الفراش، متّكئاً بكتفَيْه على العارضة الخشبية، وممسِكاً في يده بسلك المصباح. بدا خائر القوى بعد مرض طويل، لكن وجهه الذي تركت النحافة عليه آثاراً خفيفة، لا يمكنه إلَّا أن يكون جميلاً.

- "بعد ذلك" - أكمل بينما يسند عنقه أيضاً إلى العارضة الخشبية، ويزيد الأنف والوجنات نحافة تحت تأثير ذلك الوضع - "بعد ذلك ... لم أرَ بصيصاً من الضوء قطُّ!".

- "ثم؟".

- "مكثتُ لخمسة عشر يوماً مختبئاً في حجرتي. ثمَّ صار البنسيون لا يُحتَمَل بالنسبة إليَّ، فاستأجرتُ منزلً تطلُّ نوافذه على فيلاَّ بورجيزي. بعث لي أبي، في مركب كبير، ببعض أثاث منزلنا، وما إن رتَّبتُهُ بجانب الجدران حتَّى بكيتُ سخطاً، لأنه ذكَّرني بأيَّام تقزُّزي وحُبِّي اليائس للنساء جميعهنَّ. بعد شهر، عدتُ إلى شارع ماريو دي فيوري، حيث المنزل الذي أعاد لي الحياة ليلة وصولي إلى روما. وبينما كان تصلُّب أعضائي يزداد شيئاً فشيئاً، صَعِدتُ سُلَّماً حَلَزُونِيّاً، تسبقني امرأة، وولجتُ حجرة تُدفئها مدفأة زيتية، وبينما كانت هي تُغلِق الباب، وتحلُّ أزرار ثوبها، وتنسلُّ منه، قمتُ أنا بدور الماكر، فقلتُ مبتسماً، وأنا لا أزال مرتدياً ثيابي، ومتَّكئاً إلى خزانة تزدحم بالصور: -"لكنني أريد أن أخبركِ شيئاً!" كانت المرأة التي ألقت بنفسها على الفراش، تتطلَّع إليَّ مستلقية، بكفَّيْن معقودَتَيْن خلف عنقها. -"ماذا؟" - سألتْ. - "أتعرف، يا عزيزي - أضافتْ بصوت عذب - إنكَ جميل حقّاً؟".
-"هل أروق لكِ؟" - قلتُ. - "أجل - قالت بنظرة جريئة، رافعة يداً من خلف رأسها، ومداعبة عنقها بقوَّة - عندما أخرج من هذه الحجرة، أريد أن أقضي معكَ خمسة عشر يوماً في فينيسيا! سترى كم سنستمتع! كاترينا تجعل

ميتاً يقوم من قبره بمداعبة واحدة!" - "مبالغة!"-، -"ليست مبالغة، يا عزيزي!"- "إذنْ، أقبل عرضكِ، لكنْ، بشرط!"- "أيّ شرط؟" - "إذا ظللتُ بارداً مع مداعباتكِ الشهيرة، ستتحمّلين أنتِ نفقات الإقامة في فينيسيا. وإلّا، صبراً، سأقوم أنا بذلك". رمقتني بعينَيْها اللّامعتَين. - "أوه، موافقة! – قالت - لا يستطيع مقاومتي، ولا حتّى قدّيس خشبي". - "حسناً" – قلتُ - متحلّلاً من ثيابي شيئاً فشيئاً، على أمل أن أخسر رهاني، مَنْ يدري؟".

- "هل خسرتَهُ؟".

- "بعد خمس دقائق كانت كاترينا المسكينة تطبع على الأغطية آثار جسدها الذي تصبَّب عَرَقاً، كان شَعْرها يلتصق بوجنتَيْها، وتنفُّسها يئنُّ من بين أسنانها، وظللتُ أنا رابط الجأش وابتسامة صفراء تعلو شَفَتَيَّ، عشر، خمسة عشر، عشرون دقيقة، نصف ساعة ... - "اسمعْ"، - قالت لي المرأة الحاذقة - "لقد ربحتَ، أعترف بذلك. ويعني هذا أنني سأتحمَّل نفقات إقامتنا في فينيسيا ... لكنْ، الآن، أتوسَّل إليكَ، لا تمنعْ نفسكَ أكثر من ذلك! اترك الطبيعة تقوم بعملها!" وهنا نهضتُ من الفراش ضاحكاً بسخرية، وارتديتُ ثيابي بعناية وبطء، وعقدتُ ربطة عنقي مرَّتَين، ثمَّ ألقيتُ ببعض المال على صدر المرأة التي ظلَّت بلا حراك في الفراش، وخرجتُ إلى الطريق. هُرعتُ على الفور إلى مقهى أورجانو، فتحتُ إحدى دورات مياه الرجال، وهناك، بعد أن أوصدتُ الباب، أطلقتُ العنان لبكاء طويل ويائس!".

- "لم يكن عليكَ القيام بتلك التجربة!" - قال الخال - "كان من الأفضل الانتظار".

- "لقد انتظرتُ شهراً ونصف!".

- "كنتَ تحتاج للانتظار أكثر من ذلك. لا يجب التَّسرُّع في هذه الأمور".

- "بعد هذه الزيارة إلى شارع ماريو دي فيوري، قضيتُ ثلاثة أشهر أتجنَّب الحديث مع النساء. ذات عصر، ذلك الوقت الذي كان مبهِجاً

لي في الماضي، أتت إلى منزلي فتاة كانت تبحث عني كإبرة في كوم من القشّ، ونجحتْ أخيراً في العثور عليّ. تركتُها تتمدَّد إلى جواري، وتُقبِّلني، وتشدُّ وجهي مُمرِّرة راحتَيْن بطيئتَيْن، وقويَّتَيْن بوَله وغضب على وجنَتَيّ. - "لكنْ، أَقُدَّ قلبُكَ من صخر؟!" - هتفتْ -... أوه، لم يكن قلبي من صخر: كان أجدر بالموت الغادر أن يأخذني!".

- "وبعد؟" سأل الخال.

- "بعد، بعد، بعد ... أتسألني، يا خال؟".

- "لكنْ، لحظة واحدة، انتظر! لا تجعلني أجنّ! لقد صرتُ خَرِفاً قليلاً، لكنْ، ليس للحَدِّ الذي تظنُّه أنتَ حقّاً!".

- "لماذا تقول هذا، يا خال؟".

- "كيف لماذا؟ ... أصحيح أم لا أن منزلكَ في روما كان يزدحم دوماً بالنساء؟ أصحيح أم لا أن جميعهنَّ كنَّ يخرجنَ مجنونات بكَ؟ أصحيح أم لا أن الكونتيسة كابيو، تلك ... ما اسمها؟ ... كانت تأتي للتَّمسُّح ببابكَ كقطَّة في شهر يناير؟ أصحيح أم توهَّمت ذلك؟".

أخذ أنطونيو بإحدى يَدَي خاله، ورفعها إلى شَفَتَيْه.

- "أتُقبِّل يدي؟" - قال إرمينجيلدو متظاهراً بالفظاظة حتَّى لا يتأثَّر - "تُقبِّل يدي؟ وما شأني؟".

وضع أنطونيو شيئاً فشيئاً يد الخال على الفراش.

- "أيّ جهد" - همس - "أيّ أكاذيب وادِّعاء وحيل وصلف وازدواجية!".

- "مَنْ هذا؟".

- "أنا".

- "ولماذا؟".

- "كي لا أجعل الآخرين يدركون شيئاً، النساء، وأبي، وأُمِّي، والأصدقاء،

وأنتَ! ... لقد بلغتُ حَدَّ الاعتراف في الكنيسة بالخطايا كلها التي رغبتُ القيام بها، ولم يكن بمقدوري فعلها، متوسِّلاً إلى الله في قلبي أن يمنحني القدرة عليها. وكم كنتُ سعيداً عندما كان قسُّ الاعتراف يهزُّ رأسه لبعض القصص التي أرويها له، ويتمتم: "كثير، كثير، يا ولدي! أتعلم أنني لا أستطيع أن أحلَّكَ من خطاياكَ؟".

- "لكنْ، أيجب أن أُصدِّقكَ؟".

زفر أُنطونيو من أنفه نفساً خفيفاً مريراً بصوت مَنْ يتمخَّض برقَّة. - "الكونتيسة ك." تابع - "كانت هي الوحيدة التي ربَّما حدست الحقيقة؛ لأنها قالت لي ذات ليلة: -"أنطونيو، لتكن صادقاً، ألن يكون امتلاك أيّ امرأة بنظرات العينين مريحاً؟" - ولا أعرف إذا ما أرادت التلميح إلى أن لي نظرة بعض المغازلين الصّقلِّيِّينْ العاجزين الذين تحدَّثت عنهم الليلة السابقة ...".

- "أوه، يا للعاهرة!" - هتف الخال - "ولماذا لا تأتي هنا، ليُمزِّقوها؟ ... وليس بنظرات العين، بالطبع!".

- "... وربَّما أرادت القول إنني، فقط بالعينَيْن، كنتُ أستطيع ...".

- أوه، إنها عاهرة مئة مرَّة! عاهرة كأُمِّها، وجَدَّتها، وابنتها، وأختها! ... لكنْ، أنصِتْ لي، يا أنطونيو: يوجد ما لا أُصدِّقه، ولا حتَّى على جثَّتي، أنكَ خدعتَ لسنوات طوال النساء اللَّاتي أحطنَ بكَ كلهنَّ ... لا، يا سيدي، لا أهضم ذلك، ولايروق لي، يقف لي هنا"، وأمسك السَّيِّد حنجرته بيد عصبية، أترى؟"

رفع أُنطونيو عينَيْه إلى الجدار المواجه.

- "لا" - أكمل الخال - "أبداً، إطلاقاً، لا!".

ثمَّ غيَّر من نبرته:

- "لماذا تريد خداعي، يا أنطونيو؟".

- "كنتُ أخدعكَ حتَّى الأمس، يا خالي. أمَّا اليوم، فأُخبركَ الحقيقة للمرَّة الأولى".

- "لكنْ، يا للشيطان، لا يسهل خداع النساء - أقول لكَ - ... ثمَّ، أين؟ في هذا الموضوع! في أكثر ما يُؤرِّقهنَّ في العالَم! لكنْ، ولا الشيطان ذاته، ولا مَنْ يظنُّ ذاته ملك الماكرين يفعل بهنَّ ذلك!".

- "لقد فعلتُهُ أنا!" قال أنطونيو بابتسامة تحمل فخراً ساخراً.

- "لكنْ، لنعقل الأمر، لنفكِّر: المرَّة الأولى يمكنكَ أن تخترع لامرأة أنكَ قد أقسمتَ، أن بطنكَ يؤلمكَ، أن عليك أن تقوم بالمناولة، لكنْ، الثانية، ماذا تقول لها؟ هيَّا: ماذا تقول لها؟".

- "خالي، لقد تذرَّعتُ دوماً بشيء ما".

- "دوماً؟".

- "دوماً!".

"لكنْ، أقول: ولا واحدة، ولا واحدة شعرت فعلاً برائحة شيء لا يسير على ما يرام في هذا الأمر؟".

أومأ أنطونيو بالنَّفْي رافعاً رأسه.

- "لا؟".

- "لا!"

- "وأنا، طبقاً لكَ، يجب أن أكون أحمق، لأُصدِّقكَ؟" صاح السَّيِّد.

- "خال جيلدو، أتريد حقّاً أن أُقسم لكَ لأجل شيء كهذا على حياة أُمِّي وأبي اللَّذَيْن لا يعلمان حتَّى هذه الساعة أين يذهبان، بأعين مغمَّاة، بين الناس الذين يهزؤون بهما؟ ماذا تريد أن أقول لكَ، إنني إن كذبتُ عليكَ، فلن يعودا إلى المنزل حَيَّيْن؟".

- "لا" قال الخال فزعاً.

- "فلأفقِد النظر من عينَيّ؟ ...".

- "لا!".

- "فليُطلَق عليٌّ الرصاص في ظلام أحد الأزقّة؟".

- "لا، لا! أُصدِّقكَ".

ران صمت.

- "وإذنْ" - عاود إرمينجيلدو الحديث - "بعد تلك المرّة مع الألمانية، لا شيء، لا شيء بعد ذلك، ولا أيّ إثارة، أيّ انبساط، أيّ شيء، أيّ نصف شيء أعلمه أنا؟".

- "عام 1933، في شهر أغسطس ...".

- "آه، ها هو، هل رأيتَ؟" - هتف إرمينجيلدو بتنهيدة ارتياح - "في أغسطس إذنْ؟".

- "كنتُ في كولابو، بالقرب من تلك البلدة التي تُدعى سوبرابولزانو، أسمعتَ بها؟".

- "كولابو ... كيف لا؟ بالطبع! إنها بلدة يقصدها الناس صيفاً".

- "هي بلدة على سبيل القول؛ لأنها مجموعة صغيرة من النُّزُل الخشبية الصغيرة، وبعض الفنادق، وحديقة عامّة مع ملعب تنس ...".

- "بالطبع، بالطبع: كولابو".

- "وغابات من كل جانب".

- "غابات قطعاً" تابع الخال كما لو أنه يجاري نزعة أنطونيو الطيِّبة في أن يقصَّ عليه شيئاً أقلّ كآبة.

- "إنها تقوم على جبل يرتفع ألفاً ومئتَي متر، وتلوح شمالاً جبال أكثر ارتفاعاً بشكل كبير".

- "الدولميت".

- "الدولميت، أجل".

- "وإذنْ، في كولابو؟".

"كان يرافقني لويجي دي أجاتا، وتوري جراسي، والإخوة بيرتوني الذين كانوا يتمرَّغون على الحشائش، كما يفعل الكثير من الحمير، لاشتهائهم امرأة. كانوا يبحثون عنها في كل مكان، ولأنهم لم ينجحوا في العثور عليها، لم يعرفوا ما يفعلون. كانوا يخرجون ليلاً ثائرين إلى الغابة، ويشرعون في الصراخ بصوت مرتفع للغاية يصل إلى شتَّى الأنحاء: "ماذا أفعل؟ هل أتخلَّص منه؟ إذا استمرَّ بهذا الشكل، أيَّتها الأمُّ المقدَّسة، سأُلقيه للكلاب! ..." كانوا يصرخون لساعات وساعات بصوت كئيب وشكاء كَمَذْؤوْبِينَ: "ماذا أفعل؟ هل أتخلَّص منه؟".

ابتسم الخال ابتسامة صغيرة أراحتْهُ من الضغط الذي سحق قلبه حتَّى الآن.

- "ذات مساء:" - تابع أنطونيو - "حضر إلى الفندق الرئيس مُنوِّم مغناطيسي ... أحد أولئك، هل تعرفهم؟ الذين يُنوِّمون الأشخاص".

- "مُنوِّم مغناطيسي، أجل".

- "كان رجلاً مسكيناً، أنهكه الجوع، يظهر في ثياب رسمية برفقة زوجته التي تعمل بثوب مكشوف الرقبة، ويُلقِّبها بالسَّيِّدة. كانت الزوجة - إمَّا لأنها عاشت حياة أقلّ مشقَّة منه، أوأنها تأكل دون أن يراها، أو يعاونها الله - بدينة ككلب الجزَّار، بطبقات من اللحم مضغوطة أسفل الحزام، ومُؤخِّرة تخرق جميع التّنّورات، يتدلَّى نصف ثديَيْها خارج المشدّ، وتَغرق عيناها السوداوان كزيتونَتَيْن بين حاجبَيْن شبه منخفضَيْن. كان المُنوِّم المغناطيسي، بعد أن يجذب من القبَّعة الأسطوانية حماماً وأعلاماً وأوراق لعب ومناديل من الحرير، يُنوِّم زوجته مُحيلاً وجهها إلى لون الأغطية البيضاء، وبإشارات آمرة، لم تكن تراها - بينما هي نائمة هكذا - ولكنها تشعر بها على جِلْدها كضربات السياط، كان يجعلها تخرج مباشرة من

القاعة، ويرسلها عبر الممرّ المجاور حتَّى داخل حجرة صغيرة، حيث تظلُّ واقفة بثبات، وبعينَيْن مغمضَتَيْن دائماً. بعد عشر دقائق، كان الزوج يسألها بصوت رنَّان عن الأرقام التي كتبها ثلاثة أشخاص من الجمهور في أسطوانات ورقية، كان ينتهي من لَفِّها في تلك اللحظة. وكانت المرأة - نائمة كما هي - تلفظ بالأرقام بدقَّة تامَّة، كما لو أنها تنظر إلى الورق مباشرة ...".

- "يا لها من ظواهر مثيرة!" قال الخال.

- "أتعلم ماذا فعل توري جراسي ولويجي دي أجاتا في الليلة التالية؟... اختبآ في الغرفة الصغيرة، وعندما وصلت المرأة المسكينة بيَدَيْن ممتدَّتَيْن إلى الأمام، وعينَيْن مغمضَتَيْن، أخذها أحدهما - لا أذكر جيِّداً أيّهما- هكذا بلا مقدّمات، وتذوَّقها كيفما شاء!".

- "ماذا تقول؟ أنا مذهول! ولم تستيقظ المرأة ؟.

- "ماذا يمكنني أن أقول لكَ؟ لم تستيقظ ... أو تظاهرت بالاستمرار في النوم حتَّى لا تُثير فضيحة، وتَفقِد عملها ... أو لأن الأمر كان يروق لها!".

- "حسناً، جيِّد ... وأنتَ؟".

- "لقد أثارت هذه القصَّة اضطراباً شديداً في نفسي، وبدا لي أن شظيَّة من نار قد سقطت على جسدي. يا الله، يا للإثارة! توجَّهتُ إلى الغابة ليلاً، وحيداً تماماً. كان القمر ساطعاً على الدولميت، والعطر يفوح من الأشجار، وفي أعماق الغابة يخفت صوت الفرقة الموسيقية التي تتَّجه إلى إحدى القرى القريبة، بعد أن خرجتُ من كولابو. كان شيء ما حقّاً يمتزج بدمي، وأكَّد لي هذا سمعي وبصري اللّذان بَدَوَا وكأنهما يعودان إلى بهجة أوقات سالفة، عندما كان أيُّ صوت، أو شعاع ضوء، يحملني إلى الدُّنُوِّ تماماً من النشوة ...".

- "قُصَّ!" - تابع الخال - "لا تتوقَّفْ!".

- "بل يجب أن أتوقَّف؛ لأن كل شيء توقَّف هنا، ولم يتجاوزْ ذلك. لم

يحدث لي ما هو أكثر. لم يتحقَّق الأمل. عاد دمي إلى برودته، وشعرتُ مجدَّداً أن بيني وبين ذلك الجزء من جسدي حَدّ السِّكِّين".

- "اللعنة!" - سبَّ الخال - "اللعنة حقّاً ... وبعد؟... اغفرْ لي، يا عزيزي، إذا كنتُ أكرِّر هذا السؤال، لكنني أُحبُّكَ بشدَّة، وإنني لأعطي الأشهر القليلة المتبقِّية من حياتي لأعرف إن الأمور قد سارت بعد ذلك على ما يرام".

- "خالي العزيز" - قال أنطونيو، وقد عاد ليشدَّ على يَدَيْه - "بعد ذلك سارت الأمور بشكل سيِّئ، كما كانت من قبل. أنتَ لا تستطيع أن تفهمَني تماماً ...".

- "لا، أفهمكَ".

- "لا، لا يمكنكَ أن تفهم ماهية تلك المعاناة. يوجد ميت يتوسَّط حياتكَ جثَّة يضطرّكَ وضعها، عند أيِّ حركة تبدر منكَ، لِلمْسِها، والإحساس ببشرتها الباردة والكريهة".

- "أفهم ما تريد قوله. إيه، أجل، أفهم جيِّداً. تُخطِئ إذا اعتقدتَ أنني لا أفهم هذه الأشياء ... لكنْ، اغفرْ لي"- هتف بَغْتة بنبرة مَنْ يجرؤ على التَّخلُّص من عبء يقاسيه - "لكنْ، اغفرْ لي، يا عزيزي! إذا كنتَ تعرف أن الأمور تسير على هذا النحو ..." - وهنا ألصق سبَّابة وإبهام اليد اليمنى بجبينه بعد أن ضمَّهما معاً - "إذا كنتَ تعرف – أُكرِّر - على الأقلِّ منذُ وقت معيَّن، أن ذلك الكائن الذي أعطاه لنا الله ليُعذِّبنا يسقط راكعاً عندما يجب أن يظلَّ مستقيماً، ويكبو إجمالاً، أكثر من اللَّازم، لماذا، أقول" - وألصقَ بجبينه سبَّابة وإبهام اليد اليسرى، بعد أن ضمَّهما معاً، إلى جوار مثلَيْهما من اليد اليمنى - "لماذا، أيُّها المسيحي المبجَّل؟! لماذا، يا صنيعة الله، ألقيتَ بنفسكَ في هذه المتاهة، أعني في مواجهة زواج، وأيِّ زواج؟! فتاة جشعة، ابنة عائلة جشعة، باردة كالرخام، شائكة كَقُنْفُذ، ربَّما مشاكسة، من اللواتي لا تستطيع أن تقول لهنَّ: "كم هي جميلة عيناكِ!"، بصليب مدقوق

على الصدر، تضعه قُبالتكَ في اللحظات الحميمة كَخنجَر، ووصايا قسٍّ الاعتراف الذي يُحرِّم عليها هذا وذاك، حتَّى إنكَ قد تشعر بوجود ذلك الرجل الحاذق معكَ في الفراش، يُنظِّم لكَ ما تفعل، ويحكُم على ما تفوهُ به من كلمات؛ لأنهم سيعرفون بها في الكنيسة في اليوم التالي، متأهِّبة لتدير ظَهْرها لكَ عند أدنى خلاف، وتلتحف بنصيبها من الأغطية كَجوَال، تتعالى نهاراً دائماً، وتُعلِّق بخصرها مفاتيح الأدراج، وتعُدّ لقيماتكَ كلَّما تناولتَ الطعام، لا تسمح بالعطور، لأنها تقول إن رائحتها كريهة، لا تضع الشامبو في شَعْرها، لأنه يُسقِطُهُ، لا تستحمُّ أكثر من مرَّة واحدة أسبوعياً، لأن أكثر من ذلك يُضعِف القوى، إذا قرأتَ الصحيفة على المائدة تشعر بالإهانة، وإذا تحدَّثتَ معها أعطتْكَ إجابات مقتضَبة، وإذا لم تتحدَّث أنتَ، لم تفهْ هي بكلمة واحدة؛ عندما تعاملها بحرارة تُهمهم بأنكَ ظننتَها واحدة من أولئك، وإذا عاملتَها بجفاء، لامَتْكَ على إهمالكَ لها، مستعدَّة دائماً، كحمقاء، للشعور بالشيب والهرم، والتَّرنُّح للأمام والخلف، وينتهي بها الحال بقَدَمَيْن مُتَوَرِّمَتَيْن، وتسير كما لو أن قِرمِيْداً قد سقط على إصبع قَدَمِها الأكبر؛ وإن ظللتَ بحال أفضل منها، تتمنَّى لكَ الشرور كلها - ليست المميتة قطعاً - لكنْ، المزعجة، حتَّى تنتهي للأبد فكرة أنكَ لا تزال شاباً".

- "لا، لا، لا!" هتف أنطونيو.

- "كيف لا؟ ألا أقول صواباً؟".

- "أنتَ بعيد عن الحقيقة، يا خالي العزيز، بعيد للغاية!".

- "ليتَني أثق من حالة الجوِّ غداً ثقتي ممَّا أخبرتُكَ به ...".

- "أنتَ بعيد، يا خالي، بعيد!".

- "أتعلم كم أخبر هذا النوع من النساء؟ كراحة يدي. تُحسن صنعاً بدفاعكَ عن تلك التي كانت، وبشكل ما، لا تزال زوجتكَ، تبدو بذلك سيِّداً مهذَّباً، لكنْ، اتركْني أتحدَّث كما أريد. اتركْني أُفرِغ ما بي من غيظلأنني إن لم أفعل أموت كَمَداً!".

- "أنتَ بعيد عن الحقيقة، يا خالي!".

- "إذنْ، تحدَّثْ أنتَ! اشرحْ لي مَنْ كانت باربرا بوليزي، فَسِّرْ لي لأيِّ سبب تزوجتَها، اشرحْ لي ما حدث بينكَ وبينها. أوه، بحقِّ الله المقدَّس! لا بدَّ أن هناك حقيقة ما. إذا لم أكن أعرفها، أخبِرْني بها. أنا مستعدٌّ لتصحيح أفكاري".

- "في عام 1934، عدتُ من روما، وقد أضنتْني أكاذيبي. كنتُ قد نجحتُ في أن أُثير الاعتقاد بأنني عشيق الكونتيسة ك.، وابنة أحد السفراء، وزوجة أحد رقباء الحزب ...".

- "أنتَ أيضاً، ليباركَكَ الله، كيف كان بمقدوركَ أن تقيم علاقات مع أولئك الفاشيِّينْ؟! لا أعرف!".

- "خالي، لا ينتمي ذلك الشيء إلى حزب ما. لم يُسِئْني كون السَّيِّدات اللواتي أعرفهنَّ زوجات لفاشيِّينْ، فلم أكن أُلقي بالاً لذلك، لكنّ ما يُسيئُني هو أنه كان عليَّ الاكتفاء بالتمثيل مع أولئك السَّيِّدات؛ لأنني لم أستطع الإتيان بشيء فعلاً. إن كنتُ مع زوجات معارضي الفاشية أكثر قدرة، أوه، يا خالي، لم يكن البوليس السِّرِّيُّ، ولا الحرس الوطني، ولا تنظيم الشباب الفاشي مجتمعين ليمنعوني من التَّردُّد عليهنَّ".

- "لكن نساء معارضي الفاشية في غاية الجدِّيَّة، يا عزيزي، ولن يُسلِّينَكَ كثيراً، ماذا تعتقد؟".

- "حسناً، إذا كان هذا ما تقول ... دَعْنا من السياسة، يا خالي. أيجب أن أتحدَّث معكَ عن السياسة دوماً؟ لا دخل للسياسة بهذا".

- "حسناً، حسناً، أكمِلِ الحكيَ. عدتَ في عام 1934 من روما".

- "عدتُ كحيوان مسكين يُساق إلى المسلخ، وكم من الأفكار تدور في ذهني وأنا أحاول النوم في عربة النوم! كانت روما في النهاية المدينة التي أعطتْني مباهج الحياة الوحيدة والعظيمة، كنتُ أبتعد عن البابا الذي

نسبتُ إلى السُّكنى إلى جواره عام 1930 معجزة تلك الأيّام السعيدة التي لا تُوصَف، عندما كانت السعادة تستولي عليَّ وتجتاحني من كل جانب ... تلاشت من ذاكرتي فترات الانتظار الطويلة في نابولي، مع أصوات الماندولين التي كانت تخترق جسدي، وأكاذيب ذلك الحين، والذرائع، والهروب ... لم يتبقَّ سوى مذاق النبيذ المحترق الذي اتَّسم به العالَم في تلك الأيّام، ذلك العالَم الذي كنتُ أرتشفه بكل ما أُوتيتُ من حواسّ، وذكرى اللحظة السّماويّة التي تزداد سماوية شيئاً فشيئاً كلَّما مرَّت الأعوام خالية منها، تلك اللحظة النَّاريَّة، الحلوة، الملائكية ...".

- "مهلاً، تمهَّلْ!" - قال الخال - "إنها لحظة كغيرها ...".

- "ربَّما أُبالغ في أهمِّيَّتها" - أكَّد أنطونيو بعذوبة - "منذُ صرتُ عاجزاً عن تكرارها. لكنْ، لا تقلْ إنها لحظة كغيرها! ...".

- "إنها أحياناً لحظة أسوأ من غيرها" - قال الخال بشيء من العناد - "لكنْ، دَعْنا لا نختلف! أكملِ الحكيَ!".

- "أترك روما مدينة مباهجي القليلة والوحيدة، ربَّما للأبد، وتنتظرني كتانيا، المدينة الفقيرة التي عرفتُ فيها امرأة واحدة، ومرَّة واحدة، لم تكتمل، تلك المدينة التي كنتُ أحاول فيها ليلاً، وأنا ممدَّد على فراشي، تمييز الكعب المرتفع بين خطوات المارَّة، وإذا نجحتُ في ذلك، كنتُ آخذ في متابعته ثائراً بأُذُنيَّ المسحورتَيْن، وعندما كان يفلت منِّي، وهو يصير أكثر خفوتاً ووَهْناً، كنتُ أجترُّ كل يأس الرجل العاجز الخاوي، وأسمع في ذلك الصخب المحبَّب الذي يتبدَّد صوتَ قَدَري ذاته، وهكذا بعد أن يتشبَّع عقلي بمرارة تشبه سُمّاً يجلب النوم، كان وعيي يضلُّ لبضع ساعات".

ران صمت لم يجرؤ الخال خلاله أن يقول، كالمعتاد، "أكمل!".

- "بعد أن وصلتُ كتانيا، تحدَّث إليَّ أبَوَايَ على الفور عن الفتاة التي يرغبان تزويجها لي. تخيَّلْ أنني استطعتُ التفكير بالزواج! ... لكنْ، ذات يوم، بينما كنتُ واقفاً على أحد أرصفة شارع إتنا أُنصِتُ إلى الصّيدليّ

سالينيترو الذي ينقل لي كلمات صديقي أنجلو - أذكر ذلك كما لو كان بالأمس - رأيتُ باربرا بوليزي تمرُّ إلى جوار أمِّها ... يا خالي، خالي، لقد أراد الله السخرية منِّي! ما إن اقتربت باربرا، ورأيتُ عينَيْها الخضراوَيْن، واحمرار وجنَتَيْها، حتَّى صَعِدَت موجة من اللهب من قَدَمَيَّ إلى رأسي، وبعد قليل لم يكن بمقدوري الحراك حتَّى إنني تعثَّرتُ في خطاي من الاضطراب".

- "ماذا تقول؟ ألهذا الحَدِّ؟".

- "أجل، لهذا الحَدِّ. أنا لا أكذب! في المساء ذاته، دخلتُ حجرة أبوَيَّ، وجلستُ على حافَّة الفراش، وأعلنتُ لهما أنني أريد الزواج من باربرا. ولن أخبركَ مدى سعادتهما ...".

- "أيّ مأزق!" - تنهَّد الخال - "أيّ مأزق كبير! لكنْ، من جانب آخر، أنتَ مُحِقٌّ ... إذا كنتَ لرؤيتها فقط ... لله شؤون أحياناً. هذا صحيح بالفعل! لكنْ، معذرة، عندما كنتُما مخطوبَيْن وقريبَيْن من بعضكما بعضاً، وبدأت تفلت منكَ قبلة، أو مداعبة ما، بالرغم من أنه في منزل كمنزلهم، يزدحم بالصلبان والرهبان، لم أكن لأجرؤ على قضاء حاجتي. أقول في فترة الخِطْبَة، ألم يكن لديكَ وقت في فترة الخِطْبَة؟ ألم تتحْ لكَ الفرصة لملاحظة كيف تسير أموركَ؟".

- "خالي، في ذلك المنزل المزدحم بالصلبان، والرهبان كما تقول، وفي حضور محرِّر العقود وزوجته اللَّذَيْن لم يكونا يرفعان أعيُنَهُما عنَّا، وتحت ناظري محرِّري العقود الآخرين، والرهبان الموتى الذين يرمقوننا من أعلى، من اللوحات، وبعض بقع الجدران، والأسقف التي تبدو كأعين المنزل أيضاً، والقدِّيسين بحَدَقَات مرفوعة شطر السماء، لكنهم يروننا القدر ذاته، وكأننا في مرآة، في ذلك الجوِّ المفعم بالاحترام والورع والإجلال، حتَّى إن الخادمات كنَّ يُقبِّلنَ، كل يوم أحد، أيدي أصحاب المنزل، والأبناء أيدي الآباء، والآباء أيدي الأخ الراهب، ولا يدور برأس أحد أيُّ تفكير يخالف الشرف والالتزام، حيث تتطلَّع إلى الثياب التي تتسربل بها النساء عبر الأزرار بأعين

تشبه أعين الكلاب الثائرة، وتظنُّ أنكَ إن جرؤتَ على حلِّ زرٍّ واحد، فإن يدكَ ستعضُّ وتهتك وتمزِّق، على كل حال، في ذلك المنزل ...".

- "في ذلك المنزل؟... هلُمَّ!".

- "في ذلك المنزل كنتُ دوماً في حال أخجل فيه من نفسي ... لكنه ليس خجل انعدام الثقة، والكآبة، بل خجل الفخر، والسعادة ... كان الخوف من اكتشاف أمري يعادل الرغبة والأمل في كشفه، الارتعاد، اعتلال الصِّحَّة، الدوار، والآلام النافذة التي تتخلَّل ظَهْري وعنقي نحو منتصف الليل، وتدفع إلى جسدي دوماً، عبر رؤوسها الحادَّة، شيئاً يبرق ويبرق كقطعة من الماس، يظلُّ داخلي طيلة الليل، يضيء أحلامي، ودمي ... يا خالي، خالي، كانت السعادة!".

- "حسناً، حسناً للغاية. هكذا تسير الأمور جيِّداً. قُصَّ إذنْ!".

- "إن باربرا هي أجمل فتاة على وجه الأرض!".

- "أتقول حقّاً؟".

- "إن باربرا هي أجمل فتاة على وجه الأرض!".

- "إذا كنتَ تقول ذلك ...".

- "عندما تزوَّجنا، ورأيتُ ذراعَيْها، وجزءاً من ركبتها، وكل ما هو جميل يلهب من الداخل، شرائطَ قميص نومها، ورأيتُ الأصداء التي لا تُوصَف، والتي يدفع بها إلى وجهها وداخل عينَيْها خجل اللحظة الحميمية الأولى مع رجل، وشعرتُ بأن في داخل رأسها المترمِّت تدور أفكار طفلة، تزداد سذاجة، كلَّما صرنا طوع ذواتنا ... أنتَ لا تعرف، يا خالي، كم يمكن لأحد أن يصبح مُثاراً! ...".

- "رائع، مثير، هيَّا إذنْ! وعندئذ؟".

- "وعندئذ، يا خالي، حدث ما حدث من خمس سنوات مع إنجيبورج".

- "أنا مذهول!".

- "هذا ما حدث، يا خالي".

- "تماماً كما حدث منذُ خمس سنوات؟".

- "ليس تماماً. ففي هذه المرَّة لم يتخلَّل الصقيع جسدي، بل كان كما لو أن كل شيء، في لحظة الذروة، قد تبخَّر وتبدَّد، كما لو أن جسدي، بدمي وأعصابي، بعد أن بلغ قمَّة الغليان، قد تحوَّل إلى عَرَق وبُخار".

- "أوه، لله شؤون! وإذنْ، يا ولدي المسكين، هذه المرَّة أيضاً ... ؟".

كان أنطونيو ينظر بثبات إلى الجدار المواجه دون أن يرمش له جفن.

- "لكنْ، أخبِرني، يا عزيزي، لماذا لم تلجأ للإصلاح فوراً؟".

- "الإصلاح بأيِّ طريقة؟".

- "الانفصال فوراً عن زوجتكَ قبل أن تنتبه. كان عليكَ أن تبادر، يا عزيزي!".

- "كيف؟".

- "أن تهرب، على سبيل المثال، مع إحدى الفلّاحات أو مع امرأة تأخذها من أحد البيوت سيِّئة السمعة!".

- "لا يبدو لي هذا تصرُّفاً صائباً".

- "إطلاقاً. كان سيبدو كتصرُّف شخص دنيء، دنيء المَنبت والمنشأ".

- "أترى إذنْ؟ بخلاف ذلك، كنتُ أحيا إلى جوار باربرا حياة طيِّبة للغاية. ويملؤني شعور بالأمل والبهجة مثير للغاية".

- "بعد ذلك أيضاً؟".

- "أجل، بعد ذلك أيضاً".

- "لا أفهم".

"لم تكن باربرا مثل إنجيبورج. لهذا، بعد أن حدث ما حدث، ظلَّ بداخلي شعور بالخوف، وإذا قابلتُها مرَّة أخرى، كان سيُغشى عليَّ قطعاً، كما لو أنني قد رأيتُ جثَّتي تسير أمامي بعينَيْن مغمضَتَيْن. لكنْ، مع باربرا، لا. كانت أخلاق باربرا تبدو لي عظيمة، تثير فيَّ كل الاحترام للكنائس التي تردَّدت عليها قبل الزواج، لكنْ، فيما يخصُّ العلاقة مع الرجال، كانت بيضاء كقطعة من الورق. لم تكن تعرف شيئاً، ولم تسأل عن شيء، كانت تحمرُّ خجلاً باستمرار، وعندما أحتضنُها، تتعلَّق بشدة بعنقي حتَّى إنني كنتُ أقوم بحمايتها ممَّا أوشك على البوح به لها. كانت تستمرُّ، كطفلة عنيدة، في إعطاء ظهْرها للحقيقة التي لم ترها قطُّ. يا خالي، لم أستطع كشف تلك الحقيقة لها، لكنني كنتُ أتظاهر بتصديق أنني أتصرَّف هكذا، لأن باربرا تطلب مني ذلك. من جانب آخر، لم أكن قطُّ بارداً إلى جوارها، ولا خائفاً، ولا حتَّى مشمئزاً. كان شعور عميق بالإثارة يحمل دمي على الخفقان، وعقلي على الغليان، لكنه كان يتبخَّر في النهاية من مسامِّ جِلْدِي، ويضيع في العَدَم تاركاً في داخلي متعة مبعثرة وواهنة كتلك التي يحلم بها الأطفال قبل أن يخرجوا من طور البراءة بقليل".

- "جميل وممتع، أجل قطعاً، جميل وممتع ... لكنْ، ليوم، لأسبوع، لشهر! وليس لثلاث سنوات!".

- "خالي، كنتُ آمل دوماً في حدوث شيء ما. كان شعوري بالإثارة يتنامى باستمرار، كسيَّارة تُصدِر ضجيجاً أشدَّ كل مرَّة، لكنها لا تنجح أبداً في التَّحرُّك".

- "وإذنْ؟ اتركْ كل شيء، ووداعاً!".

- "أوه، لا، مع شعوري المتنامي بالإثارة كانت سعادتي تتزايد. كنتُ أشعر بظنون باربرا الأولى، واضطراباتها الحقيقة الأولى تدور بين أفكارها. كانت هذه الفتاة، دون أن ترتكب أيَّ خطيئة، شريفة وصالحة كما هي، تتلقَّى بين الصور المقدَّسة التي يمتلئ عقلها بها، الصورة الأولى للخطيئة؛

كانت هذه الفتاة، وهي تدخل فراشي، تصير كل ليلة أشدَّ احمراراً، ويظلُّ وجهها ملتهباً لساعات وساعات على الوسادة ... يا خالي، ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ كانت هذه الفتاة تصيبني بالدوار ... حقّاً" - وأضاف على الفور - "صار اضطرابها أكثر وضوحاً بعد أن شرحت لها الخادمة، وهي امرأة حمقاء اضطررنا لطَرْدها، أشياء عدَّة".

- "لكنْ، كيف؟" - هتف الخال - "أكنتَ تعرف أن باربرا صارت على علْم بالأمر ...؟".

- "بعد حوارها مع الخادمة، استجمعتُ شجاعتي، واعترفتُ لها بكل شيء بأدقِّ التفاصيل، مثلما فعلتُ معكَ، يا خالي، ثمَّ سألتُها إذا كانت ترغب في الاستمرار في الحياة معي أو الانفصال".

- "وهي؟".

- "ألقت بذراعَيْها حول عنقي، وقبَّلتْني بشكل لا يمكنني نسيانه. قالت لي إنه علينا أن نستمرَّ في الحياة متجاورَيْن، ومتعانقَيْن كملاكَيْن. في المساء، وهي تدخل الفراش، تصير قِرْمِزيَّة اللون، وكنتُ ألحظ خفقان قلبها في الشرائط المعقودة على صدرها. بدأت مرحلة جديدة. كانت تجاهد ليلاً لتنام، وكما أخبرتُكَ، تبقى بوجه ملتهب على الوسادة موجّه شطري، لكنْ، بعينَيْن مغمضَتَيْن بقوَّة، كانت تفتحهما، بين الحين والآخر، وترمقني بهما وهما يلمعان بالحُبِّ والفضول وبشائر السعادة، وبدأتُ، عندئذ، أعتقد حقّاً في أن معجزة عام 1930 ستتكرَّر، لأن مَنْ تطلبها بأقصى حرارة وصفاء هي تلك الفتاة الطاهرة. كانت حياتنا تسير سعيدة ومفعمة بالحُبِّ عندما، بَغْتة، الأب، والأمُّ، وهي نفسها، لا أعرف جيِّداً لماذا ...".

- "لا" - صرخ الخال منتفضاً من المقعد - "لا أسمح لكَ بالاسترسال! تعلم السبب، ونعلمه جميعاً. لقد كنتُ صبوراً، وتركتُكَ تتكلَّم. لكنْ، عند هذا الحَدِّ، لا، كفى، لا أريد أن أبدو أحمق أكثر ممَّا أنا بالفعل! ... تعرف لماذا قرَّرتْ باربرا أن تتخلَّص منكَ! تعرف ذلك جيِّداً! وكنتُ أنتظركَ هنا

بينما ترسم تلك اللوحة الجميلة للغاية عن زوجتكَ. كنتُ أفكّر أنها ستكون، كما تقول أنت، جميلة، طاهرة، بريئة، إلخ، لكنْ، أين ستضع الجشع والبرود والنفعية الموروثين عن العائلة؟ لنرَ قليلاً أين تضعهم. لن تنفيَ لي أنها فتاة نفعية، تُجيد القيام بحساباتها، مستعدَّة للتَّضحية بأيِّ شيء إلَّا مصالحها الماديَّة! عندما ترى الثروة يغشى بصرها كسمكة أخذها ضوء المصباح، تصعد بهدوء إلى السطح، وتترك نفسها، لتنال منها يد أحدهم. لن تنفيَ لي هذا، بحقِّ الله! وإذا فعلت، فإن هذا يعني أنك تظنُّني غبيّاً، وأنا أفقِدُ صوابي مع أولئك الذين يظنُّونني غبيّاً!".

ترك أنطونيو ثورة الخال تهدأ، وارتسم على وجهه الانطباع المتراخي لمَنْ توقَّع شيئاً، ورآه يحدث.

- "خالي" - همس بعد ذلك - "كلماتكَ حقيقة لا جدال فيها: إن باربرا فتاة نَفْعيَّة، حكيمة، لكنْ، ماذا يجب أن أقول لكَ؟ إن هذا أيضاً يروقني فيها؟".

- "حسناً، لكنْ، عندئذٍ" -تنهد الخال- "لا تنفعك إضاعة الوقت. لكنْ،" - أضاف مشيراً إليه بإصبع، ورافعاً صوته الغاضب - "كيف تعدكَ هذه المرأة بأن تعيشا كملاكَيْن، وتقول إنكما ستكونان سعيدَيْن، ومتقاربَيْن كتوأمَيْن، تحتضنكَ، وتُقبِّلكَ، وتضمُّكَ بعينَيْها ليلاً، ثمَّ تطردكَ بقلب بارد خارج المنزل ككلب مزعج ...؟".

- "خالي، أتوسَّل إليكَ! لم يطردْني أحد، لقد رحلتُ بمفردي. ولم تأخذ باربرا قرارها بقلب بارد، كما تقول أنتَ: إنها كاثوليكية حقَّة، شريفة، ودقيقة، وليست من أولئك اللواتي يدَّعينَ الكاثوليكية، ثمَّ يفعلنَ كما يشأن. عندما وعدتْني بأنها ستكمل الحياة معي، لم تكن تعرف أن الكنيسة تعتبر زواجاً كزواجنا باطلاً، لم تكن قد تحدَّثتْ بعد مع رئيس أساقفة كتانيا ...".

- "غبي، غبي، غبي" - صرخ الخال - " يجب أن أصفكَ بالغباء! ألا

تدرك أنهم يلهون بكَ كطفل صغير؟ وأن أولئك الماكرين قادرون على التهامكَ في قضمَتَيْن. رئيس الأساقفة، الكنيسة ... ولنقل بالأحرى دوق برونتي، دوق برونتي، دوق برونتي، دوق برونتي صاحب الأرداف السمينة والأملاك في بيانا!".

جذب أنطونيو ساقه من الفراش، ساده الشحوب، وبدا صدره، من انفراجة رداء النوم، أكثر نحافة، وغشّى حَدَقتَا عينَيْه العذبَتَيْن لونُ العنف.

- "إذنْ" - قال - "أُحبُّ باربرا، وكنتُ دوماً عاشقاً لها، ومنذُ لم أعد أراها يصيبني حُبُّها بالجنون ...".

- "وعندئذ" - قاطعه الخال مشمئزاً - "اذهبْ، والعقْ بابها، وقل لها أن تُحسِنَ إليكَ وتُبقيكَ في المطبخ كَحَيَّة تأكل الفئران".

زاد شحوب أنطونيو، ولمع على وجهه النبل كله الذي لا يظهر في أحاديثه ولا في طريقة التَّصرّف.

- "أنتَ لا تفهمني" قال، وأعاد ساقَيْه للفراش، وتمدَّد مجدَّداً.

- "كيف لا أفهمكَ؟ ولماذا إذنْ أدعوكَ غبيّاً متبلّداً؟ بالضبط لأنني أفهمكَ".

- "أنا لن أعود إلى باربرا، حتّى وإن جاءت زاحفة إلى باب منزلي تحت نظر كتانيا كلها! أنا أعشقها، أعشقها بجنون. وراء ظَهْرها أُوشِكُ على تقبيل الأرض التي تسير عليها، لكنْ، لن تسمع باربرا اسمَها أبداً من هذا الفم الذي يتحدَّث إليكَ".

كرَّر الخال لنفسه، مرَّة تلو الأخرى، آخر ما قاله أنطونيو من كلمات: "لن تسمع باربرا اسمها أبداً من هذا الفم الذي يتحدَّث إليكَ".

- "حسناً" - صاح بعد ذلك - "جيِّد، جيِّد للغاية! هذا هو حديث الرجال! يجب ألّا تُشعِر أولئك الخَوَنَة بالرضا أبداً!... بالأحرى" - أضاف بعد صمت - "ماذا أفعل الآن؟ ماذا سأقول لأبيكَ؟ المسكين يظنُّ أن الأمور قد

سارت بشكل مختلف. مَنْ سيقول له إن ...؟" - "ما يُسيئني" - تابع - "أن الناس ستلوكُ غداً سيرتنا. لن يُصدّقوا أن أحد أفراد عائلتنا، نحن الذين طالما استغفلْنا الرجال ولم يستغفلْنا أحد بفضل الله، ولا حتّى أشدّ مَنْ يرون أنفسهم حاذقين، يمكنهم أن يفخروا بشيء ارتكبوه في حقّنا، وأنتَ أيضاً، بحقِّ الله، لقد أطلتَ خداعهم ... أي هكذا كنتُ أعتقد، هكذا كان الجميع يعتقد ...".

خارت قواه بَغْتة، وعاد للجلوس على المقعد. - "بالفعل" - قال لاعقاً شَفَتَيْه بمرارة، ومتوقِّفاً طويلاً بين تساؤل وآخر، - "بالفعل ... حقّاً ... يا للأسى!" - وبعد تنهيدة عميقة - "إيه! ... ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا يقدر أحد على هذه الأمور ... من جانب آخر، يوجد ما هو أسوأ في الحياة ... لقد نسيتُ آلامي تقريباً ... حقّاً عندما لا يعبأ الإنسان ... منذُ ساعة وأنا أشعر بدوار، ولم ألتفت لذلك. إنني لأعطي بكل سرور إلى محرِّر العقود ذلك الكلب الذي يعضُّني هنا" - وطرق على معدته - "أوه، لقد تجاوزت السابعة والنصف! لن يتأخَّر أبواكَ عن العودة إلى المنزل. ماذا نفعل؟ ماذا أقول لهما؟ الحقيقة؟ أبداً، سادتي، تنقصني الشجاعة! الكذب إن عمر الكذب قصير، لنستمرَّ قليلاً بالكذب: ستأتي اللحظة التي يجب أن نفتح فيها فَاهَيْنَا ونبصق ما نخفيه فيهما. من جانب آخر، لن أستطيع، حقّاً لن أستطيع أن أُخبر أباكَ ... ولا حتّى أُمّكَ ... بل هي أكثر منه ... أنا أعرفها، أختي، تظهر كجدار صلب بينما يَصدُق عليه القول "لا تَلمسْني، وإلّا تفتّتُ بين يَدَيْكَ". من ناحية أخرى، هل أستطيع أن أُخفي الأمر على ألفيو؟ ... أو أن أتصرَّف بطريقة تجعله لا يفهم؟ ... أو أن أدعه يفهم ... أو من الأفضل أن أُنهي الحوار ... أو من الأفضل أن أُغيِّر الحوار؟ ...".

وهكذا استمرّ بعبارات من مثل: ماذا أفعل؟ أو: أو من الأفضل لنصف ساعة... دون أن ينتبه إلى أن قوى أنطونيوكانت تخور مع كل واحدة من تلك الكلمات، ويشحب حتّى يبدو وكأنه سينطفئ كشعلة من اللهب يسقط عليها في أثناء الحديث رذاذ غزير.

عاد السَّيِّد ألفيو والسَّيِّدة روزاريا إلى المنزل، تتقدَّمهما الخادمة قبل الثامنة بقليل. وجدا إرمينجيلدو جالساً في قاعة الطعام وحيداً تماماً أمام المائدة التي ألقى عليها القبَّعة والعصا.

اعتذر السَّيِّد ألفيو الذي أنهكه صعود السُّلَّم، والنزهة الطويلة المرهِقة بإشارة من يده، لأنه لم يستخدم الكلمات في التعبير، وأمر الخادمة، ملوِّحاً دائماً، بأن تخرج من قاعة الطعام وتُوصِد الباب وتمكث في المطبخ.

ابتعدت السَّيِّدة روزاريا هي أيضاً دون أن يطلب منها الزوج ذلك هذه المرَّة، متذرِّعةً بالذهاب لنزع القبَّعة أمام مرآة طاولة الزينة.

ساد هدوء في قاعة الطعام.

ولرؤية ذلك الرجل جالساً على الطرف الآخر من المائدة، بوجنَتَيْه الغائرَتَيْن، ذلك العجوز الذي فَقَدَ الكلمات أيضاً، غضب إرمينجيلدو من القَدَر الشِّرِّير، حتَّى إنه فَقَدَ القدرة على أن يكون حذراً ورقيقاً مع ضحية ذلك القَدَر ذاتها.

- قال: "عزيزي ألفيو، من الأفضل أن تتعقَّل! اِقْلبِ الصفحة، وكُفَّ عن التفكير في تلك ... باربرا!".

بذل السَّيِّد ألفيو جهداً كبيراً وشاقّاً، ليفتح شَفَتَيْه، لكنه زاد فقط من غور وجنَتَيْه، ثمَّ قلب كفَّيْه اللَّتَيْن يضعهما على المائدة، وبينما هو يكشف راحة يده، بدا وكأنه يقول: - "أنا لم أفكِّر في باربرا قطُّ، أفكِّر فقط في ابني".

طال الصمت بين الاثنَيْن كثيراً.

بَغْتة، زامت حشرجة في أعماق معدة السَّيِّد ألفيو، حشرجة بعيدة، محسوسة بالكاد، كَهَمْهَمَة، ومن هناك صَعِدَت للصدر، وشيئاً فشيئاً، بعناء، تسلَّقت الحبال الصَّوتيَّة، وأخيراً، بعد أن حطَّمت جفاف الحَلْق واللسان، قال: "الحقيقة!"

- "الحقيقة هي أن أنطونيو لم يكن بخير تماماً في الفترات الأخيرة".

نكس السَّيِّد ألفيو رأسه، ليُخفي اختلاجة شَفَتَيْه بجبينه تقريباً.

- "أريد أن أعرف" - همس بصوت مبحوح وخافت - "إذا كان أنطونيو قد تعمَّد ذلك أم لا؟".

- "لم يتعمَّد ذلك، يا ألفيو، هل تُصدِّق أنه قد تعمَّد، لثلاثة أعوام، شيئاً شديد التفاهة؟".

- "وإذنْ؟".

- "لم يكن بمقدوره فعل شيء غير ذلك. تروق له باربرا ... لكنْ، معها، لم يصل ذلك الأمر إلى غايته أبداً".

شدَّد السَّيِّد ألفيو من تعبير شَفَتَيْه المرير دافعاً إيَّاهما لأسفل ولليسار حتَّى إن أنفه اضطرَّ لأن يتبعهما قليلاً.

- "تبدو لي أموراً لا تُصدَّق! شابٌّ لا يستطيع، كما تقول أنتَ، أن يصل بشيء كهذا لغايته؟ شابٌّ مثله قضى مع النساء وقتاً أطول ممَّا قضاه على حشية الفراش! تبدو لي أموراً خيالية! وإذنْ، حتَّى إن أراد الرهان، وليس لرغبته علاقة بذلك، لكنْ هكذا على سبيل الإهانة، أو لأنني أمرتُهُ بذلك أنا وأُمُّه، حتَّى إن أراد - أقول - أن يُري تلك الشيطانة ... ما اسمها؟ باربرا، ما الذي يستطيعه أحد آل مانيانو عندما يريد ... ألم يرغب هو، وهو بهذا الطول، في فعل أيِّ شيء؟".

أحنى إرمينجيلدو رأسه، وطَفِقَ يداعب ذقنه ووجنته تاركاً خلف كل مداعبة بقعة غائرة، تجاهد للامتلاء مجدَّداً.

- "لكنْ، يجب أن يفعل شيئاً!" - هتف السَّيِّد ألفيو بحدَّة - "يجب أن يقوم به بحقِّ ربِّه؛ لأنه إن لم يفعل لأَدَّبْتُهُ! يجب أن يتَّخذ لنفسه عشيقة، عشيقَتَيْن، ثلاث، أربع! على الفور! سأبيع الحديقة، والمنزل، والثياب التي أرتديها، وأعطيه ما يريد من المال، لكنْ، يجب أن يتَّخذ لنفسه أربع عشيقات!".

استمرَّ إرمينجيلدو في مداعبة وجهه، لكنْ، بقوَّة جعلت لحم صدغه الأيمن يدور بعيداً عن الذقن حتَّى الصدغ الأيسر، وسقطت إحدى عينَيْه على عظمة الوجنة.

- "ماذا هناك؟ ألا توافقني؟" - سأل السَّيِّد ألفيو - "أليس صحيحاً من وجهة نظركَ؟ وإذنْ، ماذا نفعل، لا شيء؟ أنعقد أذرُعَنا ككثير من البؤساء، وندع كل مَنْ يمرُّ يبصق علينا. سنصبح موضع احتقار المدينة. ونتركهم يبولون في أفواهنا".

- "لا أقول هذا" همس إرمينجيلدو.

- "إذنْ، ماذا تقول؟ هيَّا، تحدَّث!".

- "أقول إنه من الأفضل ألَّا نُزكي النيران بالحطب".

- "لماذا؟ كيف تفكِّر؟ أين الحطب الذي نضعه في النار إن اتَّخذ ابني أربع عشيقات؟ أليس من حقِّه، بعد ذلك الدَّوْر القذر الذي لعبوه معه، أن يسير في الطريق مع ملهى كامل؟ مَنْ يجب أن نخشى؟ مَنْ؟".

- "ألفيو، افعلْ كما يحلو لكَ!" - هتف إرمينجيلدو - "لِتُعْطِهِ أربع عشيقات، مئة! لكنْ أنا، من جانبي، أنصحكَ ألَّا تفعل".

- "ولماذا؟".

- "أنا، إذا كنتُ مكان أنطونيو، كنتُ سأترك كتانيا، وأذهب للقيام برحلة في أيِّ مكان ... في ذلك الشيء، ماذا يُدعى؟ ... في الخارج".

- "ولماذا؟".

- "ولن أرغب لمدَّة عام في أن أسمع، لا عن باربرا، ولا لويزا، ولا النساء كلهنَّ في العالَم!".

- "ولماذا؟".

- "ألفيو، اغفرْ لي!" - ثبَّت إرمينجيلدو عينَيْه في عينَي صهره - "إن حدث له مع امرأة أخرى ما حدث مع باربرا، ماذا نفعل بعد ذلك؟ نربط

ذلك الشيء ... يا ليهوذا الملعون! أنا لا أجد حتّى الكلمات! ... جُلْمُود، نربط جُلْمُوداً إلى أعناقنا، ونصطحب معنا كل مَنْ يقيمون في هذا المنزل، ونذهب مباشرة في صفٍّ واحد إلى رصيف الميناء!".

أخذ السَّيِّد يُحرِّك يداً شطر صَهْره، ويزوم في عنف: كانت الكلمة التي لم ترد على شَفَتَيْه، والتي يحتاجها بشدَّة هي اسم إرمينجيلدو.

- "أيّ شيطان تُدعى؟" صرخ.

- "مَنْ، أنا؟" سأل إرمينجيلدو مذعوراً.

- "أنتَ، ما اسمكَ؟".

سُحِقَ قِرْمِيْدُ عقل إرمينجيلدو، وأخذ، بين الخوف من أن يكون قد نسي اسمه، والعجلة في الإجابة، والغضب الذي يُحرِّك هذا كله، يُتمتم بمقاطع غير مترابطة ماراً مرَّة تلو الأخرى، بالقرب من كلمة إرمينجيلدو، ومُخطئاً إيَّاها كل مرَّة.

- "ما اسمكَ إذنْ؟" صاح السَّيِّد ألفيو.

- "..." أجاب الصهر.

- "ما اسمكَ، قلْ، أنتَ يا مَنْ صرتَ أسوأ منِّي!".

- "..." أجاب الصهر مرَّة أخرى.

- "لا تعلم حتَّى ما اسمكَ!" تابع السَّيِّد ألفيو.

- "إرمينجيلدو!" - انفجر في النهاية الصهر منتفِضاً من مقعده، ثائراً وضارباً بالعصى على المائدة - "بحقِّ الله، ها نحن أخيراً! إرمينجيلدو! إرمينجيلدو! إرمينجيلدو!".

- "إرمينجيلدو" - قال السَّيِّد ألفيو - "ماذا عنيتَ بتلك الكلمات منذُ قليل، أن ابني قد ... هذا الشيء، كيف يُقال؟".

لم يحاول إرمينجيلدو معاونتَهُ على الإطلاق، وواصل الصمت.

- "كيف يُقال؟ كيف يُقال؟".

كان إرمينجيلدو يحافظ على شَفَتَيْه المتجهِّمَتَيْن مغلقَتَيْن بإحكام.

- "... يحدث!" - هتف السَّيِّد ألفيو - "أنه قد يحدث لابني مع امرأة أخرى ما حدث له مع زوجته ... ماذا عنيتَ؟".

- "عنيتُ أنه من الأفضل ألَّا نجذب الحبل" - أجاب إرمينجيلدو مستخدِماً الكلمات بحرص ومراقِباً بدقَّة أين تنتهي كل عبارة يُلقي بها حتَّى لا يقع في فراغ آخر من الذاكرة - "خاصَّة عندما لا يكون الحبل شديد المتانة".

- "لا يكون شديد المتانة ..." - كرَّر السَّيِّد ألفيو - "وماذا تعني بهذه الكلمات، ليس شديد المتانة؟".

- "أعني أن أنطونيو يجب أن يستريح لعدَّة أعوام!".

أخرج السَّيِّد ألفيو منديلاً ضخماً من جيب بنطاله، فتحه لمنتصفه، ووضعه أمام فمه كَمَنْ يريد أن يبصقَ فيه شيئاً مقزِّزاً.

- "يا للعار!" همس.

ثمَّ طوى المنديل أربعة أقسام بعناية، ثمَّ ثمانية، وأعاد وضعه في جيب البنطال.

- "تقول بضعة أعوام. لكنني عجوز سأفنى خلال فترة وجيزة. أيجب عليَّ حقّاً أن أقضي الأعوام الأخيرة من حياتي، وأنا أعرف أنني لا أنا، ولا ابني، سنجرؤ على الذهاب إلى الفراش مع امرأة؟ بل إن ابني لا يجرؤ، ابني، ابني، بحقِّ الله، الذي يجب في عمره هذا أن يرفع أحجاراً دونما مساعدة! يجب أن يرفع أحجاراً، أحجاراً!".

- "وسيرفعهم!" - قال إرمينجيلدو مسترضِياً - "عندما يستريح لبضعة أعوام، سيرفعهم دون ذلك الشيء ... كيف قلتَهُ؟".

- "قلتُ ما قلتُ" - تمتم السَّيِّد ألفيو - "ثمَّ ماذا أتيتَ تقصُّ عليَّ؟"-

أكملَ بصوت مرتفع - "بعد بضعة أعوام؟ ... ماذا سيفعل بعد بضعة أعوام؟ كلَّما ازداد عمره، صار طريقه أشقّ! في الثلاثين لا، وفي الأربعين أجل؟ لكنْ، يا إرمينجيلدو، ماذا تُدبِّر لي؟ اذهبْ! اذهبْ! اذهبْ! لنُهدِّئ قلوبنا، ونكفّ عن الحديث عن ذلك! هذا يعني أنه لم يعد لديَّ ابن! ابني مات! كان لديَّ ابن ومات!".

لم يتشنَّج صوت السَّيِّد ألفيو، ولا بكت عيناه. مع ذلك كانت وجنتاه تلمعان، محمَّلَتَيْن وممتلئَتَيْن عن آخرهما بالدموع، وسقط بعض منها على الياقة كحبَّات العَرَق.

- "مات، ابني، مات! كان لديَّ ابن ومات!".

ضرب العجوز بكفِّه على المائدة. ثمَّ هَمَّ بالنهوض مستنِداً على اليد التي ضربت على المائدة، لكنه فطن إلى أن ركبَتَيْه قد تلاشتا داخل البنطال.

ظلَّ جالساً.

- "تقول بضعة أعوام! ... لكنْ، كفى، من فضلكَ، دَعْنا لا نقلْ كلاماً لا يُقال إلَّا للأطفال! ما كان قد كان، ولن يعود! كان لديَّ ابنٌ ذَكَر حتَّى الأمس، كان لديَّ ابنٌ في روما، فخر حياتي، أتوجَّه على عرش، يحسدني عليه الجميع، وتلك ... ما اسمها؟ إرمينجيلدو، ساعدني!".

- "مَنْ؟" قال صهره رافعاً جبينه من فوق يده.

- "زوجة ذلك العاجز؟".

- "لقد فهمتُ مَنْ تعني" قال إرمينجيلدو وقد كساه عَرَق النسيان البارد: "الـ ... الـ ... الـ ... أوه، يا للعذراء المباركة!".

- "قريب موسوليني!".

- "أجل ذلك الذي، لقد فهمتُ ... الشيطان ... يا للخيبة! ...".

- "حسناً، دَعْنا من ذلك! لقد فهمتَ مَنْ أعني، زوجة ذلك هناك ...".

- "الكونتيسة ك.!" زفر إرمينجيلدو بارتياح عميق.

- "أجل ، الكونتيسة ك. كانت تتلوَّى على بابه، ولم يكن يفتح لها، لماذا ...؟".

تطلَّع إرمينجيلدو إلى السَّيِّد ألفيو.

توقَّف السَّيِّد ألفيو، جذب رأسه للخلف، وراقب صهره في عينَيْه. سقطت غمامة سوداء عن عقله.

- "لماذا ..." - حاول أن يُكمِل - "أوه، يا إلهي!" همس، دون أن يكون قد فكَّر في أيِّ شيء أو قام بأيِّ افتراض، لكنه يكاد يموت بالفعل من الرعب، كما لو أن الشَّكَّ في الحقيقة قد تسلَّل إلى عظامه متخلِّلاً إيَّاها بشكل غير مَرئي عبر وعيه.

- "إرمينجيلدو"- قال شاعراً ببوادر فُقدان الوعي - "استدعِ لي زوجتي فوراً! فوراً! فوراً!".

هبَّ إرمينجيلدو من مقعده، وهُرِعَ إلى الباب، ليصرخ باسم أخته، لكنْ، بعد أن حرَّك شَفَتَيْه مرَّتَيْن أو ثلاثاً، شاعراً بأن ذاكرته قد أوصدت أبوابها مجدَّداً، وكلَّما حاول فتحها، ضربت بأسوارها بغضب حول الكلمة التي يريد أن يسلبها منها، أغلق الباب من خلفه، وهُرِعَ عبر الرواق، دخل حجرة الزَّوجيَّة، أمسك السَّيِّدة روزاريا من يدها، وقال لها: "لنذهب، هلُمِّي، إنه بحاجة إليكِ!".

- "مَنْ؟" سألت السَّيِّدة ملتاعة.

كان على وشك الإجابة: ألفيو، لكنْ، خوفاً من أن يَفقِدَ هذا الاسم في المسار الوجيز بين العقل والفم، اكتفى بأن يقول بحذر شديد:

"زوجكِ!".

الفصل العاشر

"كطلقة مدفع ...".

حلّاق إشبيلية

"يتصرّف كالأحرار، ويتكلّم كالعبيد".

فولتير

كان لتلك الفضيحة وَقْع دَوِيٍّ الإتنا على كتانيا كلها.

أنطونيو مانيانو، ابن ألفيو، ابن أخت إرمينجيلدو، الشّابُّ شديد الوسامة الذي كان يرفع نظر أشدّ الفتيات قدسية عن كتاب الصلاة، أنطونيو ذو العينَيْن الناعسَتَيْن دوماً. ومَنْ لا يعرفه؟ (كانوا يرفعون يداً لأعلى رؤوسهم في إشارة إلى طول قامته، أو يمرِّرونها بعذوبة على وجناتهم في إيماءة إلى روعة وجهه)، أنطونيو، أجل ، هو حقّاً، ذلك، هو بالضبط وليس غيره، على كلِّ أنطونيو مع زوجته ... لا شيء! أقول لكَ لا شيء! لا شيء على الإطلاق! باربرا بوليزي بعد ثلاثة أعوام من الزواج، ما زالت لا تعرف ما هي نعمة الله.

- "وفي هذه الأعوام الثلاثة ماذا فعل لها الزوج؟".

- "كشّ لها الذباب".

- "أمن الممكن، أمن الممكن؟".

- "إنه كذلك!".

- "لكنْ، كيف؟ أليس لابن ألفيو مانيانو أسنان لقضم الخبز الطازج؟".

- "ليس لديه".

- "لكنْ، ماذا تقول؟ لكنْ، ما الذي تُقنعني به(*)؟

- "إنه فاقدُ البصرَ! الليلة الأولى اضطجعا و... و... لا شيء!".

- "لكنْ، كيف حدث؟".

- "كيف حدث؟ ... حدث! لم أكن هناك، أيُّها الأخ!".

- "مُوصَد هو إذنْ؟".

- "مُوصَد بشدَّة، أيُّها الأخ!".

- "مُوصَد دائماً لثلاثة أعوام؟".

- "مُوصَد دائماً".

- "كل ليلة؟".

- "كل ليلة".

- "وكيف ذلك؟".

- "قل ذلك لربِّ السماوات، هو مَنْ يُدبِّر هذه الأمور!".

- "لكنني قد أفهم مرَّة، مرَّتين، ثلاث مرَّات ... لأُفسح قليلاً: خمس مرَّات! مَنْ منَّا لم يُوصد؟

- "يجب أن أقول لكَ الحقيقة، أيُّها الأخ: لم أكن كذلك قطُّ!".

- "أبداً؟"

- "أبداً!"

"ولم أكن أنا أيضاً - بشكل ما - موصداً تماماً وبلا علاج".

"ليت الله يُميتني قبل أن يبتليَني بكارثة مماثلة! وماذا يتبقَّى لأحدنا في الحياة إذا أُخذ منه ذلك أيضاً؟ إنني لأُلقي بنفسي حقّاً في الخزَّان".

- "وماذا يحيا ليفعل؟".

---

*) الحوار بالخطِّ المائل كُتِبَ في النَّصِّ الإيطالي باللهجة المحليَّة.

- "الموت أفضل!".

- "الموت أفضل ألف مرَّة!".

- "ماذا تقول، ألف مرَّة؟ مئة مليون ألف مرَّة!".

"هل يجب أن أرى نفسي على هذه الحالة؟ سيكون الدفن على عمق مئة متر أفضل، كما تقول أنتَ، بل في أعماق البحر في فم الأسماك أفضل! ... وأقول لكَ ما هو أكثر: أن يُحكم عليَّ بالمؤبَّد مع الأشغال الشَّاقَّة أفضل، بأيد وأرجل مقيَّدة كما المسيح، لكنْ، بحقِّ الله، بشرفي كرجل، أنا أستحقُّ الشفقة، لأنني لطَّختُ يَدَيَّ بدماء الآخرين، لكنني لستُ موضعاً للضحكات، ووكزات العابرين وأنا أمرُّ في الطريق؛ لأنه إن جازف أحدهم بالضحك، أو نكز بمَرْفقَهُ رفيقه، يمكنني أن أصرخ فيه دائماً: ماذا يُضحكُكَ، يا وجه الشؤم؟ ابعثْ لي بزوجتكَ، أو أختكَ، وعندئذ سنضحك جدِّيّاً!".

- "ومَنْ يستطيع لومكَ؟ ... بحقِّ الأب والابن والروح القُدُس، *أيكون عليَّ احتمال شيء عديم الجدوى يبرز من الأمام؟ ... لكنْ، وبحقِّ الله، لأتخلَّص!* لقد قالها إلهنا في سياق آخر: إذا سقط أحد أعضائكَ في الخطيئة، اقطعْهُ وارمِهِ بعيداً!".

- "أجل، حقّاً، لكنْ، لا يتمتَّع الجميع بهذه الشجاعة".

- "آه، أنا أتمتَّع بها! ولا أُصدِّق أن يكون لابن ألفيو مصيبة كتلك دون أن يرتكب أيَّ فعل جنوني!".

- "ما أدرانا بذلك، إن كان سيفعلها".

- "لا شيء، أيُّها الأخ، لقد مرَّ الوقت! إن لم يفعلها حينها، فليس هناك ما يدفعه لفعلها غداً. لا أعرف كيف خُلق الناس هذه الأيَّام، لكنهم يهدؤون سريعاً!".

- "لننتظر قبل أن نحكم!".

- "*انتظر كما يحلو لكَ. لكنْ، اسمعْ: أكانت هذه الكارثة ملازمة له دوماً أم أنه ابْتُلي بها بعد الزواج؟*".

- *"صدقاً، أيُّها الأخ، ولن أخبرَكَ كذباً: لا أعرف".*

- *"لقد قالوا لي إن هذا الفتى قد أفرط في النساء في روما، فلم يكن* يعرف عددهنَّ، *وإنه منذُ عاد إلى كتانيا يحتاج في كل ثانية إلى امرأة ما* ... ذات مساء، بينما كنتُ جالساً في مقهى بالقرب من طاولتهم، أؤكّد لكَ أنني سمعتُ صديقه، ذلك الذي نصَّبوه عُمدة علينا، يسأله لعشر مرّات على الأقلّ، (وكم كان مُلِحّاً!): *ماذا نفعل نينوتسو؟ أنبحث عن امرأة ؟"*.

"لكن العُمدة يضاجع! وكم يضاجع! أرأيتَ أيّ سكرتيرات جميلات اتَّخذ لنفسه في مقرِّ البلدية؟...أمَّا ابن ألفيو، فهو مختلف تماماً: أيمكنكَ أن تُقسِمَ أنتَ، بأمانة، أنه قد ذهب مع امرأة تلك الليلة؟".

- "أؤكّد لكَ - بأمانة - أنني سمعتُهم، في وقت متأخِّر، نحو الحادية عشرة، يقولون بالحرف الواحد: *"أجل، لنذهب مع امرأة!"*.

"لكنْ، يا أخي، إن القول يختلف عن الفعل تماماً. أكنتَ أنتَ هناك عندما ذهب مع امرأة؟ ماذا تعلم أنتَ عمَّا حدث له بعد ذلك؟ يسود الظلام في الفراش، ولا أحد يعلم ما يحدث".

- "بحقِّ المسيح، المرأة تتكلَّم!".

- "تبعاً للظروف، يا أخي. لقد عرفتُ شخصاً كان يدفع المال حتَّى تُخرِس النساءُ ألسنَتَهُنَّ".

- "إذنْ، أنتَ تؤيِّد أن ابن ألفيو قد دفع مالاً حتَّى يمنع النساء من الحديث؟".

- "أنا لا أؤيِّد شيئاً، أخي. *فما الذي يُضيرني إن كان هو عاجزاً؟* إنه شأنه. أنا لا أستطيع معاونته. أي، أي ... إن استدعاني في ليلة الزواج الأولى، كنتُ لأعاونه بكل سرور".

- *"ويا للجهد العظيم الذي كنتَ ستبذله، يا أخي! إن هذه الفتاة لتفعل الأعاجيب!"*.

ويبتلُّ الحوار بلُعاب الرغبة، وتنثر الأفواه التي تضحك بمكر الرذاذ. وتبدأ، بعد لحظة، ضربات الأكفّ على البطون، والوكزات المتبادلة. إجمالاً، كانت الجدِّيَّة قد ذهبت تماماً، حتَّى إن أحد القضاة، مدفوعاً بضربة كتف من صديق، كان ليطرق، كعصا طبلة كبيرة، بوَّابة لأحد المنازل التي أغلقت بالفعل لحلول الليل.

لكنْ، نزل الخبر نزول الصاعقة على أصدقاء أنطونيو، وأحرقهم.

لم يكن بمقدور هؤلاء الرجال ذوي الثلاثين عاماً السيطرة على أنفسهم، وكان يمكن للحاقدين، ولبضعة أيَّام، أن يمتِّعوا أبصارهم حتَّى يرتووا بوجوههم الممتقعة، والكدرة. بدا أن شرف المجموعة كلها قد تلقَّى طعنة نجلاء، وتصرَّف العديد منهم، سعياً لإصلاح ما تدمَّر، بشكل غير لائق حتَّى مع زوجات الأقارب.

- "أنا لا أترك شيئاً" - كانت هذه مقولة لويجي دي أجاتا. - "الفرص الضائعة لا تُعوَّض!".

- "لكنْ، كيف؟ زوجة عمِّكَ؟ ...".

- "دعني أحيا، لا تُضجِرْني!".

- "لكنْ، تلك هي زوجة عمِّكَ!".

- "لا فائدة، يا عزيزي، أنا لا أُلبِّي نداء العقل! حيثما أجد، آخذ! ماذا يمكنني أن أفعل، إن كان الحمار يرفع رأسه كل دقيقة، ولا يريد أن يظلَّ ساكناً؟".

- "لكنْ، قليلٌ من التَّعقُّل!".

- "لا يتعقَّل الحمار مع أحد. الآن، أجل ... نحترم الآخرين، بينما يطؤنا الآخرون بأحذيتهم! فليفكِّر كلٌّ منَّا في حماية ما يملك. أنا كما أنا، عندما تقع في يَدَي امرأة، لا أريد أن أعرف ابنة مَنْ أو زوجة مَنْ. أهي امرأة لها جسد؟ إذنْ، كفى! لا أريد أن أعرف شيئاً آخر!".

- "وإلامَ سيؤول هذا كله؟".

- "امرأة ورجل".

- "وإذا ما فعل أحدهم بكَ هذا، ما تقول؟".

- "أنا لستُ متزوّجاً".

- "لكنْ، لديكَ أُمٌّ، وأختٌ ...".

- "لا تتحدَّثْ إليَّ عن أمّي وأختي! أُمّي وأختي لا شأن لهما!".

- "لكنْ، أليستا امرأتَينْ هما أيضاً؟".

- "هما كذلك، لكنْ، لا شأن لهما في هذا الموضوع!".

- "ماذا تعني بأن لا شأن لهما في هذا الموضوع؟ إن كانتا امرأتَينْ ...".

- "لا شأن لهما! قلتُ لكَ لا شأن لهما! أأوضحتُ ذلك أم يجب أن أنتزعَ أحد قوائم الطاولة؟".

- "آه، أهكذا تفكِّر؟".

- "هكذا أفكِّر. وإذا كان هناك مَنْ لا يروق له كيف أفكِّر، فلينصرف ... قبل أن أهشِّم رأسه بأحد قوائم الطاولة!" أضاف مُصرّاً على أسنانه.

- "كفى، لنكفّ عن الحديث!".

- "هذا أفضل، لنكفّ عن الحديث!".

كان الرفقاء يظلُّون صامتَينْ، لكنْ، هنا وهناك كان يعلو صوت قَدَم تضرب الأرض بعصبية، أو ساق تصطدم بقائمة مقعد، ويد تدقُّ على سطح الطاولة.

وبَغْتة، كان أحد الجالسين -لا أحدْ يدري بأيِّ شيء يفكِّر- يضرب بقوَّة كفّاً بكفٍّ دافعاً الحاضرين كلهم للوثوب من مقاعدهم.

- "أيّ شيطان أصابكَ؟" كان هؤلاء يصيحون.

- "مهلاً!".

- "توقَّفْ!".

- "أيّ أفعال هذه ...؟".

- "أوه، يا للمساكين!" - راح الآخر؛ لأنه بُوغتَ باكتشاف أفكاره، يجيب شاعراً بالخجل، وغاضباً من اضطراره الاعتذار عنها - "ماذا؟ أفزعتُم؟ لقد فزع الأطفال، أبناء أُمَّهاتهم، أعزّائي! لقد جعلت وجوهَهُم تحمرّ!".

كان التَّأهُّب للعراك يلفُّ أصدقاء أنطونيو بقتامة.

كان إدواردو لينتيني أشدّهم عبوساً. لقد جعلتْهُ كراهيته لهتلر، وتألُّمه لكارثة ابن الخال الأكثر حزناً بين مَنْ يسيرون في صقلية في الواحدة بعد منتصف الليل.

- "أيُّها العُمدة الموقّر". كان يقول مَنْ يتعرَّف إليه من المارَّة، وهو يخرج من ظلِّ إحدى الأشجار، ويرفع أمام وجهه بإجلال يداً مفتوحة بتحيَّة الفاشية - ".

- "أحلاماً سعيدة!" - كان إدواردو يجيب، ثمَّ يضيف على الفور، مصرّاً على أسنانه كلمة: "أنتَ!" ليردّ على عبارة "ابن الكلب!"، أو "ويل لكَ ولمَنْ أتى بكَ إلينا!" التي كان العابر الذي حيّاه باحترام سيضيفها قطعاً، مصرّاً على أسنانه هو أيضاً.

ثمَّ كان يستدير ليراقبه بلطف، وهو يبتعد بين ظلال الأشجار؛ لأنه يحبُّ كل أولئك الذين يهينونه في شخصه كممثِّل للنظام.

لكن الشيء، أو الشكل الذي كان يجعله يُجنّ من الاشمئزاز، ويتقلَّب ليلاً بين الأغطية، ويبصق في منتصف بهو استقبال وسط ذعر السَّيِّدات اللواتي يمتدحنَ لياقته العابرة، كان وجه هتلر بالشارب الألماني، والذي سعى أحد المروِّضين إلى أن يُعلِّمه الضحك بلا جدوى. آه، ذلك الوجه! ذلك الوجه، لا ... ليس ممكناً! ليس مفهوماً! ...

عندما استدعى هتلر الألمان السلوفاك، وخشي الجميع قيام الحرب، وصخبت بعض شوارع كتانيا، الضَّيِّقة والمضاءة بالزيت ليلاً، بخطوات آلاف الرجال الذين أثارهم الخوف والتفكير في أنه "من الأفضل القيام بأكبر قدر ممكن من الجنس؛ لأنه سرعان ما سيحين الأجل"، في الخامس من أغسطس، في صالون الحزب_ وبينما كان السكرتير الاتِّحاديُّ بيترو كابانو يضرب بقبضته على المائدة، ليظهر حزمه أمام بزَّات الرقباء السوداء تلك، والتي ألبسوها، توخِّياً للحذر، أو تفاخراً، ومنفعةً، للعديد من أفراد الطبقة الوسطى الفقراء_ طلب إدواردو الكلمة، ووسط انتباه عامٍّ، أكَّد أن الحرب لن تنشب.

لم يرقْ شحوب إدواردو للسكرتير الاتِّحاديِّ.

- "كيف تقول إن الحرب لن تنشبَ؟" سأل.

ازداد شحوب إدواردو للاستمتاع الشديد بالمغامرة التي يوشك على خوضها، والتصريح الذي سيقوم به أخيراً تعبيراً عن شعوره الدفين.

- "هتلر"- قال - "ينبح ولا يعضُّ: ككل الرجال بلا ق."

شعر بيترو كابانو برأسه يدور من فزع الاستماع إلى كلمات مماثلة.

- "لكنْ ... كيف؟ ..." تمتم. "ماذا ... تقول؟ ...".

- "ليس خطأه أن صار هكذا" - أجاب إدواردو - "بل شرف له كمحارب. تعرف أنتَ أيضاً، أيُّها السكرتير الاتِّحاديُّ، أنه في الحرب السابقة أصابت دفقة من الغاز هتلر، وأحرقت له ... ما أحرقت!".

- "أنا لا أعرف شيئاً!" - تمتم بيترو كابانو مسدِّداً، بالتبادل بين يده اليمنى واليسرى، أربع ضربات إلى المائدة - "لا أعرف شيئاً حقّاً".

- "هيَّا، أيُّها السكرتير الاتِّحاديُّ، إنه أمر يعرفه الجميع!".

- "حقّاً" - تدخَّل أحد الرقباء بسذاجة شديدة - "أنا أيضاً لم أكن أعرف أن هتلر قد أصابه الغاز في هذا الجزء! لكنْ، بالحكم على طريقة تصرُّفه، لا

أقول إنه رجل بلا ق .. على النقيض، يبدو لي أنه يمتلك واحداً من الذين يصلون إلى الأرض، ويثيرون الغبار!".

- "قطعاً" صرخ كابانو موجِّهاً ضربة، ليس بقبضة يده، لكنْ، براحته، إلى المائدة، ومنتصباً بقامته كلها - "إن له زوجَيْن من ق. يثيران له الغبار! ورجال عائلته كلهم يمتلكون ق. تُثير لهم الغبار! ولا أحد من أقاربه الذين أعرفهم ردَّتْهُ زوجته!".

كانت الإشارة إلى أنطونيو واضحةً. نهض إدواردو ونصف وجهه أحمر كاللهب، ونصفه الآخر لا يزال شاحباً.

- "أكرِّر" - هتف - "أن هتلر فَقَدَ ق. في الحرب!".

تشبَّث سكرتير الاتّحاد بطَرَفَيّ المائدة بغضب.

- "إذا كنتَ تفكِّر بهذا الشكل" - قال مصرّاً على أسنانه - "فإن عليك التزاماً واحداً!".

- "ما هو؟".

- "أن تكفَّ عن خدمة نظام يقوده رجال بلا ق.، أنتَ يا مَنْ تملكه، ويملكه أقاربكَ أيضاً!".

- "دَعْ أقاربي وشأنهم!" - تمتم إدواردو بعبوس - "دَعْهم! ... ثمَّ فيما يتعلَّق بإيعازِكَ لي" - أضاف بصوت رنَّان - "أُجيبكَ بأنني لا أخدم النظام النَّازيَّ، بل النظام الفاشي، وعلى رأسه رجل يتمتَّع بضخامة ق.".

- "لكنْ، أنتَ تعلم" - أكمل بيترو كابانو، وهو يعضُّ عل شَفَتَيْه - "أن **الدوتشِهْ** وهتلر متحابَّان كإخوة، ومَنْ أهان أحدهما أهان الآخر!".

- "أيُّها السكرتير الاتِّحاديُّ – بإيجاز - ماذا تقصد، أن عليَّ تقديم استقالتي؟ إذنْ، أنا مستقيل، مستقيل!".

وبقوله هذا، تناول إدواردو، الذي كان قد نهض بالفعل، قبَّعته ذات

النَّسْر الذَّهبيِّ، ووضعها بعناية أمام المرآة متظاهراً بالنظر إلى نفسه طويلاً، لكنه، في الحقيقة، كان يعطي وجهه وقتاً، ليُهدِّئ بالتبادل من اللونَيْن الأصفر والأحمر اللذين اصطبغ بهما، ثمَّ حيَّا السكرتير الاتِّحاديّ والرفاق تحيَّة رومانية ناطقة بالأناقة، وخرج من القاعة.

خارج قصر ڤاكاريني تنفَّس بعمق.

- "آه!" - قال لنفسه - "لقد تحرَّرتُ! أخيراً ... تحرَّرتُ!".

بعد أن وصل المنزل، قصَّ على زوجته ما حدث.

- "حسناً" - قالت السَّيِّدة - "أيمكنني استخدام سيَّارة البلدية اليوم أم أستقلُّ تاكسي؟".

- "استخدمي سيَّارة البلدية! أنا عُمدة كتانيا حتَّى يأتي آخر!".

بعد أن تناول غداءه بصمت مع زوجته، والأبناء الخمسة، جلس إلى مكتبه، وسطَّر هذا الخطاب إلى الكونت ك.:

"صاحب المعالي:

أودُّ أن أُحيط سيادتكم علماً باهتمام بواقعة جرت أحداثها اليوم في مقرِّ الاتِّحاد الفاشي، وتصرَّفتُ أنا خلالها بمغالاة في أثناء نقاش حول السياسة الخارجية التي تعتبر سيادتكَ فيها إلخ، إلخ، تملَّكني بشدَّة ذلك الإحساس بالإعجاب الغيور الذي أشعر به نحو **الرئيس**.

وكما تعلم سيادتكَ، ليس بمقدوري استساغة أن يُوضَع الفوهرر على قَدَم المساواة مع **الدوتشِهْ** أخلاقيّاً، وفكريّاً. وكلَّما بدا لي أنني أرى في أحاديث الآخرين هذه النِّيَّة المستترة، أفقِد، صاحب المعالي، السيطرة على نفسي، وتصير ردَّة فعلي عنيفة.

اليوم، في الاتِّحاد، بدا لي أنني ألاحظ أن قادة الحزب يعتبرون هتلر - بسذاجة - البطل الرئيس لما يجري حاليّاً من أحداث. أقول بسذاجة؛ لأن الرفاق في كتانيا تربطهم **بالدوتشِهْ** محبَّة شديدة، وبسيادتكَ، وبجلالة

الملك الإمبراطور. لكن سذاجتهم تسبَّبت لي بجرح عميق! صاحب المعالي، فَقَدْتُ السيطرة على نفسي، وتذكَّرتُ بصوت مرتفع البتر الذي وقع رئيس ألمانيا ضحية له في الحرب الأخيرة، والتي سطع فيها، من جانب آخر، نجم فرقتنا العسكرية الرائعة - إنه بتر مشرِّف في حَدٍّ ذاته، لكنه يضع الفوهرر، جسديّاً أيضاً، على مرتبة أقلّ من التي يرتفع فوقها **دوتشِهْ** وطننا.

لن أقول إن السكرتير الاتِّحاديَّ قد أنكر الاختلاف بين قامَتَي الرجلَيْن، لكنه دافع في حماس شديد عن هتلر، حتّى إنه، عند حَدٍّ معيَّن من المناقشة، زلَّ بكلمات عنيفة، أهانت شرف العائلات.

صاحب المعالي، لا أوجِّه اتِّهاماً لأحد! بل أقول ما هو أكثر: أنا ألتمس العذر للجميع وأتَّهم نفسي فحسب.

وكلَّما أعدتُ النظر فيما قيل، وفي سَيْر تلك المشاحنة، تأكَّدتُ من أن أعصابي مُنهكَة، وأن محبَّتي **للدوتشِهْ** تتَّسم بنوع من سرعة الغضب، لا يسمح لي بخدمته بهدوء في لحظة اعتقد **سيادته** فيها أنه من الملائم أن يُقدِّم على نفسه رئيساً آخر، لا يطاول نصف قامته حتّى، لكنه قرَّر أن يسير معه حتّى *النهاية*.

لذا أتجاسر على تقديم استقالتي من منصب عُمدة كتانيا لسيادتكم، يا صاحب المعالي، قبل وزير الدَّاخليَّة، راجياً من سيادتكم أن تعتبرني دوماً خادم **الدوتشِهْ** شديد الولاء، والامتنان، وخادمكم.

احترامات فاشية، إلخ".

اعتبر أقارب إدواردو الخطاب نموذجاً للدّبلوماسيَّة؛ كانت الطريقة التي يعرض بها الأحداث هي الوحيدة التي تقيه الطَّرْد من الحزب، وربَّما النَّفْي أيضاً.

لكنْ، ما إن بعث به حتّى سقط فريسة للضيق.

- "أمن الصواب أن يضطرَّ المرء للكذب، كي يستطيع قول الحقيقة؟"

- تمتم في نفسه بينما كان يسلك أحد الشوارع العرضية، ويحاول تضليل شخص ما يقتفي أثره منذُ يومَيْن رافِعاً بصره للسماء بهيئة العاشق، أو متأمِّلاً السّحب كلّما توقَّف المطارد عن النظر إليه - "أمن الصواب أن أضطرَّ لابتلاع الكراهية التي يثيرها في رفيقه، كي أستطيع إبداء كراهيتي لهتلر؟ لقد بلغتُ غايتي، هذا صحيح، لقد استقلتُ من منصب العمدة! المنصب الذي أردتُهُ كثيراً، وتركتُهُ بلا رجعة. ولكي أرفض هذا الشرف القادر على أن يدير رؤوس ملايين الإيطاليّين، اضطررتُ لإذلال نفسي، كما لو أنني أتوسَّله. أوه، يا للزمن القذر! حتَّى الإباء صار له مذاق سيِّئ!".

عاد للتَّجوُّل في الطُّرُق المهجورة نحو الواحدة بعد منتصف الليل، وعلى المارَّة القلائل الذين يفتحون أيديهم أمام ناظرَيْه مُحيِّيْن: "أيُّها العُمدة! ..."، كان يجيب: "لستُ عُمدةً! لقد استقلتُ".

كان يسير بخطوات عاصفة مقلّباً في رأسه أشياءً غريبة، ومرعبة ... غداً، في الفجر، سيبعث بخطاب آخر إلى الكونت ك.:

"السَّيِّد المبجَّل، ستفطن بلا شكٍّ إلى أنني قد سطَّرتُ خطابي السابق بأسلوب اللياقة والحُمْق. لكنني أخبركَ بوضوح - تجنُّباً لوقوع سوء فَهْم بيننا - عن السبب الحقيقي الذي دفعني إلى تقديم استقالتي من منصب عُمدة كتانيا: الفاشية، **والدوتشِهْ**، والفوهرر وأنتَ، سيّدي الكونت، جميعكم تصيبونني باشمئزاز عميق، وقد وجدتُ أخيراً في نفسي القوَّة على ألَّا أقهرها. لأعوام، لم أمتلك هذه القوَّة، لكن الهواء ذاته الذي نتنفَّسه يزرع في رئاتنا الصبر والكذب. لأعوام، تجوَّلتُ ببزَّة العُمدة، وتمكَّن الناس- لدى رؤيتي والنَّسر الذَّهبيَّ أعلى رأسي عبر نوافذ سيَّارة البلدية- من تحيَّتي بأكثر الطُّرُق مداهنة، والاحتفاظ بصورتي، ليحملوها إلى المنزل، ويسخروا منها كيفما شاؤوا، ودون مجازفة. لكن تلك الأيَّام قد ولَّت. مَنْ يكتب لسيادتكَ الآن لم يعد يخشى - كما ترى - استخدام صيغة الاحترام، ويدعوكَ سيِّداً إلخ، إلخ ...".

عند هذا الحَدِّ، كانت أُذناه تُدوِّيان بصوت زوجته والأبناء. لا، سيكون الخطاب جنوناً بلا جدوى، لن تنشره أيُّ صحيفة، ولن يعتقد في صِدْقه أحد. سيُلقَى به في السجن متَّهماً بأنه قد طلب مئة ألف ليرة من شركة إنشاءات، ليمنحها مناقصة إحدى الطُّرُق! اتَّخذ خياله مساراً آخر ... صار رجلاً، استطالت قامته ثلاثة كيلومترات كارتفاع الإتنا تماماً. يقطع رجل كهذا، في كل خطوة، كيلومترَيْن. بعد مئتَيْن وخمسين خطوة صار على مشارف روما. تُدوِّي المدفعية في مواجهته، وهي بالكاد تخز بشرته بقذائفها، يسحق الطائرات بين يَدَيْه كناموس مزعج، ويطأ ويُشتِّت الجيش الذي يُفترَض به أن يُعيق مسيرته، دافعاً قَدَمَهُ يميناً ويساراً. ها هو ينحني على روما، يُدخِل يداً بصعوبة في مدخل شارع نومنتانا الضَّيِّق، محاولاً الإمساك بسيَّارة تسير بهستيريا هنا وهناك كنملة تحمل حشرة أصغر منها. نجح، أخيراً، في القبض عليها بثلاثة أصابع، وبينما ينهض على قَدَمَيْه، حملها على ارتفاع ثلاثة كيلومترات، بالقرب من عينَيْه. أخرج منها ما يشبه إنساناً يهزُّ قَدَمَيْه حتَّى إنه وضعه أمام عدسة مكبِّرة ضخمة، لتُبيِّنَ له قسمات مارشال الإمبراطورية الأوَّل، قسمات متناهية الصِّغَر، وغير مَرئية تماماً بالعين المجرَّدة ...

أيقظه صوت: "أيُّها العُمدة المبجَّل!".

وثب فزعاً.

أجاب: أحلاماً سعيدة لكنني لم أعد ...".

منعه انعدام الثقة والنفور من إكمال عبارته. لماذا يخبر أحد المارَّة ليلاً أنه قد استقال؟ أسيكون ذلك الرجل المسكين الذي أربك النوم وسنوات عدَّة من التركيز عقله، والعاجز الآن عن الاعتقاد بشجاعة، ولامبالاة أبناء وطنه، متأهِّباً لإنهاك ذهنه، كي يدرك أن حاكم مدينته قد استقال حقّاً، ولم يُفصَل، وأن السبب التافه الذي استقال لأجله يخفي وراءه سبباً آخر أشدَّ جدِّيَّة بكثير؟ لا، بلا شكٍّ. وإذنْ؟ كيف عليه أن يتصرَّف؟ هاج إدواردو

وماج كسمكة تونة سقطت في الشِّباك. ماذا عليه أن يفعل؟ ماذا يقول؟ أمن المحتمل أن يكتسي أكثر أفعال الغضب كرماً بثوب الإذلال والخضوع؟

قبل أن يُجيب الكونت ك. على خطابه، اعتبر نفسه مواطناً عاديّاً، ولم يعد يذهب إلى مقرِّ البلدية. كان يُجيب على طاقم السكرتارية الذي يهاتفه في المنزل باستمرار: "أنا لم أعد العُمدة".

- "لكنْ، أيُّها العُمدة ...".

- "لم أعد كذلك، أقول لكَ!".

- "بالنسبة إليَّ، ستظلُّ دوماً العُمدة".

- "وأنا آمركَ بأن تكفَّ عن اعتباري عُمدة!".

- "لكنْ، أيُّها العُمدة ...".

ليقطع سبيل الرجعة، بدأ في التَّردُّد على مكتب المحامي الاشتراكي رايموندو بوناكورسي، حيث تجتمع مجموعة من الأشخاص "غير المنتمين للحزب"، وقد تركت إبهاماتهم بصماتهم في سجلَّات المباحث العامَّة.

كان المضيف رجلاً اعتاد دوماً، خارج المحافل الخطابية وقاعات المحاكم، التَّحدُّث بصوت خفيض، كما لو كان مقرَّراً له منذُ لحظة ميلاده أن يقوم بدور المناهض لنظام يزعج الآذان. كان هذا الرجل الرقيق والمتردِّد يأسر مستمعه بحكمته قديمة الطراز، مفتلاً لحيته طويلاً قبل أن يجيب بأجل أو لا، وتاركاً إيحاءً بأنه إلى جانب أفكار أصدقائه المتعجِّلين البسيطة، والواضحة، وبعيداً عن الصُّحُف والكُتُب التي قرؤوها، توجد أفكار أخرى في صُحُف أكثر قدماً، وكُتُب أشدّ ندرة، في مواضع عميقة الغور من الثقافة يمكنه هو وحده أن يسعَهَا بعقله.

في الليلة الأولى عندما توجَّه إدواردو إلى مكتب المحامي، رمقه الجميع كرجل مثير للريبة. لكنْ، بعد ثلاثة أيَّام، كان يتربَّع في قلوب الجميع.

ساءت أحوال معارضي الفاشية القدامى بسبب الإحباطات الطويلة؛

خلَّف اعتياد الإخفاق في أنفسهم مرارةً، تُعذِّبهم شيئاً فشيئاً حتَّى أبطأت من نبضات قلوبهم. بدا صاحب المنزل أكثرهم تألُّماً بهذا، ومن وجهة نظر البعض، وولعاً بإحساسه الكئيب حتَّى إنه ليتخلّى عن نشوة الانتصار في سبيل متعة الإحساس بالمرارة.

كان مكتب المحامي يزخر بالأصوات الخافتة عندما اندفع إليه إدواردو بآماله العنيدة، ويقينه الحادِّ بأن الأشياء التي يمقتُها في سبيلها للزوال سريعاً.

كان يتردَّد على المكتب، بخلاف النُّوَّاب الاشتراكيِّيْن والدِّيمقراطيِّيْن، قاطع الطريق السابق دون لويجي كومبانيوني الذي لم يستطع استساغة أن يظهر أن نزاهته ودماثة خلقه اللَّتين بدأتا، في مصادفة بائسة، عام 1925، العام الذي محى فيه الطغيان قوَّة الشَّخصيَّة سواء في الخير أو الشَّرِّ،هما نتيجة الخوف . - "بحقِّ الله" - كان يقول - "يجب أن تعود الأيَّام التي كان الرجل يعلن عن انتمائه فيها تحت حَدِّ السيف! يجب أن تعود!" كان يأمل في عودتها، ليعيد نزاهته إلى البريق بين السيوف المشهَرة. لكنْ، منذُ عدَّة سنوات، وبالتحديد منذُ كلَّل النجاحُ الحملةَ الإثيوبية، غمر انعدام الثقة مكتب المحامي. وفي المدفأة بدا وكأن المضيف يضع ألواحاً من الثلج بدلاً من نيران الأمل. كان أكثر مَنْ يقاسي ذلك هما قاطع الطريق الطَّيِّب كامبانيوني ومحامياً شابّاً - باسكوالينو كانافو - المهووس بدندنة الأُغنيَّات الحديثة، والذي كان، حتَّى عام 1936، مَهووساً بالفاشية أيضاً. حارب، في ذلك العام، متطوِّعاً في أفريقيا مُغنِّياً "الوجه الأسود الصغير"، لكنْ، لأن مُنعت هذه الأُغنيَّة، ودخل أديس أبابا صامتاً تماماً، يملأ قلبه الضِّيق من شكٍّ غير مؤكَّد بأنه ليس رجلاً حُرّاً. بعد ثلاثة أشهر، صار الشَّكُّ يقيناً، وحرمه النوم. في عام 1937، أُبعِدَ بالفعل لمدَّة شهرَيْن، وعند عودته إلى كتانيا، بدأ في التَّردُّد على مكتب المحامي بوناكورسي، حيث ساءت حالته الصِّحِّيَّة، واضطرّ للتَّوجُّه إلى كيانشانو في الصيف.

كان من الطَّبيعيِّ أن يستقبل هذان الشخصان والآخرون أيضاً وصول إدواردو كفجر يوم جديد. امتلأ مكتب المحامي بصيحات وضربات على الموائد، وأغاني نابولي؛ نفضت آمال العجائز الجليد، وفردت أجنحة، جمَّدها الليل الطويل.

- "لن يقوما بالحرب!" - صاح إدواردو - "لن يقوما بها! أُراهن بحياتي على أنهما لن يقوما بها!".

- "لكنْ، معذرة، لماذا؟" سأل المحامي بوناكورسي.

- "لأن فرائصهما كلَيْهما ترتعد".

- "لديَّ شكوكي".

- "سيادتكَ، أيُّها الرئيس" - اندفع كومبانيوني بنفاد صبر - "ما الذي لا يطوله الشَّكُّ؟ ...".

ذات مساء، انتظر صاحب المنزل أن ينتهيَ دون لويجي من طبع القبلات على جبين إدواردو، لأنه صرح بأن "هتلر سيتسلم خوفاً"، وقال متمهِّلاً: - "أيُّها المحامي؟".

أعاد إدواردو ربطة العنق إلى داخل السترة بعد أن خرجت منها في أثناء ثورة العناق، وأجاب: - "أتحدِّثني، أيُّها الرئيس؟".

- "اسمعْ: يردِّدون في قصر ڤاكاريني أقاويل، تُسيء إليكَ".

- "أيّ أهمِّيَّة يجب أن يُشكِّل ما يقولونه في الاتِّحاد بالنسبة إلى رجل نزيه؟".

- "لكنْ، أتعلم؟ حتَّى القدِّيسين يخشون الافتراء".

- "ماذا يقول أولئك اللصوص؟" - تدخَّل دون لويجي بينما يلوي في الهواء، بيَدَيْه الكبيرتَيْن، خيال عنق - "ماذا يقولون؟".

- "إن سيادتكَ" - أكمل المحامي بوناكورسي ملتفتاً إلى إدواردو - "قد قدَّمتَ استقالتكَ من منصب العُمدة؛ لأن السكرتير الاتِّحاديَّ، في أثناء

إحدى الجلسات، أو المحافل أو التَّجمُّعات، لا أدري ما تُطلقون على تلك الاجتماعات، قد أشار إلى واقعة ابن خالكَ أنطونيو مانيانو".

مدَّ إدواردو شَفَتَيْه في إيماءة احتقار: "أستاذي العزيز، إن أحداً لن يُصدِّق كلماتهم. ففي بطاقة الحزب الفاشي يكتبون فعل صدق! لأن كل ما يقولونه - بلا تمييز - كذب. على أيِّ حال، لتعلم سيادتكَ أنني بطل تلك الواقعة في مقرِّ الاتِّحاد، لأنني قلتُ، أمام الرقباء كلهم، أن ق. هتلر أحرقه الغاز!".

- "أقلتَ هذا في قلب الاتِّحاد؟"- صرخ دون لويجي، وهو يهبُّ من مقعده بذراعَيْن مفتوحَتَيْن عن آخرهما - "يجب أن أُقبِّلكَ مرَّة أخرى!".

- "أجل، قلتُهُ وكرَّرتُهُ!" - تابع إدواردو بعد أن تحرَّر من هذا العناق - "لكنْ، اغفرْ لي فضولي، أيُّها الرئيس: مَنْ نقل إليكَ هذا النبأ؟".

- "المحامي تارجوني، وهو فتى رائع".

- "رقيب الحزب؟" - هتف باسكوالينو كانافو - "أتثق سيادتكَ، أيُّها الرئيس، في أحد رقباء الحزب؟".

- "إنه شخص مهذَّب للغاية، لم أتلقَّ منه إلَّا كل تبجيل!".

- "أيُّها الرئيس، أنا أتعجَّب منكَ! لا يوجد أشخاص مهذَّبون للغاية في ذلك الجانب".

- "يا أصدقائي، لقد تربَّيتُ في زمن يختلف عن زمانكم: في زمني كان الاتِّجاه السِّياسيُّ لا يمنع تقدير خصال أحد الخصوم الحسنة".

- "على أيَّة حال" - صاح إدواردو - " ليس أولئك بالخصوم، لكنهم قراصنة يريدون معاملتنا كالعبيد! أنا لستُ مستعداً لتقدير أيِّ خصال حسنة يتَّسم بها أولئك الأشخاص! أرفض تصديق وجود شخص جيِّد بينهم!".

غطَّت عاصفة من التصفيق كلمات إدواردو الذي كان يواجه خطر عناق ثالث من قاطع الطريق التائب.

عندما ساد الهدوء مجدَّداً، كان المحامي بوناكورسي شديد الشحوب، وهتف ملتفتاً إلى أنطونيو: "لأنكَ ستظلُّ فاشياً إلى الأبد!".

بدا وكأن دلواً من الماء قد أُلقي على الجذوة الوحيدة المشتعلة في تلك المدفأة، وعاد الصقيع القديم إلى المكتب.

نهض إدوارد، وذهب ليأخذ قبَّعته: "إذا كان كذلك" - لاكَ بين شَفَتَيْه - "سأنصرف على الفور".

هبَّ الجميع وقوفاً، وانطلقوا خلفه. حاول المحامي بوناكورسي ذاته منعه بذراعه. -"لا" - كان يكرِّر- "أيُّها المحامي لينتيني، أنصِتْ لي! ... لقد عنيتُ ...".

لكن إدواردو تحرَّر من يد المضيف، بحسم لطيف، وخرج.

- "لقد عنيتُ" - كان المحامي بوناكورسي يُلحُّ مُطلاً من سياج درجات السُّلَّم التي يُهرَع إدواردو قدماً على درجاتها الأخيرة - "أنكَ قد تربَّيتَ في زمن يختلف عن زمني، ومن الطَّبيعيِّ ألَّا تشاركني عاداتي ... التي ربَّما كانت خاطئة ... بل هي قطعاً خاطئة ...".

لكن الكلمات الأخيرة سقطت في بئر خاوية، لذا هُرِعَ المحامي بوناكورسي، يتبعه أصدقاؤه جميعهم، إلى الشرفة التي تطلُّ على الشارع.

- "اغفرْ لي!" كان الرجل الطَّيِّب يصيح في إدواردو الذي يبتعد في خطوات سريعة.

- "اغفرْ لي! أتوسَّل إليكَ!".

سقط زوار المكتب في دوَّامة الفتور: لن يعود ذلك الشَّابُّ الذي حرَّك بغضب المياه الراكدة مرَّة أخرى، ليبثَّ فيهم الحماس.

ولسعادتهم، عرَّج على المكتب، بعد يومَيْن، إرمينجيلدو فاسانارو.

تحلَّق الجميع حوله.

- "معارض الفاشية القديم، هه؟ بلا شكٍّ!" قال المحامي بوناكورسي مقدِّماً السَّيِّد الكيس إلى الأصدقاء، وهو يضرب كتفه بيده.

- "أنا لم أعد معارضاً للفاشية ولا مؤيِّداً!" أجاب إرمينجيلدو.

- "كيف؟ كيف؟ كيف؟ يجب أن تكون أحدهما بالضرورة!".

- "مَنْ قال هذا؟" سأل إرمينجيلدو.

- "لم يقلْهُ أحد ... لكنْ، إذنْ، معذرة، إلى أيِّ حزب تنتمي؟".

- "أنتمي لحزب الطُّفيليَّات التي ستلتهم جسدي بعد فترة وجيزة، أو، إذا أردتَ، أعتقد فقط فيما يوجد بجمجمتي، التي ستظلُّ قطعاً سليمة حتَّى وقت لا يصير فيه للفاشية، ولا لمعارضتها أيّ معنى".

أبدى الحاضرون كلهم استياءَهم. كان عداؤهم السِّياسيُّ قد صار الآن مخبّاً صلداً، لا تستطيع السعادة، ولا التفكير في الموت، الوصول إليهم فيه. كان إرمينجيلدو يُزعِجهم بكلماته في فظاظة.

بدَّلوا موضوع الحوار على الفور، وتوسَّلوا للضيف، كي يتوسَّط عند إدواردو بكل ما أُوتي من سلطة، ليقنعه بأنه ليس بمقدور المحامي بوناكورسي أن يهين أحداً، خاصَّة إدواردو الذي يُقدِّره، ويحترمه، ويمتدحه، إلخ.

وعد إرمينجيلدو أنه سيحاول لقاء عُمدة كتانيا السابق في اليوم التالي فوراً. أوفى بالوعد، وكان على إدواردو أن يلتقي بأحد أقرباء أنطونيو الذين حرص على تجنُّبهم حتَّى تلك اللحظة.

لم يكن موضوع الحوار الرئيس، بالطبع، ما وقع في منزل بوناكورسي، وهو الأمر الذي تحدَّثا عنه في كلمات قليلة معتبرينه قد أُغلق وانتهى، لكنها كارثة أنطونيو.

- "لماذا لم تذهبْ لزيارته قطُّ؟" سأل إرمينجيلدو.

نكس إدواردو رأسه. ثمَّ قال: - "لا أجرؤ على ذلك!".

- "لماذا؟".

- "إذا رأيتُهُ، ستغلبني الدموع كما لو كنتُ في حضرة ميت، ولن يمنحه هذا الشجاعة قطعاً".

- "آه، بالطبع لا. لكنْ، ألا يمكنكَ تجنُّب البكاء؟".

- "انظرْ!" - قال إدواردو وكشف عن عبرة سالت على وجنته - "إذا كان هذا ما يحدث لي إذا تحدَّثنا عنه فحسب، تخيَّل إن رأيتُهُ! تعلم أننا متحابَّان كإخوة".

- "بالضبط لهذا. لا يترك المرء أخاه في مصيبته. هيَّا، قرِّرْ، هلُمَّ لزيارته ... متى ستأتي، الليلة؟ صباح الغد؟ مساء الغد؟".

- "الليلة ذاتها!" أجاب إدواردو.

في الحقيقة، في تلك الليلة ذاتها، توجَّه إلى منزل آل مانيانو.

كان أنطونيو منديلٌ حريريٌّ يلفُّ عنقه، جالساً في قاعة الطعام أمام المائدة الطويلة المُعدَّة، والتي يستند إليها كتاباً.

ظلَّ الصديقان أحدهما في مواجهة الآخر لبضع دقائق، دون أن ينبسا بشيء. ثمَّ مدَّ إدواردو يداً عبر المائدة، وشدَّ بقوَّة على يد ابن خاله التي انزلقت منه.

- "إدواردو" - عند هذا الحَدِّ علا صياح - "إدواردو، تعال هنا!".

كان السَّيِّد ألفيو هو مَنْ ينادي من حجرة نومه، حيث يرقد، منذُ أسبوع، مريضاً بالحمَّى. عبر إدواردو الرواق يتبعه أنطونيو الذي ظلَّ متَّكئاً إلى جدار عندما دخل ابن العمَّة حجرة الأب. في هذه الحجرة، المعبقة بدخان البايب، احتضنت السَّيِّدة روزاريا إدواردو بقوَّة وصمت، وجذبتْهُ يد السَّيِّد ألفيو الملتهبة للجلوس على وسادة الفراش.

- "إذنْ" - بادر العجوز على الفور - "أيسمح ابن نيلّو كابانو لنفسه بإهانتنا مستغلّاً انضمامه للاتِّحاد؟! لكنْ، مَنْ يظنُّ نفسه؟ فيمَ يفكِّر؟ أين عقله؟ ألفيو مانيانو، ما إن يجمع عظامه، سيذهب ليجده، حتَّى إن اختبأ أسفل عرش الله، وسيضع هذَيْن الإصبعَيْن في عينَيْه!".

- "اهدأ" - أمرتْهُ السَّيِّدة - "إن لم تهدأ، لن تشفَى الحُمَّى".

- "ويجب أن تُسدي لي صنيعاً" - تابع السَّيِّد ألفيو ملتفتاً إلى إدواردو - "عليكَ أن تُقنع أنطونيو بأن يكتب للكونت ك. ليُبعِد عنا ابن نيلّو كابانو القذر كما كان دوماً. تناوَلْ قلمي، وأعطِه لابن خالِكَ. اذهبْ، وعُدْ بالخطاب! وإلّا، بحقِّ الله، سألقي بالأغطية، وأسير عارياً في الشرفة. ها هو القلم، اذهبْ!".

أخذ إدواردو القلم، وهُرِعَ إلى أنطونيو الذي كتب، تحت وطأة حَثِّ ابن خاله، ورغبته في أن يفعل شيئاً يُرضي العجوز، خطاباً طويلاً إلى الكونت ك.

قرأه السَّيِّد ألفيو بصوت مرتفع، وتنهَّد ارتياحاً. - "إذا أرضاني الكونت، سأُشفى في دقيقة واحدة!" قال.

لكن خطاب أنطونيو وصل روما بعد يومَيْن من وصول خبر كارثته التي تلقَّاها الجميع بالضحك.

- "لقد قلتُهُ وكتبتُهُ" - أقرَّ نائب سكرتير الحزب ڤينشينزو كالديرارا - "أن أنطونيو مانيانو لم يكن فاشيّاً حقيقيّاً". وتوجَّه للكونت ك. الذي مال بأنفه على طرف إبهامه، كما لو كان يتأمَّل: "ألم يبحْ لكَ بشيء، يا صاحب المعالي؟".

- "ولماذا عليه أن يُصارحني؟" هتف الكونت مستاءً.

- "طالما تفاخر بأنه صديق لسيادتكَ".

- "لقد التقينا في صالون آل ر .... وجاء إلى منزلي ثلاث مرَّات، بل اثنتان ... دعوتُهُ إلى الإفطار مرَّة واحدة ... لا أعتقد أن هذا ما تعنيه كلمة الصداقة".

- "لسماع والده، بدا أنه يتقاسم مع سيادتكَ، يا صاحب المعالي ...".

نهض الكونت منزعجاً تاركاً كالديرارا قبل أن يُكمِل عبارته. لكنه في اليوم التالي أملى على سكرتيره هذا الخطاب ردّاً على أنطونيو: "الرفيق العزيز، كلَّفني صاحب المعالي الكونت ك. بأن أُذكِّركم بأن رجال الحزب

يمكنهم تقديم شكواهم في حقِّ رؤسائهم عبر قنوات تراتبية. تحيَّات فاشيَّة ...".

وفي الوقت ذاته، أعطى أمراً لسكرتير الاتّحاد بيترو كابانا بأن ينشر بالحبر الأسود في صحيفة كتانيا البيان التالي: "قرارات الاتِّحاد الوطني الفاشي. تقرَّر سحب البطاقة من الرفيق إدواردو لينتيني لضعف الانتماء الفاشي. كما أنه انقطع عن أداء مهامّ العُمدة".

أُخفيت هذه الأنباء عن السَّيِّد ألفيو حتَّى يبرأ. لكنْ، عندما تعافى، وأمكنه الخروج من المنزل، وبعد نصف ساعة فقط، ألقى به الطريق مرَّة أخرى شاحباً، ومتداعياً كخرقة بالية: لقد قالوا له كل شيء، وبأسوأ طريقة ممكنة. وبينما يصعد درجات السُّلَّم، خائر القوى، فهم من المحامي أرديتسوني أن دوق بروتتي - بفضل دعم إحدى شخصيَّات الحزب القوية، والصديق الحميم لإحدى شخصيات الفاتيكان المؤثِّرة للغاية - سيحصل بأسرع ما يكون على بطلان زواج باربرا.

كان هناك ما يكفي ليعود العجوز إلى الفراش، وتُعاوِده الحُمَّى، والهذيان، وفي أثناء ذلك كان يتحتَّم إقصاء الأشخاص غير الموثوق فيهم، بشكل كاف من حجرته، واستبدال طبيبه المعالج الذي كان قائداً بالحزب طبيباً عجوزاً ماسونياً؛ لأن السَّيِّد ألفيو في ذروة الحمَّى كان يصبُّ السباب على كابانو، وكالديرارا، والكونت ك.، والنظام الذي ينسب إليه كل ما حطَّ به من مصائب. وفي الليلة التي بدأ فيها في التَّحسُّن، وجد أصدقاء المحامي بوناكورسي كلهم جالسين في حجرته بقبَّعات وعصي على ركباتهم، قاطع الطريق السابق كومبانيوني، باسكوالينو كانافو، الصَّيدليّ كاتشولا، الدكتور رابيساردي، المهندس مارليتي، العامل سبيرانزا، والمحامي بوناكورسي ذاته.

جلس من بين هؤلاء العديد إلى جواره كمساعدين في مجلس البلدية، في الزمن السعيد، الذي كان يمكن فيه البصق على الأرض بينما يمرُّ أحد الحُكَّام، وكان هو، كاشفاً ثوب أنطونيو، يُظهِر للجميع بفخر

وجود ابن ذكَر تحت هذا الثوب. وليتبع هذا الابن الذي عقد صداقات من كل نوع مع ذوي النفوذ من الجيل الجديد، ابتعد عن الأصدقاء الحقيقيِّيْن ... وها هو، تلك الليلة، والدموع تترقرق في عينَيْه، أراد أن يُقبِّلهم فرداً فرداً. وجعل أصغرهم سنّاً يُكرِّرون أسماءهم، مُنصِتاً لهم أوَّل مرَّة بأسف، ومُعلِّقاً في المرَّة التالية بكلمات: "حسناً! جيِّد! جيِّد حقّاً!".

قال لكومبانيوني: - "وأنتَ، دون لويجي، ألا تزال لديكَ العادة السَّيِّئة بأن تنسى شدَّ أزرار بنطالكَ؟".

حملق قاطع الطريق الطَّيِّب في السَّيِّدة روزاريا، واكتسى وجهه بالاحمرار كتلميذ صغير، ثمَّ التفت إلى الناحية الأخرى، ومرَّر يده سريعاً على تلك الأزرار التي ظلت حقّاً في ذلك المساء - ويعلم الشيطان لماذا - خارج فتحاتها.

- "وابنكَ" - سأل بوناكورسي - "كيف حاله؟".

رفع السَّيِّد ألفيو رأسه، ورمق صديقه في عينَيْه: - "هو كذلك ... كما يشاء الله! ... رايموندو، ..." - أضاف بصوت خافت - "أتعلم ما حلَّ بابني؟".

أدار المحامي يده اليمنى على هيئة قمع، ومال بها للداخل، كَمَنْ يُلقي عن كاهله شيئاً عديم الجدوى، وقد أراد بهذه الطريقة أن يُخلي ما حدث لأنطونيو من أيِّ أهمِّيَّة، أو جدوى.

- "لا" - أجاب السَّيِّد ألفيو - "لا، للأسف، ليس كذلك".

كرَّر المحامي إشارته مُرفِقاً بها تعبير ازدراء لكل مَنْ يعطي أهمِّيَّة، أو جدوى لأشياء من هذا القبيل.

- "لا" - أجاب السَّيِّد ألفيو مرَّة أخرى - "لا، رايموندو!".

كرَّر المحامي للمرَّة الثالثة عملية نزع القيمة، وأضاف إليها رفعة كتفَيْه حتَّى إن عنقه اختفى لدقيقة حيث ابتلعتْهُ السترة.

- "أجل ؟" - سأل السَّيِّد ألفيو وقد تسلَّل إليه الأمل قليلاً.

- "قطعاً!" قال المحامي.

طلب منه العجوز أن يقترب؛ لأنه أراد تقبيله مرَّة ثانية.

بعيداً عن حجرة النوم تلك، في نهاية الرواق، في حجرة الطعام، انزوى أنطونيو وإدواردو.

- "هلُمَّ، أتوسَّل إليكَ، لتُحيِّي الأصدقاء!" - ألحَّ إدواردو محاوِلاً اقتياد ابن الخال إلى حجرة السَّيِّد ألفيو - "أؤكِّد لكَ أنهم من نوع آخر تماماً ... يرون الأشياء من موضع منفصل للغاية. لقد قرأ المحامي بوناكورسي ثلاثمئة كتاب في الفلسفة، ولا أدري كم من الشعراء، ويحفظ الدكتور رابيساردي عن ظَهْر قلب كل لوحات متاحف روما، وفلورنسا، وباريس، ويعرف المهندس مارليتي باخ، وبيتهوفن كما يعرف المال الذي يحمله في جيبه ... إنهم لا يتدخَّلون في شؤون الآخرين ... كيف يجب أن أقولها لكَ؟ ... ما يهمُّ، من وجهة نظرهم، هو سمات الشخص الأخلاقية ... إنهم رجال نادرون، لم يعد العالَم يُنجب أمثالهم رجالاً على هذه الشاكلة. يمكنكَ أن تقرأ في وجوههم أن أُمَّهاتهم كنَّ نساءً، لا يخجلنَ من شيء، قويَّات، وفُضْلَيَات".

- "وكيف هنَّ أُمَّهاتنا؟" تمتم أنطونيو منزعِجاً.

- "أوه، أُمَّهاتنا قدِّيسات. لكنْ، مَنْ يقول إننا أبناؤهنَّ؟".

- "لن أذهب هناك، إدواردو!" - أوجز أنطونيو - "إنه جهد لا طائل منه!".

- "حسناً، كما تريد".

ظلَّ بنو العمومة طوال الأُمسيَّة في الظلام، بالقرب من الشرفة. وبين الحين والآخر، ليبعثوا ضوضاءً من أيِّ نوع في الغرفة، كان أنطونيو يسعل، وبعد قليل، على سبيل الإجابة، كان إدواردو يتنحنح.

مرَّت أُمسيَّات عديدة بهذه الطريقة؛ ولأنهما لم يمتلكا شجاعة الحديث

بصراحة عن الشيء الرهيب الذي وقع لأحدهما، لم يكونا يتحدَّثان، فكل موضوع آخر يدور عنه الحوار، كان يجعلهما يشعران أكثر بفداحة ما يتجاهلان، ولم تنجح أحداث سبتمبر الجسام، وأوامر إظلام المدينة، وصيحات هتلر المنبعثة في الطُّرُق شبه المظلمة من مكبِّرات الصوت المعلَّقة بالشرفات، واستدعاء الجُند، وموناكو، - أقول - لم تنجح في أن تحوِّل إلى كلمة واحدة في فاهَيْهما الملتويَيْن بالمرارة.

الفصل الحادي عشر

"الناس تتكدَّس
عند أعمدة البوَّابة،
بعضهم بصوت خافت
يضاهي فراغ
العمود الأخير".

بلاتسيسكي

"حُرَّةٌ الآلهة من أيِّ رباط، محكوم على الإنسان بالشقاء ...".

هوميروس - مونتي

" ربَّما آلامنا، وربَّما السماء
الأحداث المؤلمة، والمشاعر التعيسة
تضفي على أوقاته مظهراً بهيجاً".

ليوباردي

لشهرَيْن لم يضع أنطونيو قَدَماً خارج المنزل مواسِياً نفسه كل مساء بصمت ابن العمَّة إدواردو المتعاطف. في نهاية نوفمبر، اقتنع بنصائح أحد أصدقاء بوناكورسي - المهندس مارليتي - الذي هربت منه زوجته منذُ عامَيْن، وصديقته في العام التالي، وكان يَخبرُ عندئذ بشكل جيِّد للغاية الأزقَّة والوسائل والأوقات التي يستطيع فيها رجل طالتْهُ فضيحة، أن يبدأ ببطء، وبحرص العودة إلى أغراب، اعتادوا بالفعل عدم رؤيته أو الحديث عنه طوال اليوم.

كان المهندس يرتدي معطفاً واقياً للمطر؛ ويسير إدواردو عابساً، والعصا تحت إبطه مديراً بصره الكليل بسخط بين أعمدة الإضاءة التي يظنُّها رجالاً توقَّفوا للتَّطلُّع إليهم، وأنطونيو يتقدَّم في المنتصف، ويده على ذراع ابن العمَّة، وياقة السترة مرفوعة حول عنقه، وعيناه منكستان. كان الليل قد تقدَّم، والنوافذ التي كانت تمطر منها النظرات على أشدّ الصّقليِّيْن وسامة تبدو مُوصَدة. لكنْ، إذا لمع بين أخشاب أحد المصاريع ضوء مصباح، كان قلب أنطونيو ينبض بعنف، ويكاد يُطلق صفيراً كمروحة يغمرها الماء. وسرعان ما يدور بخياله ذلك الشيء العذب الملتهب الذي هو العينان الأنثويّتان الملتصقتان بالمصاريع، ويتخيَّل ضفائر تنسدل على صدور عارية وأكتاف أردية نوم منزلقة من الذراع إلى المرْفِق، ويتصوَّر مرايا، أخفاف، أحذية، ملابس داخلية، شرائط، مظلَّات صغيرة، أمشاط، فراء، أقراط، زركشات، حلي؛ ويحمل له هذا كله أصداء لوم، محرِّكاً داخل صدره بوادر الفزع. كان أنطونيو يُسرع الخُطى، ويُسرع الصديقان الخُطى أيضاً، وكأن محرِّكاً قد انطلق.

في تلك النزهات، بالقطع، كان إدواردو، والمهندس مارليتي يتجنَّبان بشتَّى الطُّرُق الاقتراب من قصر آل بوليزي، ومن جانب آخر، كان أنطونيو يبدو وكأن عنقه قد تصلَّب حرصاً على ألَّا يلتفت شطر ميدان سيتيسكورو.

لكنْ، عندما كان يعود إلى المنزل في الثانية بعد منتصف الليل، ويطلُّ من الشرفة الصغيرة، كانت عيناه تُهرعان سريعاً إلى ذلك السطح الأسود، واللَّامع كظهر سمكة كثيرة القشور، ذلك السطح الذي تخلد تحته للنوم باربرا، وحيدة تماماً، وطاهرة، بفم شبه مُغلَق على الوسادة، ورائحة بودرة رقيقة ملتصقة ما بين الجسد ورداء النوم، اليد اليمنى ترقد على الإبهام والأصابع نصف مغلَقة بلطف. يلمع كتاب القدَّاس، مغلَّفاً بالجِلْد، وملتفّاً بحبَّات السُّبْحَة مرَّتَين، باللون الأسود على الخزانة الجانبية كمسدَّس. ويُلقي مصباحٌ صغيرٌ ملتفٌّ في حرام أزرق على الوسادة الخالية التي كان

يسند إليها وجنته ضوءاً مَرْمَرِيّاً، بينما يجعل شَعْر باربرا الأسود الغارق مع رأسها بين وسادة، وأخرى ككتلة من الظِّلّ.

كان أنطونيو يُدرك أن كل ما يدور في ذلك الرأس يدور بنظام دقيق كالساعة، وأن مدارات ذلك التفكير تمرُّ بصرامة على صور، يُمليها الواجب. ولن تكون صورته أبداً! وكان يشعر، والعَرَق البارد يغمر جسده كله، أن صورته لن تلج أبداً إلى ذهن تلك الفتاة، وإن استرخى بفعل النوم! ويحدِّد، بدقَّة الهَوَسِ الشديدة، الموقعَ الذي يستند إليه في تلك اللحظة جبين باربرا، ذلك الجبين الناصع، القوي، الموصَد، والذي لن ينجح هو أبداً في التَّسلُّل إليه، ولا حتَّى ليلاً ... وعندئذ يتملَّكه هاجس قلق، وكان يسير ذهاباً وإياباً في الشرفة، ويتوقَّف بين الحين والآخر ضامّاً صدغَيْه ومُغلِقاً عينَيْه، ثمَّ يهزُّ رأسه، ويهزُّها مجدَّداً زافراً من بين أسنانه المغلَقة أنينَ يأسٍ.

كان يدخل الفراش، ويمكث بعينَيْن مفتوحَتَيْن، ليرمق بدقَّة الظلمة التي تسود أمامه. ونحو الفجر، عندما يستدعي الأب الخادمة - ليس بصوت الأيَّام الخوالي الجميل والساخط، لكنْ، بأنين فاتر ذليل - كان أنطونيو يُغلِق عينَيْه، وينام.

لكنْ، ماذا نقول؟ إن هذا الرجل ذا الخامسة والثلاثين، الوسيم في الزمن البهيج، قد صار عبر الأرق والإذلال والمرارة أشدّ وسامة لأقصى حَدٍّ!

كان إدواردو يتطلَّع إليه، ويعاود التَّطلُّع بدهشة يكسوها الألم؛ لم تبدُ علامات الفحولة قطّ أكثر وضوحاً وإثارة، لم تبدُ الرغبة في المرأة أكثر قوَّة قطُّ على وجه رجل مرغوب بهذا الشكل.

- "إمَّا إنني لا أفقه شيئاً" - كان إدواردو يفكِّر - "أو إنني لا أستطيعُ الحُكم، لأني رجل".

لكنْ، لم يكن رأي النساء يختلف عن رأيه.

منذُ فبراير عام 1939، عندما بدأ يخرج نهاراً أيضاً، كان على أنطونيو أن

يتواءَم مع أن النساء يُطلقنَ نحوه نظرات عميقة الرِّقَّة، حتَّى إنه كان يضطرُّ للإبطاء من خطواته في كل مرَّة، كَمَنْ يتلقَّى على بشرته دفئاً يخفت.

ذات صباح، رأى على السُّلَّم العانس أرديتسوني متصلِّبة عند بداية المستراح الثاني، تكاد تُلقي بنفسها على الدرجات، لتمنعه من المرور. حاول أن ينسلَّ بطول الجدار المقابل، لكنه، كلَّما تقدَّم، تحيَّنتِ العانسُ الفرصةَ، لتخبرَه بعينَيْها أقصى كلمات الحُبِّ والتفاني، وعندما صار في مَرمَى يَدَيْها، ألقت بذراعَيْها حول عنقه، وجذبتْهُ إلى صدرها الملتهب، واللَّاهث مُسيلة على وجنَتَيْه خيطاً ساخناً من الدموع.

تخلَّص منها أنطونيو بجفاف، وفرَّ بعيداً على السُّلَّم.

كان الانفعال والغضب، وهو في سبيله للخروج إلى الطريق، قد قلبا كيانه رأساً على عقب؛ كان يفكِّر في أن نبأ حالته قد حرَّر النساء من أيِّ تحفُّظ، وخجل فيما يخصُّه، وأنهنَّ يمارسنَ معه تلك الذُّكُورة التي يعلمنَ أنه محروم منها. أنهى نزهته المعتادة، ووجهه يشتعل بالاحمرار كطفل تلقَّى صفعة على وجهه؛ كان يكتسي باحمرار شديد حتَّى إنه غسل وجنَتَيْه وجبينه في نافورة أحد الميادين الخاوية. وبعد ساعَتَيْن، بينما يلتقي إدواردو، كان وجهه لا يزال قِرمِزيّاً، كما لو أن عناق العانس قد حدث منذُ دقيقة واحدة.

حاول إدواردو أن يأخذه إلى مكتب المحامي بوناكورسي، لكن أنطونيو رفض بشكل قاطع: - "لقد فعلتُ حتَّى الآن ما أردتُّموه منِّي: خرجتُ ليلاً، ثمَّ خرجتُ نهاراً أيضاً، أذهب للكنيسة يوم الأحد، أتردَّد على المقاهي ... لكنْ، لا تطلبْ منِّي ما هو أكثر!".

لم يصرّ ابن العمَّة.

- "يجب أن أذهب إلى هناك" - قال - "تحيَّة".

تابع أنطونيو جولته ناقلاً بصره بين أسطح وشرفات المدينة الجميلة.

في هواء صقلية، كان يبدو أن النظر ينساب ببطء، بينما يكتسب كل

ما يمسُّه من أشياء عذوبة. من داخل أحد الأبنية التي تمتلئ شرفاتها بحشيات الفراش، البُسط وأصص الجريد، يعلو غناء إحدى النساء من بين ضربات المنفض، بينما تقف سحابة من الغبار، بعد أن تجاوزت ببطء الشرفة المعتمة، معلّقة في الهواء، كما لو أن أشعَّة الشمس قد أعمتْها ... الحُرِّيَّة، الجمال، الطِّيبة، لمَنْ مِنْ هؤلاء الآلهة الثلاث يُطلق تنهيداته الثقيلة، كما لو أنه قد تحرَّر من الثقل الذي يجثم على صدره؟ ما كان سيفعل بأريحية، لو أنه قد فعل قبلاً ذلك الشيء الآخر؟ في بيانا، بينما كان يعيش مع باربرا، في الأمل، رأى قرنه وعصره وهذا الشخص الذي يراه البعض سعيداً، وآخرون مُرعِباً، البعض طاغية وآخرون حُرّاً، متسربِلاً باللون الرّماديّ، بلا عينَيْن ولا فم، باستدارة وجه، تضمُّ نصف السماء. وها هو، يعاونه المفكِّرون الذين يقرأ لهم، يُقيم أيضاً زمنه. ومَنْ يدري أيّ صفة قد تُنسَب له، أو أيّ كُنيَة قد تُخلِّده للأبد؟ حُرِّيَّة الطغيان؟ ليبرالية الاشتراكية؟ مثالية الماديَّة؟ حسيَّة الروح؟ ... بحقِّ الله، كم من الأشياء بمقدور مَنْ تحرَّر من قيوده أن يختار بينها!

عاد إلى المنزل بألم حادٍّ في رأسه؛ لأن التفكير الذي كان سيشرع فيه بدا له مُنهِكاً.

في اليوم التالي تلقَّى مظروفاً معطَّراً، أغلق على نفسه في حجرته، وفتحه: كان خطاباً من امرأة، وبينما هو يقرؤه احمرَّ وجهه، وأغرقَهُ العَرَق:

"عزيزي أنطونيو،

لا يوجد احتقار يُكافِئ ابنة محرِّر العقود تلك التي أردتَ تشريفها بإعطائها اسمكَ! إن أمكنني المكوث معها في حجرة واحدة، سأُمزِّقها إرْباً بأظافري!

أهذا ما تعلَّمتْ على مراكع الماهوجني، والمخمل الأحمر في منزلها؟ أهذا ما اعتقدتْ أنها تسمعه بين كلمات الصلاة؟ لقد كنتُ أنا أيضاً ابنةَ مريم، وعلَّمتْني العذراء شيئاً آخر تماماً: علَّمتْني أن أُحبّكَ، أُحبّكَ

للأبد، أُحبّكَ كعروس مخلصة وفية، أُحبّكَ برأس مرفوع، بكل ما أُوتي نقائي من قوَّة!

عندما سيتمُّ إبطال زواجكَ، تذكَّرْ أنه في الزاوية الثانية من شارع عشرين سبتمبر يسكن قلب مفعم بحُبِّكَ من سنوات، تسكن أمَةٌ على استعداد لقضاء ما تبقَّى من حياتها معكَ (والذي يمكن أن يمتدَّ طويلاً: فأنا أبلغ الثامنة عشرة)، عند قَدَمَيْكَ، ككلب، إن شئتَ، لن يرفع حتَّى عينَيْه، ليتطلَّع لوجهكَ، سعيد بأن يراكَ تسير على الأرض التي يضع وجهه عليها ...".

كان هذا أوَّلَ غيث، بل سيل من الخطابات من كل شكل ونوع: موقَّعة، ومجهولة العنوان، طويلة كالاعترافات، وموجَزة كالتلغرافات، بعضها آمر حتَّى إنها تبدو مُرهِبة، وبعضها متوسِّل، بكتابة مستقيمة، أو مائلة للأمام، أو الخلف، واضحة أو مضطربة، متنافرة ككتابة وسيط روحاني، أو متناغمة متماثلة، كما لو أن ريشة قد سطَّرتْها. واحدة تقول: "ما إن نُغلق الباب سيفور دمكَ". وأخرى: "مَرِّرْ يداً على جسدي، جَرِّبْ، لقد أتيتَ بمعجزات". لكن الغالبية كانت خطابات فتيات: "أن أعيش على حُبٍّ روحيٍّ، نظرات، كلمات، تفاهم، لقد كان هذا حُلمي دائماً!"، أو: "ذات مساء، في تاورمينا، في حديقة فندق سان دومينيكو، بدا لي أن خطيبي قد أصابه خَطْب ما، أثار بي، بدلاً من الشفقة عليه، الرعبَ، والازدراءَ: أوضحَ لي فيما بعد أن ذلك كان حُبّاً لي، إنه حُبُّ الرجال للنساء. قَضَتْ عليَّ الصدمة! فسختُ الخِطبَةَ، وأقسمتُ أن أصيرَ راهبة. كان أيّ مكان، حتَّى أكثرهم ظلمة، ورطوبة، وإزعاجاً، وأكثرهم اختفاءً خلف أسوار شديدة الارتفاع، سيبدو لي جنَّة، لمجرَّد أن لا أحد من الجنس الآخر يستطيع التَّسلُّل إليه. لكنني أشعر الآن بروحي كلها بأنه ليس بمقدوري الوفاء بالنَّذْر حتَّى أتزوَّجكَ، أنتَ، يا أنطونيو، حبيبي الغالي. هذه الليلة زارتْني في الحُلم القدِّيسة كاترينا، وأخبرتْني أن قلب المسيح يُحلّني من أيِّ ارتباط. لنتزوَّج، يا

أنطونيو، لنتزوّج سريعاً ...". أو: "ألا تتذكّر، يا أنطونيو، الطفلة ذات الخمسة عشر عاماً التي كانت تحمل غطاء رأس باربرا يوم زواجكما؟ تلك الطفلة صارت الآن امرأة، وتندم لأنها لم تُلقِ زيتاً وعوداً من الثقاب على الغطاء الذي كانت تحمله، لتحرق داخله المخلوقة الشائنة التي جرؤت على قول "أجل" كاذبة أمام الله. لكم حقدتُ عليها في ذلك اليوم! كم تمنَّيتُ أن أصير إحدى عينَيها أو شَعْرة من شَعْرها، لأتزوّجكَ أنا أيضاً لبُرْهَة! كم تمنَّيتُ أن أصير يدها التي تحتضنُها! لكنْ، كان عليَّ احتقارها، ومطالبتها بالاحترام الذي يحقُّ للنساء المخلصات على الكاذبات! ... لقد مزّقتُ الصور كلها التي كنتُ أبدو فيها خجلة ومتواضعة خلف كتفَي ذلك الوحش، لكنْ، بالقطع، بعد أن فصلتُ صورتكَ التي أحملها الآن في قلبي. أنطونيو، ألم تكن مشيئة الله التي وضعتْني على هذا القرب منكَ في اللحظة التي كنتَ تطلب فيها رفيقة لكَ في الحياة، وفي الموت؟ أوَ لَمْ نتزوّج حقّاً لبُرْهَة؟ ألم أُجبْ أنا، بصرخة من أعماق قلبي، عن سؤال الراهب: "هل توافقين على الزواج من أنطونيو مانيانو؟". ألم أجب بـ "أجل: ارتفعتْ أكثر بكثير من تلك التي بصقتْها باربرا من فمها كفاكهة فاسدة؟ ألم يستمع الله لـ "أجل" التي نطقتُ بها؟ وأيّ "أجل" أخرى يمكنها أن تبلغ عنان السماء، إن لم تكن تلك التي نطقتُ بها، والتي خرجتْ من قلب مفعم بعشقكَ، والقلق، والخوف عليكَ، والرغبة فيكَ ...؟ إلخ، إلخ". أو: "في أثناء جولاتك اللَّيليَّة بشارع ريجينا مارجريتا، ربّما تعتقد أن الجميع يخلد للنوم في المنازل التي تمرُّ عليها شيئاً فشيئاً. لكنني لا أنام. إن حجرتي شبه أرضية، ونافذتي، عندما أفتحها، تمتلئ بأحذية، تنانير، بنطلونات، كلاب، قطط، عجلات عربات، أقدام جياد، أشياء تأتي جميعها من هنا وهناك، وتتوقّف أحياناً، لتحرمَنا الضياء. ومن فراشي الذي يستند إلى الجدار المواجه، كنتُ أسمع كل ليلة، نحو الواحدة بعد منتصف الليل تماماً، صوتاً يتخلص من الضوضاء البعيدة والغائمة كلها، التي تزخر بها المدينة في تلك الليلة، خاصّة في

طريقها الرئيس الذي يقطع مدخل الشارع على بُعد قليل من الأمتار من منزلي. كان قلبي يتعرَّفه على الفور، ويثب، وأثب أنا معه، خارج فراشي. وها هو الصوت يترك خلفه كل ما عداه، ويلج هدوء الشارع متصاعداً من رصيف لآخر. ليلاً، أتذكَّر كيف تكون أشجار الشارع الذي أسكن فيه، وكم هي مرتفعة، ويتَّحد بهذه الصور صوت خُطاكَ بشكل يزداد عذوبة، حتَّى إن قلبي كان يغوص في قَدَمي. وبينما أترنَّح كَمَنْ توشك على أن يُغشى عليها، كنتُ أتوجَّه إلى النافذة، وألصق بها عينَيّ. وبعد أن أرفع خشب المصراع. دقيقة أخرى ... وها هما قَدَمَاك الغاليتان وقد صارتا أمام ناظرَي ... كان بمقدوري أن أمدَّ ذراعي، وأُمسك بهما! كنتُ أراكَ تتعثَّر بعذوبة، أراكَ تصرخ، ثمَّ تجذب قَدَمَيْكَ وتتابع سيركَ، أو تنحني وتبتسم لي، تجلس إلى جوار نافذتي تتحدَّث إليَّ، تُقبِّلني، تجذبني إلى الشارع من شَعْري، تقفزَ إلى حجرتي ... ويتوالى حشد تلك الصور، في طرفة عين، حتَّى إنني كنتُ أظلُّ نصف واعية، ووجهي يلتصق بالمصراع بينما يبتعد صوت خُطواتكَ بين خيالات أشجار الدُّلب الأكثر شحوباً من تصوُّري الأشجار القريبة من منزلي، وشديدة الوضوح - كما خُطاكَ المعشوقة - عندما تمرُّ إلى جوارها ... عزيزي، أنطونيو حبيب قلبي، لماذا تزوَّجتَ من تلك المرأة؟ لماذا هجرتَ جولاتكَ اللَّيليَّة، وأنتَ أعزب؟ أنا لا أبغي الزواج منكَ، لا أبغي المكوث معكَ في منزلي شبه الأرضي. أريد أن أسمعكَ تمرُّ ليلاً فحسب، أسمعكَ تمرُّ دوماً. بخطاكَ الشَّابَّة، بخطاكَ كرجل حُرٍّ من أيِّ امرأة، بخطاكَ التي ارتبطت بعذوبة الليل الذي أتممتُ معه عشرين عاماً، والذي توهَّمتُ فيه أنكَ، ما إن تصل بالقرب من نافذتي، ستستريح لبُرْهَة وكأنكَ تعلم أن خلف ذلك المصراع توجد امرأة أتمَّتْ عشرين عاماً لأجلكَ، فقط لأجلكَ أنطونيو، حبيب الروح ... إلخ".

أحْنَقَتْهُ لأقصى درجة هذه الخطابات التي قد تثير البهجة في أيِّ شخص آخر، بدلاً من أن تهدِّئ منه، كمداعبات ساذجة - ودونما قصد -، مُهينة،

ومُؤلمة. وفي نوبة غضبه الذي كان يزداد يوماً بعد آخر، ساوره الشَّكُّ بأنه يُثير في النساء شهوة غير عادية، غير طبيعية، تتَّسم بشيء من الوحشية، ما يُسمَّى بالحُبِّ الرُّوحيِّ فقط، والذي يُخفي - من وجهة نظره - تحت ستار العطف والنقاء، عنفاً ذُكُوريّاً وحشيّاً. كان مسلك النساء معه كمسلك الرجال مع النساء؛ أعطى جميعهنَّ الحقَّ لأنفسهنَّ بالكتابة إليه، وتوجيه الحديث إليه، وتزيين السوء له، وإخفاء الحقيقة تحت ثوب من التهوين المخاتل، والتَّصرُّف بطريقة لا تُثير فزعه، وأخيراً إقناعه بأن يضع نفسه مطمئناً بين أيديهنَّ. أليست هذه وسائل أكثر مناهج الإيقاع بالنساء استهلاكاً؟ لقد صار طريدة عملية صيد، تقوم بها قلوب نقية، وأنفس نبيلة، وكائنات ضعيفة ظاهريّاً، وهشَّة، لكنها، في جوهرها، مُفزعة. كان يشعر بشراهتهنَّ التي تأخذ من الرُّوحانيَّة فحسب، كونها لا نهائية، غير قابلة للترويض والسيطرة والإشباع، يشعر بها تلتهمه من نوافذ مرتفعة، ومنخفضة، من قضبان دانية من الأرض، من أعين نصف متَّجهة لكُتُب الصلاة، ولا تزال مُندَّاة بسماء الليل التي طال التَّطلُّع إليها؛ كان يشعر باستياء كريه يغزو جسده كله، وهو يصطدم في كل لحظة بأفكار نساء، يجهلهنَّ، تجعله يشتعل احمراراً من الخجل.

وكلَّما اتَّضح في هذا الطريق أو ذاك وجود أحد القلوب المُتيَّمة، غَيَّرَ مسار نزهاته، وعند عودته إلى المنزل، يُلقي على الفور نظرة يملؤها الاحتقار على سطح المكتب، حيث لا بدَّ أن تتكدَّس مجموعة من الخطابات البيضاء لأجله. هكذا كُوفئت نزعات عديدة، ومشاعر عطف، وصبر، ووَله، عميقة ورقيقة، بالغضب والجفاء. هكذا صارت فتيات في شدَّة الخنوع والتَّيُّم ممقوتات بشدَّة.

في هذه الأثناء بلغت كارثة أنطونيو أوجَها.

اختتمت القضية التي أحالتها المحكمة الأبرشية إلى المحكمة العليا، والتي لم يُرسِل إليها آل مانيانو، فزَعاً من اضطرارهم مناقشة موضوع مشابه، بمَنْ يُمثِّلهم، ولم يُبدوا أيَّ تحفُّظ، في يونيو عام 1939 ببطلان الزواج.

علم أنطونيو أن باربرا تُلقَّب، في المجالس، بصوت مرتفع، وبإصرار، بـ "آنسة". ذات يوم، بينما يعبر طريق ريجينا مارجريتا، من الجنوب للشّمال، ليتحاشى منزل فتاة الطابق شبه الأرضي، رأى عدداً كبيراً من العمَّال اليدويِّين فوق واجهة وسطح قصر آل برونتي، وبينما هو يمعن النظر مرتعباً في أكثر هؤلاء العمَّال حِذقاً، والذي يعمل معلَّقاً إلى صارٍ، ورأسه لأسفل، وقَدَمَاه لأعلى ليغطي، بسطح أعلى، حضرة باربرا والزوج المستقبلي، أُصيب أنطونيو بدوار شديد العنف، يصاحبه طنين. اضطرَّ للعودة إلى المنزل في عربة. وفي اليوم التالي، علم أن الاحتفال بزواج الدوق سيكون بعد خمسة عشر يوماً.

- "لكنْ، كيف، بهذه السرعة؟".

- "خلال خمسة عشر يوماً!".

بفضل علاقات وطيدة داخل الحزب والحكومة، كان أمراء ودوقات برونتي ينالون أيَّ شيء، وفي أقصر وقت ممكن، محرِّكين هذا وذاك، لأعلى وأسفل، وباعثين النشاط في الهيكل الوظيفي كله؛ لأن تأثير نفوذهم شديد الدَّويِّ في روما كان قادراً على أن يكشف وينقب، بآخر ما وصل إليه تنوُّعه اللَّانهائيّ، في غور ظلمة أشدّ المكاتب النخرة والمنهارة في البلدة، عن أكثر الموظَّفين كسلاً، وأعلاهم غطيطاً. كانت الإجراءات، التي ترحف مع الآخرين من مكتب لآخر كَحَلَزُوْن، تقفز معهم، من مكتب الأسقفية إلى محكمة، من محكمة إلى وزارة، من وزارة إلى كنيسة.

أمَّا دوق برونتي الذي لم نذكر أنه يُدعى نيني، وقد أصابه حُبُور الحدث تقريباً باضطراب في القلب، اضطراب شديد الخطورة، حيث يتخلل الأمور الجميلة والمبهجة متاعب وقلاقل، فقد زاد وزنه حتَّى اختفى عنقه؛ وعلى الطرقات -حيث كان محطّ انحناءات عميقة وابتسامات - شوهدت تمرُّ، تحت اسمه، كتلة هائلة من اللحم البشري مركَّبة من ملفَّيْن متعاكسي الاستدارة، الملفّ العلوي شطر اليمين، والسّفليّ شطر اليسار، ثمَّ العلوي

شطر اليسار، والسّفليّ شطر اليمين. لكنْ، مَنْ يجرؤ على اختزال ذلك الرجل ببساطة هيئته فقط؟ فوراءه تلوح في أعين الجميع خلفية أراضيه الشاسعة المهيبة التي لم يكن جواداً مطلق العنان ينجح في قطعها طوال ليلة كاملة؛ وإذا كان هو تافهاً، فجليلة وقاسية الجبال التي يضمُّها نطاق ممتلكاته، وهي ملكية خاصَّة، لا تمسُّها حتَّى الطيور التي يُطلق عليها الحراس النارَ بغضب شديد، وتنبح الكلاب متتبِّعة إيَّاهم بلا هوادة لأعلى عبر المنحدارت الصَّخريَّة؛ وإذا لم يكن هو جميلاً، فشديدة البهاء حدائق ليمونه الداكن واللَّامع وحقول القمح المتوهِّجة بلون الخَشْخَاش الأحمر.

لم يكن عبقريّاً على الإطلاق، وربَّما لم يكن حتَّى ذكيّاً. لكنْ، كيف تقال العبارة المعتادة: "غبي، ماذا أقول لكَ، غبي!" لرجل يمكنه الإجابة بخُوَار ونُبَاح وثُغَاء وصَهِيل آلاف الحيوانات التي يمتلكها، حيوانات تأكل عشب مراعيه، أو تُنحَر لأجله، أو تنكمش لرؤيته فقط، إلى جوار الكبائن، وقد كانت تحاول قبل ذلك بقليل تحطيم قيودها لتهاجم المارَّة المكسوِّين بالغبار؟

من جانب آخر، كان رجلاً شديد العذوبة، من أتباع القدِّيس أنطونيو في بادوفا، رجل يركع عشيَّة العام الجديد بين الحشد الأنيق في منتصف الكنيسة، وبعد أن يُسند رأسه إلى راحَتَيْه طويلاً، يرفع شطر المذبح وجنَتَيْن، تخطُّهما الدموع. كان كثير الإحسان، سرّاً وجهراً، يساعد صالات ألعاب السلاح والملاجئ والمستشفيات وفِرَق كرة القَدَم والكنائس الصغيرة والحزبِ وملاجئ المتسوِّلين، ويستضيف صيفاً في إحدى فيلاَّته زوجات الضُّبَّاط، ويشيد المآوي الجبلية، ويَهِبُ ذهباً للوطن، ومتاريس للمدافع، وأغطية لأَسِرَّة مستشفيات الصليب الأحمر، وحقائب موادّ غذائية لحُرَّاس البلدية، ورايات للغوَّاصات البَحْرِيَّة، ومِنَحاً دراسية لطُلَّاب المدارس العليا. كان مستعدّاً للإحسان إلى أيِّ شخص شريطة أن يكون مقبولاً من الحكومة؛ لأنه لم يستطيع أن يُدرك كيف يرفض شخص واحد، مفكِّراً برأسه هو فقط، ما يُقرُّه الوزراء وحُكَّام الأقاليم وقادة القوَّات المُسلَّحة ورؤساء المحاكم

وكبار رجال الأمن والملك والكاردينالات والأساقفة، وكلّ مَنْ ليس بهم حاجة للاستدانة، ليعيلوا أنفسهم، وأبناءَهم؛ وهو رجل دَمِثٌ، ومحترم، بعينَيْنِ مفتوحَتَيْنِ عن آخرهما، يُعبِّران بثبات عن الدهشة، حتَّى إن كل مَنْ يتحدَّث معه ينال بهجة إمتاعه حتَّى الثُّمَالَة. - "آه، حقّاً؟" كان الدوق يردِّد كل حين. - "آه، حقّاً، بالفعل؟ ..." إجمالاً، كان على المرء أن يضيف عبئاً زائداً إلى متاعبه الخاصَّة، وإلى الفقر، ليمقت شخصاً يتمتَّع بهذه الدرجة من اللطف.

حضر زواج الدوق من باربرا صفوة نبلاء كتانيا، وباليرمو، وميسينا، كما حضر العديد من أمراء روما، ماركيز فلورنسي، وبارون إسباني في طريقه إلى تاورمينا؛ كان قصر أمراء برونتي الذي شيّد له المئة عامل برجاً صغيراً، يبدو كسفينة، تصطدم بها في كل لحظة موجات من البزَّات الفاشية ذات اللَّونَيْنِ الأبيض، والأسود، والثياب العسكرية، وسترات من الألوان جميعها، وأثواب من الحرير، وزهور في باقات مكدَّسة عن آخرها، في حزم وعناقيد وشتلات. كانت الشرفات المغطَّاة تزدحم بأشخاص، يحملون كؤوساً في أيديهم، ويُدوِّي الميدان بأسفل، والشوارع المتقاطعة، بالأبواق وآلات التنبيه وحدوات الجياد وصياح وسباب قائدي العربات التي تجرُّها الجياد والسَّيَّارات، ويدقُّ بعضهم النوافذ لإبعاد المتطفِّلين. كان الحشد يتكدَّس أمام البوَّابات عاكساً على الوجوه البائسة والحاقدة ضوء ذلك البذخ والسعادة، ومستقبلاً على الشفاه التي تكسوها المرارة انعكاس آلاف الابتسامات. عند الغروب، صار الحشد أشدَّ كثافة، حيث أُذيع اقتراب خروج الدوق مع العروس، لينطلقا في رحلة الزفاف. ومُستغِلاً حالة التَّجمهُر، وامتزاج الضوء بالظلمة، وبينما يستند كتفاه إلى جذع إحدى أشجار الدِّفْلي، وتضغط على صدره وجنبَيْه فتيات وعجائز، يلتفتنَ شطره كل لحظة كما لو أنهنَّ يبحثنَ عن صدى لابتساماتهنَّ، صدى لم يجدنَهُ قطعاً، أو نجحنَ في انتزاعه واهياً للغاية، ومريراً. كان أنطونيو مانيانو يُشاهَد

بعينَيْن مضطربَتَيْن تبدوان، في ذلك اليوم، وقد خُلقتا للتعبير عن الخوف أكثر منهما للرؤية.

نحو الغروب، عندما كانت مصابيح الشوارع لا تزال مُطفَأة، والأجنحة التي قادت العصافير إلى داخل الأعشاش ترفع من ثقب في الأرض فأراً لزجاً (الغراب يطير، لكن القَدَر حرمه الغناء، وهو خجل من صراخه، يتخبَّط هنا وهناك في صمت مخجِل، بينما يصعد في سخط عبر جنبات السماء، التي ترك فيها العصفور زقزقته، والقُبَّرَة تغريدها)، أُضيئَت بوَّابة القصر، كما تلألأت حديقة المدخل أيضاً بمصابيح من كل لون، وظهر العروسان على قمَّة درجات السُّلَّم.

كانت المدينة غارقة في الظلام، بينما تتلألأ تلك الحديقة وحدها. استطاع أنطونيو أن يرى بوضوح وجه باربرا، وقد أضاءَه شعاع من شجرة تتشعَّب بها المصابيح، ورأى أيضاً راحة يدها تمرُّ بأعلى أذنها، وهي تضغط، على صدغها وعنقها موجة شَعْرها الأسود، ورأى، عبر الثوب الحريري، بروز ركبَتَيْها، ورأى أخيراً، عندما نزلت درجة السُّلَّم الأولى، القَدَم بيضاء اللون، كما لو كانت عارية داخل حذاء أسود مكشوف العنق. حرَّكت العينُ المُثارَةُ الحواسَّ الأخرى، فتنسَّم رائحة البشرة المغطَّاة بمساحيق التجميل، وذلك الانتعاش الذي كان يشعر به على وجنته قبل أن يلمس وجنتها بِهُنَيَّة، سمع الصوت الذي كان ينطق ببطء *أنطونيو!*، بينما على يده الممدودة في الهواء شعر بانزلاق يدها، مفاصل الأصابع واحداً واحداً، حلقات الخواتم، الأظافر؛ كانت باربرا فوق صدره، وفمه، وفي عينَيْه، لكنْ، في أعماق جسده، في نقطة يشير إليها الآن بكلمة "هناك بأسفل"، في النقطة التي يسود فيها منذُ سنوات عدَّة الصقيع والموت، ظلَّ كلٌّ من الصقيع والموت كامنَيْن.

في تلك الأثناء، كانت باربرا ونيني الضخم يصعدان إلى السَّيَّارة. أطلَّت من إحدى النوافذ عمَّةٌ خَرِفَةٌ، والكانون المنطفئ بين يَدَيْها، وأطلَّ من نافذة صغيرة بأعلى العمُّ المخبول يُخرِج لسانَهُ، لكنْ، سرعان ما جذبه للداخل خادم

يرتدي سترة بخطوط طولية، أمَّا أخ العريس الأكبر، الأمير سارينو، فكان يطلُّ من نافذة السَّيَّارة مع زوجته التي لم تستطع أن تهبه وريثاً، ومع ذلك يرتسم على وجهها باستمرار تعبير الحُبْلَيَات اللَّاتي أنهكهنَّ الشعور بالغثيان. بين الحشد كان كل فرد يمدُّ إصبعه بين رؤوس الآخرين، ليُعيِّن جَدَّ الأسرة العريقة الأكبر. لكنْ، عندما اصطفَّ حرس البلدية في زيِّهم الرَّسميِّ على جانبَي البوَّابة ودرجات السُّلَّم، نزل عُمدة كتانيا الجديد والحاكم ومدير الأمن والسكرتير الاتِّحاديّ كابانو ونائب السكرتير العامّ لورينزو كالديرارا، وأخيراً كبير الأساقفة الذي سرعان ما عاد على إثره مُلوِّحاً؛ لأنه أضاع غطاء رأسه على السُّلَّم، ارتفع صراخ صوت عجوز: - "مصَّاصو دمائنا، قُطَّاع الطُّرُق، لصوص كَفَرَة، اشتريتُم لأنفسكم العدالة والدِّين بأموالكم القذرة التي تفوح برائحة العفن! لأنكم عثرتُم على هؤلاء اللصوص الذين يماثلونكم، أولئك الجوعى، والنسور على رؤوسهم الذين سيقضون على هذه الأرض المشؤومة حتَّى آخر حصاة فيها، إن لم يُنقذنا الله في الوقت المناسب، ويحرقهم كالفئران! لقد اتَّفقتُم واشتركتُم في إعداد الطبخة كما أردتمُّوها، أيُّها القذرون، مُتبلِّدو الإحساس، مَوطئ القذارة! لكن اللصوص لا يضحكون دائماً! يجب أن تأتي، بحقِّ الله، الحُرِّيَّة التي تمكِّننا من البصق في وجوهكم! يجب أن يأتي يوم الرجال الحقّ! وعموماً أقول لكم هذا: ليسقط الملك، ليسقط الـ ...!".

عند هذا الحَدِّ كبَّلت يدٌ ما السَّيِّدَ ألفيو من صدغَيْه، ومنعتْهُ من الحديث.

- "دون ألفيو" - همس في أُذنه الرجل الذي كمَّمه - "أتعلم إذا لم أذكر دوماً الصنيع الذي أدَّيتَهُ لأبي، فأرسلتَهُ بمالكَ إلى سالسو ماجيوري، لكنتُ اقتدتُكَ على الفور إلى مديرية الأمن، واتَّهمتُكَ بما يؤدِّي على الأقلِّ إلى الإبعاد؟".

- "أنا لا أعبأ بشيء" - زام السَّيِّد ألفيو في راحة الشرطي التي تفوح برائحة اليوسفي - "سأتلقَّى الإبعاد عن طيب خاطر! ليسقط الـ ..."

لكن الشّرطيّ شدَّ من قبضته، وسحق الكلمة بين شَفَتَيْه.

- "لنذهب!" - قال - "هلُمَّ معي!".

- "قطعاً لنذهب، لنذهب، دَعْنا لا نُضيِّع وقتاً! هكذا أُفرِغ ما في فمي أمام مدير الأمن!".

- "هيَّا، لنذهب، كفى!".

ودفع الشّرطيّ مانيانو العجوز إلى خارج الحشد، رافعاً إيَّاه إلى عربة صغيرة، احتلَّ فيها مكاناً هو أيضاً.

تعرَّف أنطونيو إلى والده فقط عندما اخترقت العربةُ الحشودَ، وهي تسلك الطريق. شرع على الفور في العَدْوِ خلفها، لكنْ، بعد بضع خطوات ضاعت من بصره بين أشجار النخيل والأكواخ والحشد القاتم في شارع إتنا.

لحسن الطالع اكتفى الشّرطيّ باقتياد العجوز إلى المنزل، وبعد أن قبَّل يَدَيه متأثِّراً؛ لأنه يفكِّر أن روح أبيه المقدَّسة تُباركه، وأوصاه بالهدوء والحرص، نزل درجات السُّلَّم متمهِّلاً دون أن يَقبَل حتَّى احتساء كأس من النبيذ.

- "لكنْ، يجب أن تُقسم بأمواتكَ" - قال له الشّرطيّ بالقرب من الباب - "قدر ما تُحبُّ ابنَكَ وزوجتَكَ ألَّا يفلتَ من فمكَ ذلك الاسم أبداً!".

لكنْ، كان غضب مانيانو العجوز قد اكتسى آنذاك بصيغ سياسية.

- "سيدخلون الحرب، ويخسرونها! بحقِّ الله، سيخسرونها!" وأخذ يُصدِر أحكاماً في حجرة الصالون، أمام السَّيِّدة روزاريا التي تتطلَّع إليه، جالسةً على المقعد المعتاد، وما ترتقه من ثياب، يستقرُّ على ركبتَيْها، بينما تهزُّ رأسها، كما لو أنها تقول: "ألهذا الدَّرْكِ انحدرنا، أن نصير مُخرِّبي النظام!".

- "سترين" - كان الزوج يواصل - "سترين كيف أعدُّوا الفخَّ جيِّداً لهذَيْن الاثنَيْن اللَّذَيْن يبدوان الآن شديدَيْن، ويهدِّدان بتحطيم كل شيء، وينفشان جِلْدهما كالأسود! لكنْ، أيّ أسود يكونان؟ دُمى! أَسَبَقَ ورأيتِ الأسودَ الدمى؟ هؤلاء هم، ولا شيء آخر! واسمعي ما يقوله لكِ ألفيو مانيانو اليوم

العشرين من يوليو 1939: يُقلِق هذان الشرِّيران الداجنان راحةَ الجميع، لكنْ، أتعلمين كيف سينتهي الأمر؟".

رفعت السَّيِّدة عينَيْها من فوق العدسات، ونظرت إليه.

- سينتهي بأن يأتي الهَمَجُ إلى هنا، الزنوج، صُفْر الوجوه، أكَلَة لحوم البشر، أولئك الذين يضعون الحلقات في أنوفهم، والريش في منتصف رؤوسهم!".

- "أين، هنا؟" همهمت السَّيِّدة مرتعبة.

- "هنا، في كتانيا، في الطريق الرئيس، حيث ترين الآن العديد من الرجال، والقرون تعلو رؤوسهم يسيرون مطمئنِّين كالنِّعاج، ولا يعلمون أنهم قد سُلِّموا واحداً تلو الآخر للمجزرة!".

- "لكنْ، ماذا تقول، يا ألفيو؟ أنتَ تُخرِّف حقّاً!".

- "أنا لا أُخرِّف، أقول الحقيقة. ليتَني واثقٌ من ذهابي إلى الجنَّة ثقتي بما أقوله الآن. هنا، في الطريق الرئيس" - وأطلّ من الشرفة، ليشير إلى الطريق الجميل المزدحم بالناس المندفعين من فوق الأرصفة إلى ما بين عربات الترام والسَّيَّارات - "إلى هنا سيأتي الهَمَجُ والحلقات في أنوفهم، سينهبون المحالّ، ويستولون عليها ...!".

- "ليته لا يحدث أبداً، ليته لا يحدث!" كانت السَّيِّدة تدعو من بين شَفَتَيْها.

- "سيصطفُّون في الطريق الرئيس والريش فوق رؤوسهم، والحلقات مُدلَّاة من أنوفهم! وأنتَ" - صرخ في وجه المحامي أرديتسوني الذي يطلُّ من شرفته - "أنتَ بوجهكَ هذا الذي يشبه الحذاء القديم، انزعْها، من مقرِّ الجمعية، صورتكَ تلك التي تمسك فيها بعصا الفاشية؛ لأنهم إن وجدوها فيما بعد، سيجعلونكَ تدفع ثمن ذلك بضربات الحذاء على مؤخِّرتكَ!".

- "سننال كل شيء!" - أجاب المحامي بابتهاج، ورفع ذراعَيْه في الهواء داخل ثنيات رداء المنزل القضائية.

- "مَنْ سينال كل شيء؟ نحن؟ أيّ شيء؟".

- "سيمنحوننا كل شيء، كورسيكا، تونس، مالطا، نيس، سيمنحوننا كل ما نريد، بلا حرب ... سيمنحوننا كل شيء!".

- "لمَنْ سيمنحون كل شيء؟" - صاح العجوز مانيانو مرهقاً - "لكَ، لأجل وجهكَ الشبيه بالباذنجانة العطنة؟ ولماذا يجب عليهم أن يمنحونا كل شيء؟ ربّما لأنهم يخشونكَ أنتَ، ومجلس شيوخكَ الذي لا يخجل من غناء نشيد الشباب في صَفٍّ كأطفال الحضانة، ولن تستطيع أنتَ، على أيّة حال، أنتَ تصير واحداً منهم، اسمعْ ما أقوله لكَ: لن تدخلَهُ أبداً! ولا حتّى لتحملَ زجاجة ماء لمَنْ يتحدَّث!".

- "أنا أرثي لكَ بسبب الكارثة التي حلَّتْ بكَ" - أجاب المحامي في خُبث وَقور - "ولا تعلم ما تقول".

- "لكنْ، لتذهب إلى الجحيم!" - صاح السَّيِّد ألفيو بقوَّة - "أنتَ أبله بلا جدال!" وأغلق في وجهه مصراع الشرفة.

- "لكنْ، ألفيو" - علّقت السَّيِّدة روزاريا على استحياء - "سنجعل هكذا من الجميع أعداءً لنا! لن نجد أحداً حال احتجْنا لمَنْ يتحدَّث معنا بكلمة".

- أجاب السَّيِّد ألفيو: "لا أعبأ بشيء لكلماتهم التي ستقطر سُمّاً دوماً". تابع السَّيْر من طرف حجرة الصالون إلى طرفها، مُبدِياً رغبة في الغثيان كلَّما رأى، وهو يقترب من الشرفة، عند الأطراف الخالية من الستائر، المحامي أرديتسوني منتفخ وأحمر الوجه كديك رومي. - "ولِمَ هذا كله؟" أضاف بنبرة أقلّ سخطاً، لكنها أشدّ قنوطاً، "ولِمَ هذا كله؟ لماذا يغضب الله من ألفيو مانيانو، ألفيو مانيانو الشخص المسكين، عديم القيمة، الذي لم يثرْ ضيقَ أيِّ شخص، ولا يستطيع بالأحرى مضايقةَ الله؟".

- "ألفيو لا تَسُبّ!"

- "لا أسبُّ، أنا أقول الحقيقة. الله غاضب منِّي، أنا الذي لم أقتُل،

ولم أسرق، ولم أعتقِلِ الناس، ولم أُثِرِ الفتنةَ في العائلات، ولا نزعتُ الخبز من يد أحد، بل، عندما كان بمقدوري، وأنتِ تعلمين هذا، نزعتُ الخبز من فمي، وأعطيتُهُ للآخرين".

- "هذا حقيقي، عزيزي ألفيو، هذا حقيقي".

- "ثمَّ يرسل لي الله بالكارثة الأكثر شرّاً، الأشدّ سواداً، الأقوى سُمّاً التي يمكن أن يُرسل بها لإنسان، الكارثة التي لم يكن باستطاعة أيٍّ من أعدائي أن يفكِّر في أشدّ منها غدراً، وإن عصر ذهنه لألف عام. لا بدَّ أن الله قد قرَّرها منذُ خلق العالَم، كارثة كهذه! ولمَنْ، كارثة شنيعة هكذا، وقاتلة؟ لألفيو مانيانو".

- "عزيزي ألفيو، عزيزي ألفيو، لا تَسبّ!".

- "أنا لا أسبُّ، أقول الحقيقة. كارثة، يا سادتي، تشعر عند التفكير بها بعقلكَ يُنتزَع من الرأس. ابني، ابني الوحيد، بهجتي، الفخر، الحياة ذاتها، أراه ينحطّ إلى درجة أدنى من خرقة بالية للأقدام؛ لأن هذه، على الأقلّ، تُفيد في تلميع الأحذية، لكنْ، ماذا يفيد رجل في تلك الحالة، ماذا تفعلين به؟ ما يعيش ليفعل؟".

- "ألفيو، ألفيو، أنتَ تُحطِّم قلبي!".

- "ثمَّ ابن مَنْ ألفيو مانيانو، ألفيو مانيانو الذي له ...؟! حسناً، حسناً، لنكفّ عن الحديث! ألفيو مانيانو الذي، عندما كان يلج أحد المجالس، كان الأزواج يعبسون، ويبدؤون في وَكْز زوجاتهم، ليُخبروهم بضرورة الرحيل ...".

- "ولأجل هذا، الله فيما بعد ..." علَّقت الزوجة بحِدَّة.

- "لأجل هذا لا شيء! يؤسفني أنه لم يعد باستطاعتي فعل ذلك، بحقِّ الشيطان، وأنني لم أعد، لا أقول في الأربعين من العمر، بل في السِّتِّين، في الخامسة والسِّتِّين، حيث كنتُ أجرؤ على البصق في أنف عريس صغير السِّنِّ لم تنمُ لحيته. وإذا أردتِ معرفة ذلك، منذُ عامَيْن، في الخامسة والسِّتِّين، أنجبتُ ابناً!".

- "ابن، ومِنْ مَنْ؟" سألت السَّيِّدة ويداها ترتعدان.

- "من إحداهنَّ، تلك، كاتبة في المحكمة".

- "وأين هو الآن؟".

- "مات!".

هزّت السَّيِّدة رأسها في تعبير عن اللوم، والتعاسة: "ألفيو، ألفيو!".

- "وماذا تظنِّين، أن لديَّ أنطونيو فحسب؟ قام رجال كثيرون يحملون قروناً بتربية أبناء ألفيو مانيانو على نفقاتهم".

- "لم يكن عليكَ أن تفعل ذلك أبداً، يا ألفيو، ويجب عليكَ الآن ألّا تفتخر بذلك!".

- "أنا لا أفتخر، بل أقول الحقيقة!".

- "لكنني آمل أن تكون كاذباً!".

- "حسناً، حسناً ... لنذكر الأسماء، إذنْ! بيرتوليني!" نطق في مهابة".

- "بيرتوليني ماذا؟".

- "القاضي بيرتوليني، أتعرفينه؟".

- "كيف لا أعرفه؟! ليمُجِّده الله، إنه أكثر الأشخاص حِذْقاً في هذا العالَم، لكنه شديد السَّمَاجَة!".

- "ابنه الثاني، ضابط البَحْرِيَّة ...".

- "ذلك الكئيب؟".

- "أجل، ذلك الكئيب هو ابني! ابن آخر لي يدير مدرسة عليا في بلدة قريبة، ويُدعى ريجالبوتو، ابن آخر أبله حقيقي، لكنه أكثر الجميع حظّاً: لأنه يمتلك ألف هكتار من الأراضي في قلب صقلية، وعندما يموت ذلك التيس الذي يعتقده أبيه، سيصير باروناً أيضاً ...".

- "لكنْ، ألفيو، تقول هذه الأشياء لي أنا، أنا التي ...؟".

- "لكِ أنتِ التي ... لا شيء! لقد أنجبتُ أولئك الأبناء قبل ان أتزوَّجكِ".

- "ولقد أسأتَ الفعل أيضاً!".

- "إذنْ، أُخبركِ أنني أنجبتُ غيرهم أيضاً بعد الزواج!".

- "ألفيو، أتمنَّى ألَّا تكون مدركاً لما تقول!".

- "لا أعقل؟ في فلورنسا، تركتْ عروسٌ شابَّةٌ، تقوم برحلة الزفاف، حجرتَها، وأتتْ إلى حجرتي! كنتُ أترك بصماتي على النساء! ... وأنتِ تعلمين هذا! في كتانيا، امرأة ... كيف تُدعى؟... إجمالاً، كانت إحدى العاهرات، وتريد أن تترك الملهى، وتصبح خادمة بسيطة وشريفة، وتقوم بالخدمة لدينا ... هكذا ... بلا مقابل، ولأجل حُبِّ الله، لتراني طوال اليوم!".

- "لكنْ، ألفيو" - صرخت السَّيِّدة متشنّجة - "لكنْ، لماذا تُخبرني أنا بهذه الأشياء؟".

- "أُخبركِ بها حتَّى لا يجول بخاطركِ أن ابنكِ جاء على هذا الحال بسببي أنا. لمصيبته ومصيبتي لا يشبهني أنطونيو، لأنني كنتُ أُفضِّل أن أصير شحَّاذاً، أذهب خلف النساء عن ... عن ...".

ألقى السَّيِّد ألفيو بنفسه على أحد الأرائك مُنهَكاً تماماً.

- "إذا لم أعد أقوم بذلك" - قال بصوت واهن - "فالسبب هو هذه الكارثة التي انتزعت الأنفاس من صدري، ويكفيني أن أرى قليلاً من الضوء، القليل، القليل منه، لأُعاود ذلك من جديد ..." وبعد دقيقة، أضاف مُصرّاً على أسنانه: "بحقِّ الله!".

في اليوم التالي، توجَّه إلى المحامي بوناكورسي في عجلة مَنْ يذهب إلى قسِّ الاعتراف، ليحطَّ عن كاهله خطيئة مُهلِكَة.

- "أرأيتَ" - أخذ يرفع صوته في منتصف حجرة الاستقبال - "أيّ عسف مارسوه معي؟ أرأيتَ كيف اجتمعوا على إيذائي؟ لكنْ، ألا يزال الذِّين

موجوداً؟ ألا تزال العدالة؟ ألا يزال العالَم؟ آه، أنصِتْ لي سيادتكَ، عليكَ أن تسمح لي بذلك؛ لأنكَ إن لم تفعل، كففتُ عن احترامكَ أنتَ أيضاً! وقتما يسقط هذا النظام، أريد أن أكون أنا المُدَّعي العامّ في محاكم الشعب! لن أنظر في وجه أحد! وليأتِ أمامي أخي حاملاً صورة أمِّنا، وإذا وضع أخي الدجاجة التي تبيض ذهباً فوق رأسه، سأجعلهم يُطلقون الرصاص عليه! دوقات، مُحرِّرو عقود، سكرتارية اتِّحاد، رؤساء أساقفة، كونتات، وزراء ... سأمزِّقهم إرباً!".

- "أنتَ أكثر طيبة ممَّا تعتقد" - تمتم المحامي بوناكورسي - "ولن تقتل ذبابة حتَّى".

- "خطأ، يا رايموندو" - أجاب السَّيِّد ألفيو - "لا بدَّ من خشية غضب الطَّيِّبين! مَلِّكني على هؤلاء السادة، وسترى إن لم أُعلِّقهم في الخطاطيف كالخنازير!".

- "أنتَ طيِّب، ولا تستطيع ذلك" أصرَّ المحامي.

- "لستُ طيِّباً، وأستطيعه".

- "أنتَ طيِّب، يا ألفيو".

- "رايموندو" - قال العجوز متصلِّباً في مواجهة صديقه - "أتريد إثارتي حقَّاً؟ قلتُ لكَ إنني لستُ طيِّباً!".

- "يا إلهي!" - هتف اللِّصُّ التائب كومبانيوني وقد ضاق ذرعاً - "لماذا يجب علينا ألَّا نُصدِّق أن السَّيِّد ألفيو، عند الضرورة، ليس طيِّباً؟ لي خبرة سابقة بالبشر، وأعلم أنه عندما يثور الطَّيِّبون، فإنهم يُطلقون ناراً أشدّ ممَّا يفعل الشيطان. وكانت المرَّة الوحيدة التي شعرتُ فيها بالخوف، في أثناء انغماسي في الشَّرِّ، عندما أخذتُ أتحرَّش في أحد المقاهي بطالب لاهوتي نحيف كعود القصب، وأصفر كالليمون. ظلَّ صامتاً لكلمتي الأولى! والثانية، والثالثة، والرابعة، لكنْ، أمام الخامسة، كيف صار؟ قطّاً هائجاً،

ضبعاً! كان يبدو أنه سيشقُّ السقف برأسه في كل قفزة، وقد أحاط بي من كل جانب، وعضَّ معصمي، انظروا، لا يزال أثر ذلك واضحاً! لا، يا سادتي، لن أتورَّط أبداً مع الطَّيِّبين؛ لأنه عندما يثور الرجل الطَّيِّب، يصبح أسوأ من الشيطان! وتعلمون أنني أجيد الحُكْم على الأمور".

- "كلمات حكيمة" - علَّق السَّيِّد ألفيو - "إن الشيطان أفضل من الرجل الطَّيِّب إذا ما أثاروا ضيقه، ولقد أثاروا ضيقي، يا رايموندو، وهرسوني كما يفعلون بالعنب!".

- "إنه مُحقٌّ، مُحقٌّ" - تمتم كومبانيوني - "من جانبي، يا سيِّد ألفيو، وقتما يسقط النظام، سأُعيِّنكَ بلا جدال مُدَّعياً عامّاً في محاكم الشعب!".

- "ومَنْ يعارض؟" - علَّق المحامي بوناكورسي - "تلك هي الناقة، وهذا هو صاحبها. ومَنْ ينكر أن باستطاعة ألفيو أن يصير مُدَّعياً عامّاً في إحدى محاكم الشعب؟ فقط ...".

- "فقط لا شيء!"" قاطعه السَّيِّد ألفيو.

غمز كومبانيوني المحامي بإحدى عينَيْه الكبيرتَيْن، ليوصيه بالصمت، وفتح بوناكورسي ذراعَيْه في صمت في إيماءة، اعتاد القسُّ القيام بها على كتاب القدَّاس.

- "فقط لا شيء! لأنكم إذا أنكرتُم عليَّ أنتُم أيضاً العدالة، سأُرسلكم إلى الجحيم!".

- "لكنْ، ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ ماذا تقول؟".

- "أوه، بحقِّ الشيطان! وإذنْ؟ أريد أن أكون مُدَّعياً عامّاً، أفي هذا إهانة لأحد؟ أريد أن أقصَّ ما فعلوه على الملأ، وأجعل فضائحهم عامَّة، ورَسميَّة".

- "وستنال الرضا كله، دون ألفيو".

- "أوه، بحقِّ المسيح!".

- "الرضا كله الذي تبغيه".

- "أوه، حسناً!".

- "وعليكَ أنتَ أن تقول: كفى، لقد اكتفيتُ".

- "أوه، بحقِّ الله الحاني شديد القُدسيَّة!".

واضطجع العجوز على أحد المقاعد شاهقاً بقواه كلها.

لكنْ، بعد يومَين، بينما كان يسير في شارع إتنا، سمع مَنْ يُهمهم بهذه الكلمات: -"صحيح أنهم قد انضمُّوا إلى أولئك الحمقى خصوم الفاشية ... إنهم يجتمعون معاً، العاجزون ...".

التفت السَّيِّد ألفيو بغضب رافعاً عصاه، لكنه لم يرَ سوى وجوه مستغرقة في أحاديث خاصَّة، أو في قراءة منشورات، أو في تخيُّلات سماوية تقريباً.

- "أبينكم مَنْ سئم الحياة في هذه البلدة!" زام بألم لافتاً إليه بتعجُّب الثلاثة، أو الأربعة أشخاص الذين يمكنهم سماعه.

- "لا، لستُ مجنوناً" – أضاف - "لا أتحدَّث من تلقاء نفسي، ولا من لا شيء، بل أردُّ على ذلك التيس الملعون الذي تحدَّث منذُ قليل، وليس لديه الشجاعة الآن لتكرار كلماته".

قام الأشخاص الذين يجهلهم بإيماءات بدت وكأنها تقول: "إنه يتحامق!" أو "ما الذي يورِّطني مع عجوز منكوب مثلكَ؟".

أثارت هذه الإيماءات السَّيِّد ألفيو حتَّى الجنون.

- صاح، والعصا ما زالت مرفوعة: "أعود لأقول لذلك التيس الملعون، أن يُكرِّر كلماته حتَّى أُزيل قرونه بقطعة الخشب تلك!".

- "إلى المنزل، إلى المنزل!" سمع صياحاً يأتي من أماكن عدَّة، كإجابة على كلماته.

- "اذهبْ إلى الفراش!".

- "اذهبْ لتنام!".

- "اذهبْ لتنام!".

كانت أصواتاً بعيدة تصل ممّا وراء الزاوية.

تحوَّل العجوز إلى حيوان ضارٍ.

- "هلُمَّ إلى هنا" - صاح - "أنذال حمقى، اظهروا إذا كانت لديكم الشجاعة، لأسحقَكُم كالصراصير!".

- "إلى الفراش، إلى الفراش!".

- "اذهبْ وتمدَّدْ على الفراش!".

- "اقتربوا، يا أبناء القباقيب القديمة، أوغاد، لأضربَكُم بقَدَمي".

- "تمدَّدْ على الفراش، تمدَّدْ!".

- "تبّاً لكم!".

- "تمدَّدْ!".

"تبّاً لكم، ولأُمَّهاتكم وآبائكم!".

- "تمدَّدْ!".

"تبّاً لكم، تبّاً!".

- "سيِّد ألفيو" - سمع رجلاً صالحاً يقول - "أنا لا أُصدِّق عينَيّ، يا سيِّدي! لكنْ، كيف؟ أتتبادل الحديث مع أربعة أجلاف، قد لا يحترمون أبيهم ذاته على فراش الموت؟".

- "أنا أشينهم، يا صديقي العزيز، أشينهم!".

- "لكنْ، دعكَ من ذلك، اهدأ! لا تضعْ نفسكَ في كفَّة واحدة مع أولئك الشَّحَّاذين! ستخسر أنتَ، ماذا تظنّ؟ ليس لديهم ما يخسرونه! إنهم أناس يغسلون وجوههم في الصباح بالوحل. أنصِتْ لي، هلُمَّ معي! هلُمَّ، سأصطحبكَ إلى المنزل".

ابتعد العجوز بمشقَّة عن المكان الذي أُهين فيه، وقطع الطريق برفقة

الرجل الصالح دون أن يُوجِّه له الحديث، متوقِّفاً بين الحين والآخر، ليضرب بيده اليمنى على مقبض العصا التي أسندها إلى الأرض باليد اليسرى.

وفي المنزل، ظلَّ صامتاً طوال اليوم.

كانت الزوجة التي لم تسمعه حتَّى يبصقَ، أو يجلي حلقَه، تذهب لتراه باستمرار في حجرة المكتب، بفزع مَنْ يسهر على مريض، ولا يسمعه يتنفَّس.

لكنْ، كان العجوز هناك دوماً، خلف طاولة المكتب، وعيناه تُحدِّقان في غطاء المائدة الأخضر، وعندما يشعر أن زوجته قد اقتربت على أطراف أصابعها من الباب، يشير إليها - دون أن يلتفت - بإصبع يده على الطريق الذي أتتْ منه.

- "ما حلَّ بأبيكَ؟" - سألت السَّيِّدة أنطونيو - "خلال أربعين عاماً قضيناهما معاً، لم أرهُ صامتاً بهذا الشكل قطُّ".

احمرَّ وجه أنطونيو، ووضع يداً على قلبه الذي شعر به وقد حُلَّ رباطه، وسقط من صدره كمغزل ينفكُّ من اليد؛ كان يتوقَّع الآن، في كل نبأ، أن يتَّخذ عاره مظهراً متطوِّراً، وأكثر تنفيراً.

- "لا أعرف" - أجاب على استحياء - "ماذا تظنِّين قد حدث له؟".

في اليوم التالي، استيقظ العجوز صارخاً. وماذا كان يقصد بهذه الصرخات البائسة؟ فقط هذا: أن يأتوا إليه بالقهوة فوراً، فوراً دون أيِّ دقيقة تأخير.

- "لكنهم سيأتون بها إليكَ" - قالت السَّيِّدة - "لماذا تصرخ بهذا الشكل؟".

- "لأنه يروق لي الصراخ! لأنني في منزلي أصرخ كما أشاء، ومَنْ لا يريد البقاء فيه، ها هو الـ... ذلك الشيء هناك ... الشيطان ... الباب ... ليخرج منه!".

انفجرت السَّيِّدة في البكاء.

طوَّح العجوز نافد الصبر بساقَيْه خارج الفراش، ارتدى الخُفَّيْن، وخرج إلى الرواق.

- "أنطونيو!" - طَفِقَ يصيح - "أنطونيو!".

هُرِعَ الابن في بيجامته، وقد نزع الفزعُ النومَ من عينَيْه.

- "أنطونيو، إذا خرجتَ اليوم، فعليكَ أن تُسدي لي صنيعاً!".

- "أخبِرْني، ما هو؟".

- "يجب أن تأتيَني بمسدَّس!".

- "لماذا، يا بابا؟".

- "لأجل لا شيء، أنا أُخرِّف، لكنْ، عليكَ أن تُسدي لي هذا الصنيع، يجب أن تأتيَني بالمسدَّس!".

- "لكنْ، لماذا، ألا تريد أن تُفسِّر لي؟".

- "أوه، أيَّتها القدِّيسة جينوفيفا، مرَّة أخرى! ليس لديَّ ما أُفسِّره لكَ. لكنْ، أتريد أن تُبهجَني بأن تأتيَني بالمسدَّس أم لا؟".

- "حسناً، سآتيكَ به".

- "أوه، بحقِّ الله المقدَّس، أوَ يتطلَّب ذلك الكثير؟ أنا أيضاً، إن خرجتُ سأضع في جيبي مسدَّس أبي الضخم".

خرج أنطونيو مبكِّراً عن المعتاد، وقد أثارتْهُ هذه الكلمات، وبحث عن إدواردو. ولم يكن على الصديقَيْن أن يبذلا الكثير من الجهد، ليعلما أدقَّ تفاصيل الحادثة التي وقعت للسَّيِّد ألفيو.

كاد أن يُغشى على أنطونيو من الألم، ولأن الموقف كان قد حملهما في تلك اللحظة قريباً من مسكن بوناكورسي، فقد نجح إدواردو في إقناع ابن خاله بالصعود إلى مكتب المحامي، كي يتركا أيضاً الطريق المزدحم بالفضوليِّيْن والخبثاء.

صَعِدَ أنطونيو، ووجد الأصدقاء جميعاً، وقد زاد عليهم إرمينجيلدو فاسانارو الذي يُنصت منكس الوجه، وفمه يميل لأسفل كبقرة مسكينة، تقف تحت الشمس.

أخذ أنطونيو أيضاً يستمع في صمت لأحاديث أولئك الرجال الذين لم ينشغلوا قطٌّ، ولو لمرَّة واحدة، سواء في الماضي أو مصادفة، بالنساء.

بعث فيه هذا الراحةَ في البداية، ثمَّ بعث في دمه ذلك السخط، والاضطراب الذي طالما أثارتْهُ فيه كلمات *حُرِّيَّة، تقدُّم، اعتزاز، حقيقة، ضمير*، إلخ؛ لأنها كانت على النقيض من كلمات أخرى، تُثقِل حياته بشكل لا يُطاق: *زواج، بطلان، الليلة الأولى، هي، نزع الثياب، فراش، ممارسة، محاولة، مُوصد، إلخ*. كان، بمجرَّد سماعهم، يدخل في أزمة، لا يمكنه الخروج منها سوى بنسيان ما يُعذِّبه للأبد - وهو الأمر المستحيل بالنسبة إليه - أو بافتراض النفاق في مَنْ يتحدَّثون بتلك الطريقة. من جانب آخر، كانت العبارة التي دفعت السَّيِّد ألفيو لرَفْع عصاه في الطريق قد قيلت له بهذا الشكل: "إنهم يتحدَّثون دوماً عن الفلسفة، والحُرِّيَّة؛ لأنهم عاجزون؛ إذا أمكنهم إرضاء زوجاتهم، لم يكونوا ليتركوا الكثير من الحماقات تنمو في عقولهم".

كان أنطونيو شديد التهذيب حتَّى إنه لم يضِفْ صفة الحقيقية على عبارة بهذه السُّوقيَّة، إلَّا أنها عذَّبَتْهُ خلال أحاديث أولئك الرجال. غابت عنه تماماً نبرة الصِّدق التي تتردَّد في تلك الأصوات، ولم يشعر بالحرارة التي تُلهبها على الإطلاق. في طوفان الألم الذي استولى عليه، ونزع منه أيَّ إمكانية للتفكير الواضح المتأنِّي، كان يرى الحضور كلهم يتكلَّمون بتلك الطهارة، وذلك الزهد الذي كان مضطرّاً هو إليهما، وكان يراهم جميعاً بلا تمييز عديمي الجدوى للنساء، ناسياً أن قاطع الطريق التائب كومبانيوني - إذا لم يكن هناك غيره أيضاً - ذات منتصف نهار في أغسطس، ولأن أهالي البلدة قد طاردوه بالمناجل، قد ترك أسفل شجرة خَرُّوب فتاة في السادسة عشرة - تلك التي صارت الآن زوجته - وقد مزَّقتْها قوَّته تقريباً

كما لو كان ذئباً. لكنْ، كان هذا الرجل أيضاً الآن، في عينَي أنطونيو، مُلوَّثاً بالنقاء.

بعد أن أنصتَ لساعة في صمت، هبَّ من مقعده، لكنه سرعان ما أمسك بزمام نفسه، وخفَّف من حركاته.

- "معذرة" - قال - "لكنْ، يجب أن أنصرف".

- "سآتي معكَ" - قال الخال إرمينجيلدو - "انتظرني".

في الطريق، وصل الخال بتعبير المرارة وانعدام الثقة الذي جعله يشبه بقرة مسكينة تمتلئ بالذباب، في مجلس بوناكورسي، إلى الذروة، وفي أثناء تنهيدة طويلة، ومُنهكَة للغاية، قال ببطء شديد: "هيه! ...".

راقت النبرة التي لفظ بها الخال تلك الكلمة كثيراً لأنطونيو. كانت أوَّل صوت منذُ وقت طويل، يتَّفق مع النبرة الحزينة التي تكتسي بها كلماته عندما يتوهَّم نهاراً، أو يحلم ليلاً بالحديث مع باربرا، أو الحمي، أو نساء أخريات في حياته.

- "هيه!" كرَّر الخال، وارتجف جسد أنطونيو كله، أرخى جفنَيْه، وضمَّ شَفَتَيْه، ليمتصَّ حتَّى أعماق أعصابه ذلك التَّعجُّب المتألِّم والمَرَضي.

- "هيه، هيه!".

عند ذلك الحَدِّ، كانا يلجان ميدان دانتي، بمحاذاة كنيسة القدِّيس نيقولا، ذات الأعمدة غير الكاملة، وحول جدرانها تُطلق العصافير المحلقة أسفل قراميد الدَّيْر الجميل الملاصق صرخات قصيرة، وخفيفة، صرخات تُطلَق بأماكن موحِشة وعتيقة، وتجعلها أكثر عتاقة، وأشدّ وحشة.

- "كم أُحبُّ هذه الأرض!" - قال الخال - "أرغب في تقبيلها حجراً حجراً، إنني لأُقبِّل الذباب أيضاً وفضلات الطيور! أيّ لعنة حلَّت بي، لأظلَّ بعيداً عنها عشرين عاماً! في باريس وبرشلونة، لم أكن أفكِّر سوى في هؤلاء المشرَّدين شبه العرايا، والبائسين الذين يمسكون حجراً خلف ظهورهم

ليُلقوا به على رأسكَ ... ها هي النخلة!" - ثمَّ أضاف مشيراً بعصاه إلى نبات غطَّاه الغبار - "ها هي النخلة التي كنتُ مستعداً لمبادلتها بحدائق فرساي كلها ... كان هذا حقّاً، يا إلهي المقدَّس! ها هي هنا، ها هي!" دار السَّيِّد حول النخلة العجوز دورتَيْن، وضربها بخفَّة بعصاه، ثمَّ توقَّف أمامها متطلِّعاً في يأس ينضح بالحُبِّ، كان يهزُّ وجهه باستمرار، كما لو أنه يلومها، لكنه، في الحقيقة، كان يلوم نفسه لخطأ لا يدريه أحد ارتكبه بحقِّ تلك النخلة.

- "ها هي! ... في إسبانيا" - تابع منفصلاً على مَضَض عن تأمُّل النخلة ومتابِعاً طريقه مع أنطونيو - "أصابني دوار، لازمني لعام ... لا أُبالغ، لعام! في برشلونة لم أخطُ خطوة واحدة دون أن أشعر بالأرض تميد تحت قَدَمَيّ. لكنْ، لم أخشَ الوقوع، بل اصطدام وجهي بأرض لا طعم لها ولا رائحة أو، على أقلِّ تقدير، ليس لها رائحة أرضي، هذه هنا" - وضرب قَدَمَهُ بقوَّة، ليس دون أن يترنَّح بعد ذلك، ممَّا جعل وجهه يشحب، ثمَّ يبتسم من الخوف الوجيز الذي اعتراه - "هذه التي أريد آجلاً أو عاجلاً أن أُقبِّلها في أعماقها حتَّى أترك بها جثَّتي!".

- "خالي!".

- "أعلم ذلك، أصبح سخيفاً. المكيال القديم يدوم أكثر من الجديد ... لكنْ ...".

لم يجرؤ السَّيِّد الكيس على الاستمرار، وأسرع خُطاه قليلاً.

- "لكنْ، ماذا؟" سأل أنطونيو.

- "لكنْ ... كنتُ أريد أن أقول ... دَعْنا من ذلك، أنا أصبح سخيفاً!".

خرجا من الميدان سالكَيْن طريق سان جوليانو الذي ينحدر بقوَّة شطر وسط المدينة. من هذه الناحية، في نهاية صفٍّ من البنايات الرَّماديَّة المكتظَّة بالأسيجة والمصاريع والبوَّابات وتماثيل نساء معمارية وأصص

زهور، تكشف، في ميلها التَّدريجيّ على امتداد البصر، شيئاً فشيئاً، عن الواجهات الضخمة والأسطح القاتمة وجرار المياه، كان يلوح جزء من مياه البحر، يكسوها ضباب الرياح الشَّرقيَّة بعذوبة.

- "لكنني" - لفظ إرمينجيلدو بَغْتة - "لم أؤمن قطُّ بأن الروح البشرية تخلق العالَم! ... سأُفسِّر بشكل أوضح ما أقول: عندما أقرأ فيلسوفنا الحَيّ العظيم، أحني رأسي، وأقبل بأنني قد هُزِمتُ. لا يوجد ما يُقال، إنه مُحِقٌّ: لا توجد خارج إطار تفكيرنا حقيقة من أيِّ نوع، لا نستطيع الخروج عن إطار تفكيرنا، حتَّى هذه العبارة التي تفوَّهت بها "*خارج تفكيرنا*" ليست إلَّا واحدة من أفكارنا ... بحقِّ الله، لا أجد حججاً ضدَّه، أعضُّ على يدي، وذراعي، عليَّ الرضوخ، لأنني لا أجد أمامه شيئاً! ... لكنني أشعر بشيء في أعماق صدري، اعتراض، تطلُّع ... كيف يجب أن أقولها؟ ... جنون، شيء يطالب بالعدالة من هذه الطريقة في التفكير التي لا تمنحكَ وقتاً لالتقاط الأنفاس، ضدَّ ... ماذا يجب أن أقول؟ ... هيمنة فيلسوفنا الحَيّ العظيم. العدالة، العدالة! ليأتِ فيلسوف آخر أمهر، وأعظم منه، ويوضح بكلمات أشدّ بهاءً من الشمس بأنه، في جانب، يوجد العالَم، وفي جانب آخر، يوجد التفكير الذي يعتقد (لاحظ جيِّداً هذه الكلمة!) الذي يعتقد في خلقه، لكنه في جوهره يتأمَّله: الجسد من جانب، والروح من جانب آخر ... يؤمن فيلسوفنا الحَيّ العظيم بأن برهاناً كهذا لا يستطيع البشر أبداً الإتيان به ... لكنْ ... وهنا أسمح لنفسي بمعارضته ... كيف يمكنه التَّيقُّن من المستقبل، والإقرار بما لن يفكِّر البشر فيه أبداً، ولن يكون بمقدورهم أبداً البرهنة عليه؟ أيكون قد صار حتميّاً - حتميّاً بطريقته قطعاً - ... ربَّما دون أن يدرك ذلك؟ ... كيف؟ أسخر من الأنبياء كلهم، ثمَّ يُعلن علينا الآن نبوَّة جميلة وصالحة؟ ... هه، ما رأيكَ؟".

- "انتبهْ حيث تضعُ قَدَمَكَ!" - أجاب أنطونيو - "توجد درجة".

- "أن يكون الحقُّ والواقع شيئاً واحداً ... لطالما أقنعَني هذا دائماً، لكنني لم أؤمنْ به قطُّ".

- "هه؟".

- "أريد أن أقول إن الاقتناع بفكرة، والإيمان بوجودها هما أمران لا ينفصلان ... لكنْ، أنتَ لا تستطيع أن تفهم! عندما يتحجَّر كبدكَ مثل كبدي، وتبكي وأنتَ تتبوّل بدموع ألم أكثر من قطرات البول، ربَّما عندئذ ستفهم ... ثمَّ، معذرة: سأكون طفلاً، جاهلاً، عجوزاً لم يعد يُبصر بعينَيْه، لكنْ، إجمالاً، ماذا يعني بكون الحياة تسير جيِّداً هكذا، ومن الحُمْق الشكوى منها، وطلب الأفضل؟ ... بالنسبة إليَّ، هي ليست جيّدة على الإطلاق! ذات يوم، كان عظماؤنا يُعلنون بصوت جَهْوَرِيّ بأنهم يريدون الوقوف على الحقيقة المطلقة، ويطالبون بمعرفة لماذا وُلدْنا، وما الغاية من عذابات البشر، ومَنْ تُبهِج؛ لأن الكون يحضُّ عليها باهتمام شديد، كانوا يسألون لماذا يجب أن نعرف أننا سنموت، ونجهل تماماً ما هو الموت، ولماذا، قبل أن نموت نحن أنفسنا، يجب أن نرى هيئة العديد من الأموات البائسة، لماذا ينال تفكيرَنا ترفٌ، يسمح له بأن يصل بقفزة إلى تنسُّم رائحة الحقيقة، دون أن يكون بمقدوره التقاط ثمرتها، ولماذا، في النهاية، تُمنَح لنا إمكانية السؤال "لماذا" وتُحجَب عنا إمكانية تلقِّي جواب حاسم ... الآن، تغيَّر كل شيء! أرفع القبَّعة للفلاسفة المثاليِّينْ (الآخرون للأسف، أولئك الذين يمكنهم إعطاء الحقِّ لي، بطريقة ما، ليسوا إلَّا قاذورات لا قيمة لها)، أرفع القبَّعة لأقصى حَدٍّ لفيلسوفنا الحَيّ العظيم، لكنْ، يا عزيزي أنطونيو، ألا تعتقد أن هذه الفلسفة التي تُدعى بالتَّصالحيَّة، هذه الفلسفة التي تُقرُّ: أنتَم تبحثون عن الحقيقة؟ إذنْ، الحقيقة هي بحثكم! أنتَم تسألون لماذا؟ ما يهمُّ ليس الإجابة، لكنْ، سؤالكم لماذا! ... ألا يبدو لكَ أن هذه الفلسفة تُخفي، بعناية كبيرة، الخضوع والمهانة؟ أنحتضن بعقولنا فضاءً أرحبَ أم نحني رؤوسنا أمام الغموض الذي ينكشف أمامنا

غير قابل للاختراق؟ ألا تقلُّ هذه السكينة التي نقول بها إننا ندرك، ونقبل طواعية كل تناقضات وغرائب الحياة، في قيمتها كثيراً عن القنوط الذي كان عظماء الماضي يصرخون به بأنهم لا يفهمونها، وبالتالي لا يقبلونها، ويُفضّلون الانتحار على حياة من البؤس والجهل كانت تبدو لهم، وهم العظماء والكرماء حقّاً، مشينة على أيّ حال؟".

وبينما هو يُومِئ، ويصرخ، ويستند خائفاً على ذراع أنطونيو لكل دوار يصيبه، وصل إرمينجيلدو إلى وسط المدينة الذي يُدعى كواترو كانتي.

هنا صدمتْهم الجموع، ودفعتْهم في كل اتّجاه، وسحقتْهم في النهاية في واجهة أحد المحالّ الزُّجاجيّة، حيث رأى إرمينجيلدو وجه جثّة أمام ناظرَيه، ولأنه كان يأمل ألّا يكون هذا وجهه، جرّب أن يُغلِق إحدى عينَيه، لكن الوجه أغلقها أيضاً، أخرج لسانه، وأخرج الوجه أيضاً لسانه بعناد.

- "لنذهب بعيداً عن هؤلاء البشر!" هتف، "هيّا، على الفور!".

أسرعا الخطى، ووصلا إلى أسفل أسوار الكنيسة الكبرى، بعد أن ابتعدا عن موجات الحشود التي تتدفّق في شارع إتنا، متكاثفة في بعض الأحيان، ومتفرّقة في أحيان أخرى، لكنْ، دون أن تغزوَ بشكل كامل المدخل الصغير الذي تقوم فيه الكنيسة.

- "بالقطع ..." - قال إرمينجيلدو، وبعد صمت طويل، كما لو كان يعدُل عن غايته - "لكنْ، إجمالاً!".

- "أنتُم تعشقون خطاياكم كثيراً!" - تابع بعد لحظة صمت أخرى - "هكذا واتتْهُ الشجاعة -ذلك القزم الأب رافائيل- ليقول لي. أنا أعشق خُطاياي كثيراً؟ وأيّ خطايا، إذا سمحت؟ خطيئة اضطراري جمع مال كثير، خطيئة نبوغي في الحوار، خطيئة شعوري بغبطة شخص آخر، إن حدث ونبغ هو، خطيئة إعدادي للأمتعة والسفر، خطيئة إغوائي الخادمات، خطيئة مضاجعة زوجة أحد الأصدقاء؟ ... أنا زاهد فيهم أكثر من أيّ قدّيس! أؤكّد لكَ، يا أنطونيو، إذا أحببتُ الطهارة، والفقر، والوحدة فقط لكونهم من

الفضائل المسيحية، وليس لأنهم يجلبون لي راحة ومتعة، لكنتُ ذهبتُ إلى السماء بعزم شديد. لكنْ، حتّى في هذا، ويا للأسف، أنا العجوز العتيد المنغمس في الشهوات، كما كنّا نحن جميعاً آل فاسانارو، على الأقلّ الذُّكُور منّا؛ لأن الإناث كنَّ جميعاً قدّيسات! تروق لي الطهارة كغطاء فراش مُنعِش، ويروق لي الموت أيضاً، كحقنة مورفين قوية ... يروق لي، ها هما الكلمتان اللتان تُغلقان في وجهي باب القدّيس بطرس ... يروق لي، يروق لي هذا أيضاً! لا أطيق صبراً على تذوُّقه! ... آه!" - هتف عند هذا الحَدّ مُتحسّساً صدره - "أيُّها الهيكل الملعون، أيُّها الصدر البائس! إن صدر الدجاجة أكثر مرونة وتهوية منكَ"، وضرب بقبضته على صدره، "أيُّها الهيكل المظلم، المكتظّ بتلك الأعضاء ذاتها التي تبدو في أطباق الطَّهي بعد تجريد عنزة، أو دجاجة من العظام: تلكما الرئتان الكريهتان أنفسهما، الكبد، القلب، الأمعاء؛ لتذهبوا، أنتُم، يا مَنْ قلتُ لأجلكم "آه" مرّات عديدة، وانشغل فكري، إلى الجحيم، أخيراً!".

- "تمهَّل! -" قال أنطونيو جاذباً إيّاه من ذراعه - "سيظنُّ الناس أننا نتعارك".

أجاب إرمينجيلدو بإشارة لامبالية.

- "قلْ لي شيئاً، يا أنطونيو، ألم ترَ صاحبة القلب الحجري مرّة أخرى؟".

رفع أنطونيو رأسه في إشارة نافية.

- "ألم تكتب إليكَ؟ ألم تطلبِ الحديث إليكَ؟".

رفع أنطونيو رأسه مجدّداً، مُغلِقاً عينَيْه هذه المرّة.

- "لكنْ، كيف، بعد زواج حُبٍّ بوشاح أبيض ووصيفات وصلاة مُرتَّلة، وثلاثة أعوام من الحياة معاً، وبعد أن شهدتكما البلدة كلها سعيدَيْن، هذه السَّيِّدة، دون أن تفعل شيئاً ... ولا أقول شيئاً يسيء إليها ... تُومِئ لكَ برأسها، وتنصرف برفقة زوج آخر دون أن تستدير خلفها حتّى؟ ... ثمَّ"

- أضاف بصوت متألِّم - "أتريدني أن أظنَّ أن هذا العالَم ليس قميئاً؟ ..." ران صمت طويل للغاية. - "ماذا سنفعل؟ أنلقي نظرة صغيرة بالداخل؟".

- "أين؟".

أشار إرمينجيلدو بعينَيْه إلى باب الكنيسة.

- "لقد تزوَّجتُ هنا!" عارضه أنطونيو بشحوب بالغ.

- "حسناً، وماذا يعني هذا؟... هيَّا، لندخل!".

صَعِدَ أنطونيو الدرجات الخارجية التسع بأقدام ثقيلة، متأبِّطاً ذراع الخال، عبر فضاء الكنيسة، وهو يشعر بأنه مراقَب بشدَّة من شرفات ميدان بيسكارى الخاوية، ونوافذ الزقاق الملاصق الموصَدة، والرخام، والقراميد، وصف رماح البوَّابة. لم يشعر قطُّ في حياته أنه محطُّ اهتمام، كما في تلك اللحظة، وذلك المكان.

وَلَجَا إلى الكنيسة التي يبدو أن سقفها، الذي رسمه الفنَّان ذاته صاحب جداريات مسرح بيلليني، يمرُّ بذلك التَّموُّج الواسع، والمحسوس بالكاد الذي اعتادت الرياح القادمة من خشبة المسرح أن تطبعه على الأستار. ظلَّت بعض أشعَّة الشمس، متخلِّلة واجهات النوافذ، معلَّقة في الهواء كأبخرة ملوَّنة، وأسفل هذا البريق، الذي يدور داخله الهواء المعبَّق بالغبار ببطء، تحتشد الكنيسة بالشعلات الصغيرة والظلمة. ها هو المذبح الأعظم، ها هي البوَّابة الخشبية، ها هو المرْكَع! شعر أنطونيو بالاختناق، كما لو أنه احتسى رشفة ضخمة للغاية من الماضي، وصار تنفُّسه عسيراً، ومتلاحِقاً، وبدأ الأنف الجميل ذو الأطراف الممتقعة في الانبساط كاشفاً عن الجهد المبذول في استنشاق الهواء بأكثر ما يستطيع.

- "لنركع" - قال إرمينجيلدو - "سنكون أفضل هكذا".

ثنى أنطونيو ركبتَيْه آلياً إلى جوار الخال الذي، بعد أن شبك يَدَيْه على مقبض العصا، أسند جبينه إليها، مُوجِّهاً إلى تمثال قلب المسيح

رأساً لامعاً، وأشْيَبَ، تلتصق به ببؤس خصلتان أخيرتان، لهما لون أشقر صبيانيّ تقريباً.

وعلى النقيض شَبَكَ أنطونيو يَدَيْه، ووضع وجهه داخلهما، حتّى لا يرى المذبح الأعظم عارياً من الطَّيَّات البنفسجية التي كانت تُزيِّنه في الخامس من يوليو عام 1935، يوم زواجه، ولا الباب الرئيس الخالي من البساط الأحمر الجميل الذي توقَّفت عليه خُطى الأقارب والشهود والأصدقاء.

ظلَّ هكذا وقتاً طويلاً منتظِراً أن يتوقَّف طوفان الدم عن ضرب رأسه، وشرايين أصداغه عن النبض بانزعاج.

- "أمن الممكن" - قال الخال رافعاً جبينه عن يَدَيْه، ومُسنِداً إليهما ذقنه - "أمن الممكن ألا تُعبِّر كلمات كالسماء والجنَّة والعدالة الإلهية والسلام الأبدي عن شيء حقيقي؟ ألا تُعبِّر الكلمات الأكثر بهاءً في حياتنا عن شيء؟ أمن الممكن أن يكون اسم يسوع المسيح، وها أنا أكرِّره: يســ وع المســ يح، اسم ميت بائس، ولا يدفع النطق به أحداً للالتفات، لا في هذا العالَم، ولا في العالَم الآخر؟ ها أنا أُكرِّر مرَّة أخرى: يسوع المسيح، يســ وع المســ يح، هو إذنْ اسم أحد الأشخاص الذي عاش منذ ألفي عام مضت، وكان يعمل بإخلاص، ليسفكَ دمه، ويُقضى عليه في سبيل تسامحه الكريم مع الضعف البشري، وليترك الجنود الذين يعذِّبونه بالسياط وقوفاً، وأبراج المدينة الشاهدة على عذابه، مسيطِراً فحسب بِكَدٍّ على قدرته اللَّامحدودة؟ يسوع المسيح، الهادي الرحيم، ورأسه مدفوعة للخلف، يتطلَّع للسماء، التي كان في الحقيقة يجهل هيئتها، وتكوينها وضوءها، لكنه كان يظنُّها آنذاك مملكته، ويرى في منتصفها عرشه المذهَّب على يمين إله واحد ... وإذنْ، مساء الخميس، عندما صلَّيتُ في الحديقة مكرِّراً بأكثر الطُرُق عذوبة هذه الكلمة "الله"، لم يكن هناك مَنْ يُنصت في الجانب الآخر؟ وعندما، من فوق الصليب، سمح لِلِّصّ، الذي أعلن إيمانه، بأن يذهب معه إلى السماء، يا لِلِّصّ المسكين، كم اضطرَّ للسَّبِّ عندما أدرك

أن ظلاماً يزداد كثافة، وبلا أمل، يلي غمام الاحتضار! ... وإذنْ، بالنسبة إلينا، نحن البشر، أن نُدعى إرمينجيلدو فاسانارو أو يسوع النَّاصريّ، فلن نجد سوى ظلام وجهل، وإذا ذهبْنا إلى المدرسة، فلن نجد سوى فلسفة ذليلة، تكتفي بأن تدعو أسئلتنا المنكوبة، التي لا تجد إجابة، حقيقة؟ إذنْ، لا!... أُكرِّر للمرَّة الثالثة: يسوع المسيح! ... لا، بحقِّ الله، لا! ... يســ وع المسيح! إيه، لا، ليس كما إرمينجيلدو فاسانارو. إنه أمر مختلف تماماً! ... يسـ وع المسـ يح! ... أو، مَنْ يدري؟ قد يدور الحديث عنه، خلال عشرين عاماً، كفيلسوف أخلاقيٍّ قديم، وهَمَجيّ تقريباً! فيلسوف أخلاقي شحيح الكرم تجاه أشدِّ المنكوبين، والأشرار غير القادرين على الخلاص، والذين لم يكفّ قطُّ عن توعُّدهم بالعقوبات شديدة القسوة ... إذنْ، أيكون يسوع المسيح هَمَجيّاً؟ أسمعتَ، يا أنطونيو، ما قلتُهُ؟ يسوع المسيح هَمَجيّ! ألا تحمرُّ خجلاً لمجرَّد سماعك قولاً كهذا؟ وما الذي يعنيه هذا الاحمرار، إذا لم تكن الحقيقة أمراً مخالفاً؟ يسوع المسيح، يسوع، اسم الرسول ذاته، يسوع المسيح، يسوع المسيح! يسوع! يسوع يسوع!".

سقط السَّيِّد الكيس أمام عصاه، وعاد ليضغط عينَيْه على يَدَيْه المتشابكتَيْن حول المقبض الفضِّيِّ.

- "يسوع المسيح!" - همس مجدَّداً دون أن يغيّر الوضع الذي ترك نفسه عليه - "كلَّما كرَّرتُ هذا الاسم ضاع منِّي معناه ... ومع ذلك كم سيصير جميلاً أن يكون أحدنا نحن البشر، ابن النَّاصريَّة هذا، رسولاً لله، ينتظرنا على الجانب الآخر بجسده الشبيه بجسدنا، وهو يعلم بخبرته ماذا يعني امتلاك رئَتَيْن، وكبد، وأمعاء، وقلب بصمَّامات! ...".

شعر أنطونيو بعقله ينجذب شطر كلمة، كانت ستُدوِّي هنا ببذاءة، حاول الرفض بكل ما أُوتي من قوَّة، ونجح فقط في الاقتراب من تلك الكلمة كشيء ميت، وهو يراها في كل حرف من حروفها، لكنْ، دون أن يقرأها، أو يشعر بصوتها في ذهنه.

- "الغدد، الكُلَى، الخلايا الدِّماغيَّة، النخاع الشَّوكيّ ..." تابع الخال.

سمع أنطونيو تلك الكلمة للمرَّة الثانية.

- "... ينتظر إلى جوار جثماننا، بل وقدماه على جثماننا، يشدُّ من أزرنا، نحن الخائفين من الوثبة التي قمْنا بها، يشدُّ من أزرنا، ولا أقول بدون هيئته البشرية، وربَّما يبتسم لنا ... وكم سيصير عذباً أن يُخبرنا هؤلاء القساوسة بالحقيقة دائماً، لا أكثر ولا أقلّ من الحقيقة المجرَّدة ... *أنا أؤمن بالله القادر على كل شيء، خالق السماوات*... بالضبط هكذا: خلق السماوات والأرض ... وبيسوع *المسيح رسولاً لنا* ... لا أحقّ من ذلك: إن يسوع المسيح رسول لنا ... *أنا أؤمن بالكنيسة الكاثوليكية، وتناوُل القدِّيسين، وغفران الخطايا، والحياة الأبدية، آمين*. إنها حقائق مسلَّم بها: تناوُل القدِّيسين، وغفران الخطايا، والحياة الأبدية ... كم سيكون جميلاً أن تنعكس في تلك اللوحات المحيطة بنا هنا بأمانة ودقَّة وتمحيص، الحقيقة: الملائكة ذوو الأجنحة، العذراء بذلك الوجه، يسوع المسيح، وقلبه خارج صدره! ... كم سيبدو جميلاً أن يكون البابا بيو الثاني عشر، الذي أعرف حفيده أيضاً، ممثِّل الله حقّاً، وألّا تكون زيارة قسِّ الزعفرانة، مساءً، لمنزلنا الرِّيفيِّ، مُمسِكاً بالشعلة في يد، ومظلَّة من المشمَّع في اليد الأخرى، مجرَّد عادة عزيزة، لكنها زيارة نافعة حقّاً، وأكثر نفعاً من زيارة طبيب أحمق، يظلُّ يرمقكَ كحيوان يملكه، بينما يعلم عنكَ -لأنه رآكَ في صورة أشعَّة طبيَّة- ما يعلمه صقلي عن الصين التي شاهدها في السينما ... كم سيكون جميلاً، بحقِّ الله! كم سيكون مبهِجاً أن تسير الأمور بهذا الشكل! ... لكنها ليست كذلك!" - استأنف بعد صمت - "بحقِّ المسيح، إنها ليست كذلك! أيُّها المسيح لماذا يجب ألّا يكون وجودكَ حقّاً؟ لماذا لا يكون حقيقيّاً أن ينال المتعطِّشون للعدالة الرضا، وأن يجلس البؤساء في الأرض على يمينكَ، يغمرهم الضوء والبهجة؟ لماذا لا تكون مُحقّاً عندما تتوعَّد بالجحيم أولئك الذين لا يؤمنون بكَ، ويجب أن يكونوا، هم

الملعونون، على حقٍّ؟ وإذا توعَّدتَ أنتَ بالجحيم أولئك الذين لا يؤمنون بكَ، بماذا نتوعَّدكَ نحن العاشقين المحبطين؟ وإذا كنتَ تعاني، وأنتَ تسمع شخصاً لا يؤمن بكلماتكَ، فكم يجب أن نعاني نحن عندما ندرك أن كلماتكَ كانت خداعاً وحلماً، حلماً جميلاً لا يأبه به العالَم، حلم كثير من المساكين الذين احتضروا، وفي نفوسهم يحيا الأمل، وماتوا مع آمالهم؟ ... من جانب آخر، وبينما أقول هذه الكلمات، لا أعلم لماذا يبدو لي أنني أتخلَّى عن التزاماتي، وأُحرِّك أحد الإجابات الرهيبة ... إلَّا أن يكون هذا انطباع شخص ...".

- "خال" - قاطعه أنطونيو جاذباً إحدى يَدَيْه بعنف، وناهضاً على قَدَمَيْه - "يوجد أحد الرهبان".

- "أين؟" - سأل السَّيِّد ناهضاً هو أيضاً - "سأذهب لأعترف على الفور".

خَطَوَا بعض الخطوات نحو الرداء الأسود الذي ينتصب على درجات سُلَّم الصفّ الصغيرة، مستقيماً كما لو كان خاوياً ومعلَّقاً.

لكنْ، وبينما هما يقتربان، فَطِنَ أنطونيو إلى وجه شاحب، يتَّصل بذلك الرداء ذي وشاح العنق الأسود.

- "إنه الأب رافائيل" هتف متوقِّفاً.

- "هكذا أفضل، سأعترف معه".

- "لا!" أجاب أنطونيو بحركة عصبية.

- "ولمَ لا؟".

- "إنه قسّ اعتراف باربرا".

- "ولذا؟".

- "لا، أتوسَّل إليكَ!".

حاول أنطونيو أن يدير خاله للوراء، ويدفعه نحو الباب. بلا طائل! ما إن تعرَّف الأب رافائيل إلى أنطونيو، حتَّى حاول الابتعاد هو أيضاً؛ كان الرجل

الصالح يشعر بذلك الطلاق يُثقل ضميره، وكانت المعترفة له لا تريد اعتباره خطيئة، وشجَّعها على ذلك حكم المحكمة العليا المقدَّسة.

اعترت أنطونيو أشدُّ درجات الاحمرار؛ كان وجهه يحترق، ويؤلمه. وبدت له الهيئة ذات الرداء الأسود التي تنسحب شطر جناح الرواق الأيسر، مُثقلَة بكل غموض باربرا.

- "خال" - قال - "أنا لستُ على ما يرام، يبدو لي أنني لم أعد أُبصر، اصطحِبْني للمنزل!" اندفع إرمينجيلدو مبادِراً، وأمسك به.

خرج أنطونيو من الكنيسة مَغشيّاً عليه، بين ذراعَي الخال الذي لم يستطع، بالرغم من الثقل الذي يرتمي عليه، أن يكفَّ عن الغمغمة طوال الطريق الشّاقّ:

- "... أوَ أُصبحُ اشتراكيّاً أنا أيضاً! ...".

- "... أو كاثوليكيّاً، كاثوليكيّاً عميق الإيمان والعبادة، منزل وكنيسة!".

- "... أو أترك صمّام الغاز مفتوحاً!".

الفصل الثاني عشر

"صوب شاطئ خاوٍ
لأن خريف الحياة يقترب،
تنظر الأحلام مهزومة، وبلا عزاء".

أ. بالديني

مرَّت أربعة أعوام. ذات يوم من شهر أغسطس عام 1943، في أحد ميادين بونتا الصغيرة، وهي أوَّل بلدة على الطريق الذي يمتدُّ من كتانيا لأعلى الإتنا، أخذ كومبانيوني اللِّصُّ الطَّيِّب، الذي يمتطي حصاناً هزيلاً، ويبدو تحته ضئيلاً ومشاكساً ككلب، في الصياح نحو شرفات أحد المنازل التي غطَّاها الدخان الأسود: "سيِّدة سارة، سيِّدة روزاريا، مع مَنْ تحدَّث زوجكِ؟ أرأيتِ مرور آلاف، وآلاف من العربات المدرَّعة؟ والآن، لم تعد تأتي. خلفي يأتي الهَمَج ممتطين الجياد ... أجل ... أولئك، والحلقات تتدلَّى من أنوفهم، والريش فوق رؤوسهم! ... بالضبط كما قال زوجكِ. بالضبط: نصّاً! ... الهَمَج، وأكَلَة لحوم البشر! ..." وحرَّك ذراعَيْه الضخمَتَيْن في ثورة غضب، ورضا، وفزع، واشمئزاز. "هذا ما كان يجب أن تراه عيناي: الهَمَج في كتانيا، في الطريق الرئيس! والآن يأتون هنا! ... لقد تحدَّث السَّيِّد ألفيو مع الشيطان، مع الشيطان!".

لكنْ، أين السَّيِّد ألفيو، أين ذلك العجوز المسكين؟

ذات ليلة من عام 1942، كان يعود إلى المنزل متمهِّلاً، ولاعِناً الظلام الذي يجعله، بين الفينة والأخرى، يتراجع وثباً، كما لو أن باباً قد أُوصِدَ

في وجهه، والحرب، والشيخوخة، عندما انطلقت الأشياء ذاتها، قراميد الشوارع، والعربات المتوقِّفة إلى الرصيف، وجدران المنازل، والسماء المليئة بالنجوم، والأجراس في صراخ طويل ومستمرٍّ كصراخ قطيع يشعر باقتراب الذئب: كانت تلك صفَّارات الإنذار.

- "هذه الليلة" - تمتم السَّيِّد ألفيو - "يحدِّثني قلبي بأنهم لن يتركوا حجراً فوق آخرا".

وبدلاً من أن يسلك الطريق المؤدِّي إلى المنزل، ولج بعض الأزقَّة القذرة، حيث كان غالباً ما يسمع المارَّة ليلاً عن اليمين، واليسار همسات نساء تقول: "ادخلْ، هيَّا! توقَّف للحظة!".

لكنْ، في تلك الليلة، وعوضاً عن الدعوات المُرسَلَة، كان يُدوِّي صوت الأبواب تُوصَد، وخلفها، بمجرَّد أن تُغلَق، صخب الأوتاد والمتاريس المتسرِّع والمرهِق.

أسرع السَّيِّد ألفيو الخطى محرِّكاً عصاه أمامه، ومصيباً بها أكداساً من الفضلات، وقططاً، وكلاباً، في اضطراب. - "بحقِّ الله، سأموت كالفأر في المصيدة! إيه" - كان يصيح - "إيه، ماريوتشا، افتحي لي!".

كانت ماريوتشا، التي تقطن في نهاية الشارع، فتاة بلا قطرة دمٍ في جسدها، ومن صدرها شديد النحافة تبرز حَلَمَتَان ممتلئتان، وشاحبتان، كتلك الثمار التي تنتفخ في الربيع على قِمَم الأغصان الجافَّة، والخاوية من الأوراق.

- "ايه، ماريوتشا، افتحي بربِّكِ!".

كان السَّيِّد ألفيو قد توقَّف بالفعل معتقِداً أنه أمام باب ماريوتشا، لكنْ، انفتح هذا على مبعدة منه، وأطلَّ وجه الفتاة، المضاء من الداخل، أبيض بلون الشَّمْع: - "لكنْ، ما الذي أتى بكَ هنا، يا سيِّدي، في هذه الليلة السوداء؟".

هُرِعَ السَّيِّد ألفيو في كَدٍّ نحو النقطة التي نُودي منها، ودخل جُحْراً، كان الشيء الأكثر قيمةً، ولمعاناً فيه هو المنبِّه الذي يُحصي الدقائق في صخب معدني بائس.

- "لكنْ، كيف؟ تأتي إلى هنا، يا سيِّدي؟ وإذا قتلونا، ماذا سيقول الناس غداً؟ إن السَّيِّد ألفيو يرتاد منزلاً سيِّئ السمعة؟".

- "هذا ما أريده بالضبط" - قال العجوز - "أريد أن يجدوني ميتاً هنا! أريد أن تعلم كتانيا كلها أن ألفيو مانيانو بأعوامه السبعين يذهب إلى العاه ... معذرة، لا أقصد إهانة بذلك. وما يدلُّ على أنني لا أقصد إهانتكِ، أنني أتيتُ لأموت هنا".

- "أوه، الرحمة! أوَ علينا أن نموت؟" سألت الفتاة نبرة حانقة قليلاً.

- "لا أعرف ... هذا ما يعرفه أولئك الأنذال الذين يُحلِّقون فوق رؤوسنا! إنهم فتية فاسدون، ماذا تظنِّينهم؟ فتية فاسدون كأولئك الذين يتدافعون في شارع إتنا. وهم يتدافعون، بدلاً من شارع إتنا، في شوارع لندن! ويلعبون البلياردو أيضاً، فلا يستطيع أب مسكين أن يحملهم أبداً إلى العودة إلى المنزل ... لكنهم هذه الليلة يلعبون بمنازلنا، وضربة من أحدهم، وضربة من الآخر، وسترين أنهم سيُحطِّمونها جميعاً! ... أجل، منذُ اللحظة الأولى، أهل كتانيا كلهم، أنا وأنتِ والحاكم، وأولئك الذين تعلو رؤوسهم القرون ومَنْ لا يملكها، والفاشيون وخصومهم، ودوق برونتي والمنكوبة زوجته، وابني وعزيزتي سارة، الجميع، أقول الجميع، بين أيدي أولئك المتهوِّرين الذين يستطيعون، متى شاؤوا، أن يُطفئونا بنفخة واحدة، هكذا، هوف، كشموع في نهاية الحفل!".

- "ليفعلوا إذنْ" - قالت المرأة - "سأذهب لأدعوَ القطَّ من الفناء".

فتحت باباً صغيراً، يطلُّ على ثقب أسود، يتدلَّى في منتصفه أصيص من الفخَّار.

- "إيه" - قال السَّيِّد ألفيو - "لا تذهبي! لا أريد أن يجدوني غداً وحيداً تماماً، كما لو أنني أتيتُ لأتلوَ صلاة. أريد أن أموت إلى جوار امرأة! سأنزع سترتي!".مكتبة سر من قرأ

- "هيَّا، لن نموت!"- قالت الفتاة دون أن تلتفت إليه، وعادت لتُغلقَ باب الفناء. "أعرف ما يلزم ذلك القطَّ السَّيِّئ!".

لكنهما ماتا. وُجد السَّيِّد ألفيو مانيانو الذي تحترمه المدينة، وتُقدِّره، بعد خمسة أيَّام من البحث، بين أنقاض حَيٍّ سيِّئ السُّمعة؛ وبالقرب من وجهه، كان يوجد حذاء أخضر اللون، صغير، له عقدة وردية، وطرفه يستند إلى صدغه؛ لم يتبقَّ من ماريوتشا سوى الكفِّ الأيمن المغلَق على يد المكنسة. لم يعرف ما الذي قتل حقيقة السَّيِّد ألفيو؛ لأنه كان يبدو كأنه لم يَمَسَسْه أذى، وكانت ملابسه مهندمة ونظيفة إلى حَدٍّ ما؛ وفي أحد جيوب البنطال، داخل حافظة من الكافور، كان يحفظ في حرص ورقة تركها صهره إرمينجيلدو على الخزانة قبل سَنَتَيْن، في الحجرة التي سمَّمها الغاز: "كان كابوس الحياة قويّاً، ومستمرّاً، واستطاع بالرغم من عبثيَّته أن يصير ذا هيئة مترابطة، وطبيعية تقريباً".

أمَّا أهل كتانيا الذين يجلسون مساءً إلى طاولات المقاهي المطلَّة على شارع إتنا، والمطفأة الأنوار تماماً، ويثرثرون كما الأيَّام الخوالي، بالرغم من انطباعهم بأنهم يَلوكُون ظلاماً ترابيّاً، فقد وجدوا في تلك الميتة موضوعاً متجدِّداً.

- "أيّ عجوز قلق! في السبعين من عمره، وفي ليلة كتلك، يجد في نفسه الجرأة على الذهاب والبحث عن مستقرٍّ له!".

- "مبالغة حقيقية!" عارضه أحدهم.

- "لماذا؟".

- "كان بمقدوره السيطرة على نفسه، أليس كذلك؟ أتقولون أنه إذا مرَّت ليلة بدون ... في عمره هذا ... سيموت؟".

- "كلٌّ منّا أدرى بشؤونه".

- "آه، بالتأكيد، لكلِّ نوع من الخشب عبقُهُ، ولكلِّ رجل قَدَرُهُ. لكنه ... لم يكن في العشرين من عمره".

- "لم يكن في العشرين، ولكنه كان لا يزال يؤدِّي تلك المهمَّة جيِّداً".

- "آل مانيانو هؤلاء، ليُمجِّد الله ...".

- "ليت ابنه قد أخذ منه إصبعاً! أكثير هذا؟ إصبع!".

ومَنْ يدري ماذا كانوا سيقولون ويتوهَّمون خلاف ذلك، إذا لم يشعل السكرتير الاتِّحاديُّ، بيترو كابانو، بعد أسبوع، عوداً من الثقاب؛ لأنه وجد نفسه غارقاً في الظلام بسبب إنذار جوِّيٍّ، أطفأ الأنوار، بينما يسكب حاوية من البنزين ليلاً في موقف السَّيَّارات الخاصِّ به. سرعان ما ارتجَّ الهواء، وأحاطت به، من رأسه حتَّى أخمص قَدَمَيْه، نيران حامية، أتت من حيث لا يدري. وثب إلى الخلف وثبَتَيْن محاوِلاً الخلاص من ذلك الجحيم. لكنْ، تبعتْهُ النيران التي التصقت في قوَّة بجسده متأجِّجة.

وتحت تأثير الفزع أخذ هذا الرجل ذو الثلاثين عاماً، وهو ابن وحيد لأبوَيْن يعشقانه حتَّى الجنون، في الصراخ على الأب، والأمِّ، وطلب الغوث. لكنه، لأن لا أحد قد خفَّ لنجدته، ألقى بنفسه إلى خارج الجراج. كان الفناء خاوياً. عبره بيترو كابانو، بينما يشتعل بقوَّة، كمَهْوُوس، وبعد أن ولجَ أوَّل بوَّابة رآها، صَعِدَ إلى حيث أدَّت به درجات السُّلَّم: إلى منزل أحد خصومه.

شعر السائق إيميلّيتسيري - الذي كان كابانو قد أبعده، وطالما زام داخل راحة يده: "يجب أن يموت محترقاً، محترقاً!" - بأنه سيموت هلعاً، عندما رأى، بعد أن شرع الباب، ثمَّ فتحه على مصراعَيْه، ذلك الرجل المسكين في قلب نيران تسجنه داخلها بقوَّة، وتُسرِع في التهام البنزين المنسكب على جِلْده، وثيابه لتنهشَ لحمه.

- "انتظرْ، أيُّها السكرتير، انتظرْ، بحقِّ العذراء المقدَّسة، لكنْ، لا تدخلْ؛

لأننا سنحترق جميعاً هنا!" وبعد أن هُرِعَ صوب المطبخ، عاد بدلو ممتلئ بالماء.

- "لا تخفْ، لا تخفْ؛ لأننا سنُطفِئ سيادتكَ على الفور!".

وبقوله هذا، ألقى بيد مرتعدة، ومندفعة دفقات من الماء على ثيابه، ووجهه. - "لا" - كان كابانو المنكوب يصرخ - "هكذا أسوأ، أسوأ!".

وحقيقة، ارتفعت النيران، كما لو أن الماء يُغذِّيها، بشكل أكثر قوَّة ودموية، مع نفثة من الدخان الأسود نحو السقف. ولرؤيته وجه ذلك الرجل البائس وسط نيران قوية، وقاسية، لم يكن من شيء ليجعلها تميِّز بين جسد مؤمن، وقطعة من الخشب، انفجر السائق في البكاء.

- "لا، ليس الماء: أنتَ تقتلني لأنني فاشي!" صرخ بيترو كابانو.

- "أيّ فاشي، ولا فاشي!" - أجاب السائق منتحباً - "ما تقول؟ نحن بشر! ... يعلم الله ما قد أفعل لأنزع عنكَ تلك النيران!".

- "السترة!" - صرخ كابانو مُلقياً بنفسه على المستراح جاذباً إليه على الأرض النيران التي امتدَّت فوقه في وثبة واحدة، وقد صارت عرضية أكثر منها طولية، لكنْ، لم تخفّ حِدَّتها.

- "أجل، حقّاً، السترة" - هتف السائق - "والبساط!".

هُرِعَ إلى الحجرة الأخرى، ويداه تغطِّيان أُذُنَيْه، كي لا يسمع صرخات كابانو الذي يتلوَّى يميناً ويساراً تحت وطأة النيران التي تحاول التهام كتفَيْه كلَّما رفعهما وهو يتلوَّى على الأرض.

عاد السائق ببساط وغطاء ومعطف، وبسطهما، ممتلئاً بالكدر والأسى، على النيران التي سرعان ما هدأت. عندئذ ألقى السائق بنفسه على الأغطية، وطفِقَ يضغطهما بثقل جسده كله. خمدت النيران بَغْتة مطلقةً صفيراً. ساد الظلام على المستراح، ومن داخل الأغطية بدأ بالتصاعد دخان كثيف، وأشدّ سواداً من الظلام ذاته، بالإضافة إلى تأوُّهات كابانو التي تزداد اختناقاً.

بعد قليل، هُرِعَت طفلة صغيرة تحمل شمعة. نهض السائق مرتعباً، وأسنانه تصطكُّ، ونزع، بيد خاوية من الدماء، الأغطية، وكشف عن جسد محترق تماماً، كفيف، أبكم، بدم متخثّر فوق الجروح العميقة التي تُقطّعه في الاتّجاهات جميعها.

احتضن السائق الطفلة بقوّة، ثمّ ركع إلى جوار ذلك الرجل الذي يبدو أكثر بشاعة بعد أن تمّ إطفاؤه ممّا كان عليه وهو يحترق بفظاعة، وكانت دلالة الحياة الوحيدة فيه هي صرير بعض التّقرُّحات التي لا تزال تُشوَى.

مات بيترو كابانو في اليوم التالي تاركاً أولئك الذين كرهوه، وقد أزعجهم شعور مطلق بالندم. قلائل فقط، يُعدّون على الأصابع، همسوا بقسوة: "كما تدين تُدان!" لكنهم سرعان ما وجدوا مَنْ يزجرهم: - "ما هذا؟ أوه، بحقِّ المسيح! نحن بشر! إنه لم يحرق أحداً!".

- "بل سأقول ما هو أكثر" - كان آخر يضيف - "كان طيِّباً أيضاً".

- "طيِّب، ربَّما ...".

- "طيِّب، طيِّب!".

- "لا أعرف ما تقصد سيادتكَ بقول طيِّب".

- "عندما أقول طيِّب، أعني طيِّب! ألا تفهمها كلمة طيِّب؟".

- "كنتُ أريد ...".

- "لا تريد شيئاً، اصمتْ!".

- "كنتُ أريد أن أقول ...".

- "دعكَ من هذا!".

- "كنتُ أريد أن أوضح ...".

- "لا داعٍ لذلك! دَعْكَ من ذلك!".

وأنطونيو؟ أذلّه موت الأب لبضعة أيّام: ذلك الأب العطوف الذي كان

يُحبُّه أكثر من عينَيْه، رحل موجِّهاً له أكبر صفعة، يمكن لأب أن يُوجِّهها لابنه. لم يكن الخزي من نصيب العجوز الذي مات بين أنقاض حَيٍّ سيِّئ السُّمعة، وظلَّ ليوم كامل ممدَّداً على أسفلت الطريق برفقة اثنَيْن من المخمورين ذوي الأنوف المتورِّمة، وخمس نساء لم يعرف الموت ماذا ينزع منهنَّ، فقد امتصَّتهنَّ الحياة تماماً: كان الخزي من نصيبه هو، أنطونيو، الذي وجد، بعد ثلاثة أيَّام، عندما توجَّه إلى مقابر أكويتشيلا، على شاهد قبر أبيه، هذه الكلمات المفزعة، وقد خطَّها بالفحم شخص مجهول: "... مات في السادس من مارس عام 1942، ليغسل شرف العائلة الذي دنَّسه الابن". كانت الكلمات ضخمة، وغريبة. حاول أن يمحوها بكُمِّ سترته متلفتاً حوله، كما لو كان أحد منتهكي القبور، ومتلقِّياً في عينَيْه المفزوعَتَيْن نظرة العديد من الصور، والتماثيل. لم يعد مجدَّداً إلى المقبرة، وكان يخشى النوم كل ليلة، لأنه يرى في الحُلم تلك الكلمات المكتوبة بالفحم.

لكنْ، كانت السَّيِّدة روزاريا ترى الواقعة من زاوية أخرى.

- "حبيبي ألفيو" - كانت تُكرِّر، مرتدية ومتَّشحة بالسواد، والسُّبْحَة لا تغادر يدها، وميدالية سوداء تستقرُّ على صدرها تحوي صورة السَّيِّد ألفيو في ملابس الحِدَاد على أبيه، ويحيط بوجهها منديل أسود - "عزيزي ألفيو، ألفيو، يا كنزي، وروحي، مات مع تلك النساء، تحت الحجارة! ...".

لم ترغب في الطعام، ولا في التَّمدُّد على الفراش.

- "لكنْ، كيف يمكنني الأكل، كيف يمكنني النوم" - كانت تنتحب مع الأقارب الذين يمسكون بها أحدهم بيد، وآخر باليد الأخرى - "عندما تموت روحي تحت الأحجار، مَنْ يدري كم عانى؟".

كان الجميع ينفجر في البكاء، والنساء تتطلَّعنَ إلى أنطونيو الذي بدت وسامته، في ملابس الحِدَاد، وشحوب الألم، والخزي، ملائكيَّة حقّاً.

بعد شهرَيْن، عادت السَّيِّدة روزاريا التي غلبها التَّقزُّز لعدم تمكُّنها من الموت، إلى الطعام، والتَّمدُّد على الفراش لبضع ساعات. لم يعد

أنطونيو يحلم بشاهد قبر أبيه، وبين الحين والآخر، كان يرى حُلماً أكثر عذوبة بأن باربرا، وقد نالها التَّأثُّر للكارثة، تكتب إليه خطاباً، بطاقة، ترجوه الذهاب إليها.

لكن باربرا لم تكتب أيَّ بطاقة، وكان أنطونيو، بعد غروب الشمس، يدور حول قصر آل بروتتي، بالغاً، من أساه، درجة من الغباء جعلتْهُ ذات ليلة، بمجرَّد أن رأى شعاعاً من الضوء يتسرَّب من بين المصاريع، وأملاً في أن تُفتَح المصاريع، وتطلُّ هي، يُطلِق صرخة جنونية: "ضوء، ضوء! يجب أن تتدلّوا من المشانق!".

انطفأت الأنوار على الفور، وفرَّ أنطونيو كأحد لصوص القناديل شاعراً بالاشمئزاز من نفسه، يُثقَل كاهلَيْه، وبعد أن بلغ طريق سانت إيوبليو الخالي، أسفل جدار الحديقة العامَّة، أسند يده إلى حجر، يغطِّيه المسك، وبكى على هذه اليد طويلاً، ولأنه اعتاد وضع العطر الذي كانت باربرا تستخدمه، فقد تملَّك منه للحظات ذلك الوَهْم العذب بأنه يبكي، ليس على يده، لكنْ، على وجنة باربرا.

إنها عذوبة كاذبة، كان يشعر بذلك متمتِّعاً بها، لكنْ، كلَّما صارت أقوى وأكثر إثارة للأعصاب، اشتدَّ ارتباطها بهاجس أنها على وشك أن تُفضي إلى شعور عميق، ومؤسف بالمرارة. ها هي، بالفعل، قد انتهت! ها هي، بالفعل، قد فُقِدَت! كانت اليد تسقط من فوق الحجر المسكي تاركة القليل من عطر باربرا وسط الحشائش، القليل، نفحة، ما يتبقّى من الضوء في تحليق القُطْرُب بعد انقضاء نهار منتصف أغسطس.

- "إن باربرا هذه مجرمة!" كان إدواردو يقول.

كان أنطونيو يجيب بابتسامة ساخرة، ومتعالية تقريباً.

- "لا أعلم إذا كان ما يقولونه حقّاً" يجيبه ابن العمَّة.

- "ماذا يقولون؟" سأله أنطونيو لرغبته في سماعه يتحدَّث عنها أكثر من اعتقاده بصِدْق حديث، يدرك زيفَهُ بالفعل.

- "لكنْ، يقولون ... يقولون أشياء كثيرة" - وبينما يتطلّع إلى وجه ابن الخال الساحر، كان إدواردو يضيف في انفعال - "والجميل أنني أُصدِّقه! ... وأنت لا بالقطع؟".

- "لكنني لا أعلم بعد بأيِّ شيء يتعلَّق الأمر...".

- "يتعلَّق بهذا: أن باربرا وزوجها ليسا على وئام. ومن جانب آخر، كيف تستطيع أن تكون امرأة على وئام مع تلك البقرة التي ينقصها فقط جرس يتدلّى من العنق؟".

أضاء أنطونيو بهجة.

- "وليس هذا كل شيء: باربرا تخونه!".

أظلم وجه أنطونيو: لكنه سرعان ما عاد إلى ابتسامته المتحفِّظة، ورفع ذقنه في الهواء.

- "أنتَ لا تُصدِّق ذلك قطعاً".

كان أنطونيو يُقلِّب شَفَتَيْه، ويرفع ذقنه بتمهُّل.

- "على كلِّ حال، أنا أُصدِّقه، وأُراهن بأيِّ شيء على أنه حقيقي!".

- "ومع مَنْ تخونه؟".

- "مع السائق".

كان أنطونيو يبتسم في أعماق صدره، تقريباً في معدته، ويرفع ذقنه مجدَّداً.

- "لا؟".

كان أنطونيو يرفع ذقنه.

- "بل أجل! باربرا تجري في عروقها كمِّيَّة كبيرة من دماء مخبولة. وأتعجَّب أنكَ، وقد عشتَ معها ثلاثة أعوام، لم تدرك شيئاً من ذلك على الإطلاق! كانت تكفيني نظرة واحدة ... يوجد في عائلتها، وأنتَ

تعلم هذا، اثنان، أو ثلاثة مخابيل، لا يُحبُّ أيُّ محرِّر عقود من آل بوليزي أن يسمع أحداً يتحدَّث عنهم. انظرْ ما ستفعل: اذهبْ إلى حميكَ ...".

شحب وجه أنطونيو.

- "أي إلى ذلك الذي كان حماكَ، وقلْ له: يا محرِّر العقود، كيف مات عمكَ تانينو؟ وسترى بأيِّ لون سيكتسي وجه محرِّر العقود".

- "لماذا؟ كيف مات؟".

- "مع امرأة جالسة على وجهه، وأخرى على بطنه، على الوسادة، حيث يضع آل بوليزي كتاب الصلاة، كان يضع مُغلَّف إحدى الموادِّ المخدّرة ... وآخر من آل بوليزي - عمّ جايتانو هذا - كان يبيع المخدّرات المهرَّبة بعد الحرب السابقة، ويدسُّ اللِّفافات بين شَعْره، وفي المساء، يطرق بعض أصدقائي باب منزله في الطابق الأرضي، وبعد أن ينفحوه رزمة جيِّدة من الأوراق المالية، يصير لهم الحقُّ في مداعبة رأسه. وذات مساء وجدوا، بدلاً منه، زوجته تصرخ ألماً: كان المنكوب قد مات. واسى أصدقائي المرأةَ بكلمات طيِّبة، ثمَّ قالوا: "ألم يترك القليل من أكسيد الماغنسيوم؟"، "و ما أدراني" كانت المرأة تنتحب: "ما أدراني إن كان تركه؟ ما أدراني إن تركه؟ ما أدراني أين يحتفظ به، حيث، إضافة إلى آلامي الأخرى، ليس لديَّ ليرة واحدة، لنقيم الصلاة عليه؟ ..." أزاح أصدقائي المرأةَ جانباً بلطف، ودخلوا، والقبَّعات في أيديهم. كان الميت ممدَّداً في النعش بين أربعة شموع مضاءة، وكان رأسه، الذي لا يستند إلى وسادة، غارقاً بين كتفَيْه. اقترب أحد أصدقائي من النعش، وركع، ورسم الصليب، وقرأ صلاة، ثمَّ رسم الصليب مرَّة أخرى، ومرَّر يداً بين شَعْر الميت، وجذب لِفافة. عندما عاد إلى الأرملة، أخذ بيدها اليمنى، جذبها إليه، ووضع فيها مئتَي ليرة، أقام بها في اليوم التالي الأخ الراهب صلاة مُرتَّلة".

"ولذا؟".

"لذا أُخبركَ أنه إذا بحثتْ باربرا في دمها عن بضع قطرات دم مخبول،

لوجدتْ ما يكفيها. ثمَّ إنني علمتُ أنها عندما كانت طفلة ... لكنْ، دَعْنا من وقت كانت طفلة ... لنتحدَّث عن اليوم! اليوم كما هو، إذاً ... مع السائق ... بكل ما سبق!".

نهض أنطونيو مستاءً.

- "أنتَ" - صاح ابن العمَّة خلفه - "تصير أحمق!".

رفع أنطونيو كتفَيْه، وقد نجح في أن يُعبِّر، بكتفَيْه، وخلف عنقه، عن أقصى أشكال التشكيك سخرية، وابتعد.

- "حسناً" - همس إدواردو يائساً - "فكِّرْ كما تريد".

كان أنطونيو يعود في المساء للدوران حول قصر آل برونتي، ويمرُّ من جذع شجرة دُلب لآخر، في صمت، وسرعة كصيَّاد، ثمَّ يُدخِل وجهه بين أسياخ البوَّابة شاعراً ببرودة وصلابة الحديد عبر وجنَتَيْه كمداعبة رقيقة، كلَّفت باربرا أحد أملاكها بالقيام بها لذلك المُبتلى، أقلّ ما يمكنها منحه إيَّاه، وهو ما بدا له، على النقيض، كثيراً، بل كان يملؤه بالنشوة والسعادة، كان قلبه ينبض، ويثب لتفكيره بأن لا أحد يراه، وأنه سعيد بينما يخالف قواعد الاعتزاز واللياقة والوقار كلها. لا، لم يكن إدواردو يعرف ما يقوله! كان قصر آل برونتي يرتفع هنا، شامخاً، وقاتماً كأحد الكنائس، ومن برجه المرتفع، يتَّجه نحو السماء، ويغرق فيها بجلال أحد التماثيل، شرف واستعلاء، وبرودة مَنْ تحمل في خصرها مفاتيحه.

ذات يوم، رأى بنو العمومة عربة تمرُّ ببطء عبر شارع إتنا، ومطبوع على نوافذها شعار دوقات برونتي.

توقَّف أنطونيو، ووكَزَ إدواردو بمَرْفِقه.

فوق مقعده، والقبَّعة على رأسه، والسوط الطويل في يده اليمنى، واللجام في اليسرى، كان السائق يتمايل.

- "انظرْ" - قال أنطونيو - "انظرْ هناك، سائقكَ! كم عاماً تعطيه؟".

كان السائق عجوزاً، لكن إدواردو قدَّره في سخاءٍ عجوزاً للغاية، وأعطاه خمسة وسبعين عاماً.

- "من جانب آخر" - أضاف - " كان ذلك الرجل الذي قصَّ عليَّ قصَّة باربرا كاذباً بالقطع. تخيَّل أنه قال لي أمس في جدِّيَّة تامَّة أنه سمع في الراديو بأُذُنَيْه أن هتلر قد فَقَدَ بصره. وللحقيقة لم يكن وحده مَنْ قصَّ عليَّ تلك القصَّة، لكنْ، إجمالاً" - لفظ في نفاد صبر - "لتفعل باربرا ما تريد، لتُسيِّره باربرا كما يبدو، ويروق لها: إنه ملكها في نهاية الأمر! يوجد في تلك الأيَّام في العالَم ما هو خلاف باربرا ودوق برونتي! بعد وقت قليل، عزيزي أنطونيو ...".

كانت أوروبا غارقة في الظلام، والسفن تنزلق إلى البحر ليلاً كئيبة، وقاتمة كعربات جنائزية، ويتغذَّى العديد من الشعوب على العنب الجافّ فحسب، ومع ذلك كان إدواردو يتنسَّم في الهواء "رائحة السعادة".

- " بعد وقت قليل" - قال - "ستبدو لنا هذه الأعوام العشرون من الاستبداد والفظاظة والادِّعاء كحُلم ليلة محمومة. سنحتفظ فقط بعادة أن نلتفت للوراء قبل أن نتحدَّث بصوت مرتفع، ونثير ضحك أحفادنا. - "لكنْ، ماذا حلَّ بالجَدِّ" - سيسألون - "ينظر دوماً خلف ظَهْره؟" وسيوضح أبناؤنا مبتسمين أن الجَدَّ المسكين عاش في عصر، كان كل مواطن فيه يسير وملاكه الحارس خلفه ظَهْره، ويذهب للسجن فقط لأنه قال إن رئيس الحكومة عجوز ... لكنْ، أتعتقد ذلك، أنطونيو؟" - كان يهتف وهو يقبض على ذراعَي ابن الخال، ويهزُّه بقوَّته كلها - " بعد وقت قليل، لن يكون عليَّ أن أقول بعد ذلك إن هتلر يصل بالكاد إلى ركبَتَي زعيمنا، عندما أريد أن أقول إن الأوَّل والثاني هما حيوانان حاذقان! بعد وقت قليل، سأقول رأيي بوضوح في وجه كل شخص! أمن الممكن؟ أسأل نفسي في بعض الأحيان، أمن الممكن هذا؟ أن أقول بصوت مرتفع رأيي كيفما كان! ... رأيي" - كان يضيف على مهل، كما لو أنه يسمع وحده تلك الكلمات، ويركِّز فيها على

أفضل وجه، ويفهمها - "كيفما كان ... بصوت مرتفع! ... لكن أنطونيو" - كان يتابع في غضب - "أعتقد أنني لن أبلغ أبداً يوماً مماثلاً. وسأموت دونه! ثمَّ، هل سأكون قادراً على ذلك؟ أعني، هل سأستطيع أن أتحدَّث لغة الإنسان الحُرِّ؟ ألن أرتبك؟ ألن أحْمَرَّ خجلاً؟ ألن أقول تُرَّهَات؟ ألن أظهر للجميع أنني كنتُ لعشرين عاماً عبداً مسكيناً؟ ألن أحاول أيضاً عندئذ، ولعادة قديمة، أن أروق لأحد، أو أن أُنافق مسؤولاً، وأُمالئ، وأقول، في كل مناسبة، أحاديث ملائمة؟ ألن أقوم بدور الثائر بلا مناسبة، وينتهي بي الحال ألَّا أدفع تذكرة الترام، لأظهر أنني رجل حُرٌّ؟ أنا أفقِدُ عقلي ...".

كان بنو العمومة يسيران الواحد إلى جوار الآخر في صمت.

- "الشيء الوحيد الذي قد لا يروق لي" - أكمل إدواردو بصوت متأثِّر - "أن زمن الكياسة والعطف والشِّعر سيعود بعد أن نكون قد تجاوزنا العشرين عاماً! لقد سلب ذلك الرجل شبابنا؛ وفي اليوم الذي سيعتقلونه فيه، ويقومون بتفتيشه، سيجدون معه أعوامنا العشرين. يجعلني هذا التفكير أغرق في العَرَق البارد! أن أرى أوروبا هادئة، وحُرَّة، أوروبا تحتفي بالحُلم والموسيقى، بينما لم نعد نحن في العمر الذي يحلم فيه المرء بحماس شديد، ويمضي نهاراً كاملاً مُدندِناً أُغنيَّة توستي الجديدة! ... لكنْ، لتكن مشيئة الله! المهمُّ أن تعود الأوقات السعيدة، وقبل كل شيء، الحُرَّة!".

في هذه الأحاديث والمشاعر، قضيتُ أعوام 1940، 1941، 1942، أعوام كانت - بالنسبة إليه - في انتظار السعادة، سعيدة في رقَّة وقلق. بأيِّ لون لا يكتسي الأمل؟ وعلى أيِّ شيء لا يتغذَّى؟ ومن أيِّ زهرة صغيرة لا يشعُّ؟ ومن أيِّ أنشودة بائسة لعابر لا يُغنِّي بصوت عالٍ؟

وبيبو، بيبو لا يعرف
أنه عندما يمرُّ تضحك المدينة كلها،
يظنُّ نفسه جميلاً
كأحد الآلهة

ويقفز كدجاجة

أوه، أُغنيَّة عذبة، بالنسبة إلى إدواردو! إنها تعني أنه في غضون وقت قليل سيأتي وقت سعيد.

بعد بضع سنوات:

الليالي كلها أسفل ذلك المصباح
بجوار الثكنة أظلُّ أنتظركِ.
والليلة أيضاً سأنتظركِ
والعالم كلُّه سينسى
لأجلكِ، ليلي مارلين
لأجلكِ، ليلي مارلين.
أوه، نافخ البوق، هذه الليلة لا تنفخ،
أريد أن أحبَّها مرَّة أخرى ...

كان إدواردو، وذقنه على الوسادة، يتابع صوت سامر الليل. لم تكن أوروبا المتوحِّشة المنهَكَة ترغب في سماع الأبواق العسكرية، بل تُفضِّل صوت قبلة أسفل مصباح. ها هي الرُّومانسيَّة تعود، ها هو أوَّل رومانسي جديد يمرُّ في الطريق، في قلب الليل، وبالضبط أسفل شرفة إدواردو، ها هو أوَّل أوروبي يمتلئ رأسه بالأحلام.

عندما يكون عليَّ أن أسير في الوحل

أترنَّح تحت بندقيتي.

أوروبي لطيف، ليس بمقدوره تحمُّل ثِقَل بندقيته.

ماذا سيكون من أمري؟

ثمَّ أبتسم وأفكِّر فيكِ.

أوروبي رائع، تكفيه صورة امرأة، في مخيَّلته، حتَّى لا يرى لا وحلاً ولا بؤساً.

كان إدواردو يتقلَّب في الفراش، وينفث عن بهجة شغوف.

- "ماذا بكَ؟" كانت الزوجة تسأله.

- " بعد وقت قليل" - أجاب إدواردو - " بعد وقت قليل ...".

- " بعد وقت قليل، ماذا؟".

- "لا شيء، سترين".

وها هو أخيراً اليوم الذي تمنَّاه إدواردو. يحمل تاريخ الخامس من أغسطس عام 1943. ها هو! لكنْ، كم كان الغبار أسود وصاخباً بِدَوِيٍّ يصمُّ الآذان! سقط الطغيان، لكنْ، سقطت معه أيضاً أسطح المنازل وأجراس الكنائس والجسور القديمة فوق الأنهار؛ تحطَّمت الساعات على قِمَم المباني العامَّة، وظلَّت العقارب متوقِّفة على الدقيقة التي قَتَلَت فيها القنبلة في الطريق نفراً من المساكين المفزوعين ... وصل اللِّصُّ الطَّيِّب كومبانيوني بالفعل، ممتطياً حماراً، إلى البونتا، وكان يصيح صوب المنزل الصغير المغطَّى بالغبار الذي لجأت إليه السَّيِّدة روزاريا وابنها أنطونيو، يصيح بأن من خلفه يأتي الأفارقة والهنود.

مدَّت السَّيِّدة روزاريا على استحياء رأسها التي يحيط بها منديل، ورسمت الصليب، وتراجعت.

- "أنطونيو، أسمعتَ؟" - قالت بصوتها الهزيل الذي تبقَّى لها بعد وفاة الزوج - "تحدَّث أبوكَ إلى الملائكة، يا للمسكين، في كتانيا، في الشارع الرئيس، يسير الهَمَج!".

إلى الجانب الآخر تقلَّب أنطونيو الممدَّد على إحدى الأرائك، والمنديل الحريري المألوف يلفُّ عنقه: - "سيذهبون من حيث جاؤوا" تمتم، ووجهه إلى مسند الأريكة الممزَّق.

- "يا للفتيات المسكينات!" - قالت الأمُّ - "على العذراء المباركة أن تُنقذهنَّ! يقولون إن هؤلاء الهَمَج سينتقمون منهنَّ!".

هبَّ أنطونيو، ليجلس على الأريكة.

- "أقاويل!" - هتف - "الزنوج مثلهم مثل البيض".

- "وما أدراني؟"- قالت الأمُّ - "يقولون الكثير! ما بوسعي أن أعرف؟ يا لمنزلنا المسكين!" - أضافت في تنهيدة - "ألا زال قائماً؟ أيكون قد سقط؟ هل استولى عليه الجنود؟ يجب أن يتركوا لي الفراش الذي نمتُ عليه لسنوات طويلة مع أبيكَ. ليحملوا كل ما يشاؤون، لكنْ يجب أن يتركوا الفراش لي، لأنهم إن لم يفعلوا، لا أدري حقّاً ما سأفعل، عجوز كما أنا!".

- "ماذا تريدين أن تفعلي، أُمّي؟" - سأل أنطونيو محاولاً المزاح - "أولئك يحملون السلاح في أيديهم، وسيُطلقون عليكِ النار".

- "وأنا سأنتزع عيونهم بهذه الأظافر".

- "لكنهم لن يدعوكِ تقتربين، يا أُمّي".

- "بل سأقترب. ما يُدريهم بأنني أريد انتزاع عيونهم؟ هم لا يعلمون ذلك، وسيدعونني أقترب ... وأنا، بيدي هذه، سأُخرِج عيونهم ...".

أظلم وجه أنطونيو بَغْتة. بعد المزاح للحظة، يحدث دائماً أن يعتريه الضيق. لحظة واحدة من البهجة تُشعِره بمرارة حالته المعتادة بشكل أشدّ قتامة.

- "أنتَ، يا بني" - قالت السَّيِّدة روزاريا - "يجب أن تتسلَّح بالصبر في أحد الأيَّام، وتذهب إلى كتانيا، لترى المنزل".

- "سأذهب غداً" أجاب أنطونيو رافعاً قَدَمَيْه مجدَّداً إلى الأريكة، ومتمدِّداً.

لكنه لم يرحل في اليوم التالي.

كان صوت الناي الذي يعزفه الجنود الإسكتلنديُّون المستقرُّون بمنزل الصّيدليّ المجاور، لأسبوعَيْن، ليلاً ونهاراً، عند دقَّات كل ساعة، يمنحه بهجة غامضة ومُرخية للأعصاب. أين باربرا في تلك الأيّام؟ أحقّاً ما يدور

حولها من أقاويل؟ كان محرِّر عقود بونتا يقصُّ أن أحد الألمان قد اعتدى عليها، ومعاونه يردِّد أنها قد فرَّت مع جندي إنجليزي، أمَّا طبيب الصِّحَّة، وهو صديق عائلتي برونتي، وبوليزي، وكان يتوجَّه كل يومَيْن في عربة صغيرة إلى البلدة التي فرَّت إليها باربرا مع زوجها، وهو شخص مبجَّل، فكان يقصُّ أن منزل آل برونتي ظلَّ مغلقاً أمام الألمان والإنجليز، وأن باربرا، لمجرَّد إطلالها من الشرفة، أَفْقَدَتْ بعض الجنود شجاعتهم في الاستمرار بطَرْق الباب بكعوب بنادقهم.

كانت صورة باربرا هذه التي تثير، بإطلالتها من أعلى، كَدَّ وإنهاك بعض حمَّالي مواني هامبورج، أو لندن المتحمِّسين، هي أكثر ما راق أنطونيو، وأقنعه تماماً. كانت الحقيقة بلا جدال تكمن في هذه الصورة! هذه هي باربرا! وكان قلبه ذاته يؤيِّد ذلك نابضاً في تسارُع، كلَّما تخيَّلها في ذلك الموقف المتعالي.

في نهاية أغسطس، نفض الكسل، وتمطَّى، وارتدى ثوبه الأسود، ونزل كتانيا.

يا للتعاسة! في طريقه، كانت أنقاض البنايات الجميلة، التي لم تُرفَع بعد، تتكوَّم فوق ما تبقَّى من جدران، والمحالّ في أغلبها مغلقة، والأقفال ملتوية بعنف، بسبب اللصوص الذين يحاولون تحطيمها كل ليلة، وأكداس من القاذورات في كل ركن، تطالها نيران خفيفة، لم تستطع النيل سوى من بعض القشور الجافَّة، أو من ورقة جريدة، وتبعث لأعلى حتَّى الطوابق الثلاثة الأولى، والشرفات، سحابة كثيفة من الروائح الكريهة؛ تطير العصافير، التي أفزعها إطلاق الرصاص، على ارتفاع كبير، كما لو أنها تُحلِّق حول أرض، أغرقها الطوفان، وترسم في أعماق السماء صوراً غير محدَّدة من الكرب، واندفع البعوض، الذي أتت به المدرَّعات الحربية، والفأرُون، وتلك القوى المستترة التي تجذب الحشرات إلى صدور الرجال عندما يَفقِدُ هؤلاء كل قوَّة، من البيانا إلى قلب المدينة، وبثَّ

الملاريا حتَّى في أكفِّ المنشدين المرتجلين المرفوعة صوب السماء، بعض الفقراء المعدمين البائسين الذين يُغنُّون ليلاً للجنود في مسرح بيلليني؛ وأعلى أكوام القمامة، يجول فتية عرايا، نحفاء، تثقب عظامُ أكتافهم الجِلْدَ كأطراف أجنحة، بحثاً عن طعام؛ وفوق بعض الأنقاض، تستقرُّ، بلا هيكل خارجي، أوتار بيانو تُعلن ليلاً شاكية وجود لصوص، بصوت الحبال التي تسحَبُ عليها بَغْتة إحدى قطع الأثاث المنقول خفية؛ لا توجد أعواد ثقاب، ولإشعال النار، كان يجب الذهاب لطلب أحدها من الصديق الحصيف الذي يقطن الطرف الآخر من المدينة. يا للتعاسة! في الطريق، لافتات من جميع الأحجام جميعها تقول بالإنجليزية: "انتبهوا للأمراض المُعدِية!"، "الحرب تنقضي، لكن المرض المُعدِي يبقى!"، "ماذا تحمل إلى فتاتكَ في المنزل؟ مرضاً مُعدياً". في منتصف الطريق، اكتسى أحد المقاهي القديمة والراقية بالدروع والملاط الأبيض، وعلى الباب، كُتبت حروف برَّاقة، تأمر الجنود: "ادخلوا! اغتسلوا قبل ذلك، أو على الأقلِّ بعده!" وغزت الحديقة العامَّة المدرَّعات الحربية، وعند الغروب، يجول الأهالي المنكوبون كأشباح في الأماكن التي دُفنَتْ بها منازلهم، ومعها قاعة الطعام التي كانت تصخب حتَّى العام الماضي بنخب ليلة القدِّيس سيلفيسترو مع التَّمنِّيات بعام سعيد والقبلات المتبادلة، بينما يتلصَّص آخرون، طُردوا من شققهم، وانتهى بهم الأمر للعيش مع أقارب فقراء، وشكَّائين، من الطريق، عبر واجهات النوافذ، على ما يدور في مساكنهم القديمة، ويرون على الجدارن التي كانت صورة العائلة المقدَّسة تتدلَّى فوقها ذات يوم، صورة امرأة عارية مشوَّهة، اخترقت عينها رصاصة مسدَّس، أطلقها أحد الجنود السُّكارى. كان حَيُّ الميناء، الذي كانت تقوم فيه إلى جوار المنازل الشَّعبيَّة الصغيرة قصور كتانيا القديمة، محاطاً بالأسلاك الشائكة، ومُحرَّماً على السُّكَّان جميعهم، لأنه صار مقرّاً للجنود الزنوج الغلاظ سريعي الشكوى الذي كان أحياناً يُرَى أحدهم في إحدى الشرفات مرتدياً قبَّعة

مالكة المنزل الصغيرة فوق رأسه وثعبان البوا يلفُّ عنقه. كان سُكَّان ذلك الحَيِّ، سواء من الأثرياء أو الفقراء، يستندون إلى السلك الشائك، محاولين رؤية أقصى مدى بنظرة بائسة، ومواساة منازلهم القديمة التي سقطت، كما يقولون، في أيدي الأتراك. وإذا أصاب الأشياء الخراب، فلم تنجُ المشاعر أيضاً. انتشر الكثير من الأحقاد بين العائلات: تحيَّات غير متبادلة ونظرات متعالية وشكاوى سياسية ألقت على المنازل السليمة المتبقِّية مظهراً أشدَّ وحشة، كما لو أن كلاً منها قد أوصد أبوابه في وجه الآخر تعالياً واحتقاراً. مَنْ كانوا يتَّسمون بالعنف في الماضي، وقد أصبحوا بلا مخرج الآن، صار لونهم أصفر من السُّمِّ الذي يسري في أجسادهم، ولم يكن بمقدورهم أن يُلطِّفوا من نظراتهم حتَّى وهم ينظرون إلى الأبناء. أمَّا مَنْ قاسى من الناس، فلكم أصابه الدمار! كان المحامي المهذَّب بوناكورسي معتكفاً في منزله، ولم يرغب في استقبال الأصدقاء الذين أصابوه بالمَلَل. كان يبكي طيلة اليوم، مرتدياً السواد، بمنديل في يده، وجالساً أمام مرآة، كما لو أنه يواسي نفسه برؤية رجل متألِّم. هكذا، بينما كان أولئك الذين ضربوا وقتلوا وبعثوا بالآخرين للسجون أشدَّاء وفخورين بذلك عندما يُصرِّحون بما في سريرتهم، أو يفكِّرون بالانتقام، كان هذا الشخص المهذَّب، الذي طالما أمعن الفكر، ولم يرتكب السوء قطُّ، يعذِّبه ندم الآخرين في شفقة، ولا يمتلك شجاعة الخروج إلى الطريق. كان المهندس مارليتي، الذي تمَّ تعيينه رئيساً للمدينة، يسير في شارع إتنا الذي يكسوه الغبار، وتصمُّهُ المدرَّعات العسكرية بأنف كمنقار البومة مرفوعاً في الهواء، وهو يتظاهر بأنه لا يعرف الكثير من معارفه، ويبادل بابتسامة جميلة، وتحية من يده تحية ممارسي العنف الجدد فقط. إنه نفوذ مثير للشفقة، نفوذه، لأن بعض الجنود الإنجليز السُّكارى، بعد أن باغتوه أمام مكتبه، وهو يُعلن في وقار عمَّنْ يجب أن يُحرَم للأبد من حقوقه المدنية، قاموا بخَطْفه في عربة جيب، وأجبروه، بمجرَّد أن حملوه إلى مبنى قديم، بين بقايا وليمة كبيرة، على غسل جبل من الأطباق المتَّسخة. أمَّا

المحامي أرديتسوني، فاستولى عليه خوف مهيب، يماثل ادِّعاءه السالف، وتوجَّه عصر يوم، مع أحد الرَّسَّامين إلى مقرِّ جمعية المحامين مُستغِلاً عدم وجود أحد في تلك الساعة، وجعله يمرِّر على العصا الفاشية التي يستند إليها في صورته الرَّتيبَّة ضربات فرشاة ثقيلة، جعلت هيئته معلَّقة في الفراغ. لكنْ، ظهرت العصا بعد يومَيْن، بسبب الألوان الفاسدة، أو بفعل أحد الكارهين، وقد زاد من حجمها مسحة دموية. وحذَّره مجهول عبر الهاتف: "أيُّها المحامي، لقد عادت العصا!".

- "ماذا تعني بـ عادت العصا؟ وَضِّح!".

- "أعني في صورتكَ، ظهرت العصا من جديد".

- "لكنني رجل شريف، وليس لديَّ ما أخشاه!".

- "أعرف أنكَ رجل شريف، لكنْ، ربَّما أحد الأشرار ...".

- "ما الذي تنصحني بفعله؟".

- "انزعْ تلك اللوحة!".

- "لا، سيكون هذا أسوأ. ربَّما يفكِّرون، مَنْ يدري بأيِّ شيء؟ أنني على سبيل المثال قد جعلتُهم يلتقطون لي صوراً إلى جوار ذلك المجرم المنكوب الذي نُلقي عليه بتبعة مصائبنا كلها ... أتفهمني، يا صديقي العزيز المهذَّب، الذي لا أعرف اسمه للأسف، والذي أشكره، مع ذلك، من أعماق قلبي؟".

- "إذنْ، لتفعل سيادتكَ كما تشاء!".

سقط المحامي تحت وطأة الحُمَّى، ومرَّات عديدة، كلَّما سمع طَرْقاً على الباب، وتخيَّل أن الشرطة الإنجليزية قد وصلت بقبَّعاتها الحمراء والحمَّالات البيضاء، حاول الصعود إلى الشرفة، ليُلقي بنفسه في الشارع. هكذا صار فريسةً لفزع غير مبرَّر.

وصل أنطونيو كتانيا صباحاً، ولأنه لم يرد أن يقطع شارع إتنا، حيث كان

من الأيسر أن يلتقي بشراً غيَّروا وجوههم وطريقة سيرهم، سلك تقاطعاً صغيراً، يفضي من شارع أومبرتو إلى طريقه ... وهنا قابل أحد أبواب منزله، أي لاحظ، برجفة في قلبه، من أحد أطراف هوَّة مفتوحة على امتداد صفِّ المنازل إلى الآخر، مصراع مألوف له ممدَّد على الأرض، وُضع كمعبر لأولئك الذين يريدون الدخول من الطريق إلى أحد الأبواب، أو الخروج منه. تحرَّك لبضع خطوات أخرى، ورأى على الأرض، بالوظيفة ذاتها، مصراعاً ثانياً من مصاريعه، هذا هنا كان أكثر وضوحاً من الأوَّل، لأنه يحمل اسم أنطونيو محفوراً بطرف مسمار، وبالخطِّ المستقيم الذي كان يخطُّ به وهو في العاشرة من عمره؛ قبل أن يؤدِّي الطريق القصير إلى شارع باتشيني، ها هو مصراع ثالث، أكثر مصاريع منزله قِدَماً، شبه مُهشَّم، ومليء بآثار الأقدام الموحلة التي تبدو غير قادرة على تحمُّل المشاقّ.

- "إذنْ، هل سقط منزلي؟" فكَّر أنطونيو مستديراً في شحوب إلى شارع باتشيني.

لكنْ، كان المنزل قائماً. فقط كانت البوَّابة الحديدية قد انتُزعت من مكانها، وتستند إلى الإطار غير قادرة على الدوران حول نفسها والإغلاق؛ في المدخل، حيث ولج على الفور، وجد شظايا وحطاماً من كل نوع، وفتات زجاج، ومرايا، وأكواماً من الخِرَق البالية، والمخلَّفات؛ عند أطراف السُّلَّم، على باب إحدى الحجرات الصغيرة منزوعة الباب، كان البوَّاب العجوز جالساً كشخص فاقد البصر، وقد ذهبت بعقله صنوف الفزع.

- "دون سيباستيانو" - قال أنطونيو - "كيف حالكَ؟".

تحسَّس البوَّاب، ليتشبَّث بيده، وبعد أن أمسك بها، حملها بالقرب من عينَيْه، وانفجر في البكاء.

- "إنهم يتبوَّلون حتَّى في منزلي - قال متشنجاً - "وإذا ما جرؤتُ على التَّفوُّه بكلمة، يا ويلي، ينبحون في وجهي ككلاب الجزَّار".

- "هل تضرر منزلي؟".

- "سيِّد نينوتسيو، لم تسقط هنا أيُّ قنابل، لكنْ، يبدو أن لصوص هذه الأيَّام يمتلكون أجنحة!".

- "لكنْ، لماذا لم تنمْ في الأعلى؟".

- "ومَنْ يمكنه صعود السُّلَّم؟".

- "أعطني المفتاح!".

- "توجد في الأعلى ابنةَ أختي تقوم ببعض أعمال النظافة".

هرول أنطونيو على السُّلَّم ملتقِياً بغرباء ينزلون، يدري الله من أين، وربَّما بعضهم من شقَّته.

- "إيه" - قال أحدهم وكأنه يحذِّره - "أين تذهب؟ المرأة هنا".

- "ابن الكلب!" قال أنطونيو من بين أسنانه، وبعد أن أقصاه بمَرْفِقه بقوَّة، صَعِد في عُجالة درجات السُّلَّم.

من باب شقَّته كانت تنبعث سحابة غبار كثيفة كدخان خشب رطب، خلف تلك السحابة كانت تظهر وتختفي، بعيداً أو قريباً من الجدار، مكنسة تتحرَّك بقوَّة.

- "لحظة!" قال أنطونيو، بعد أن وصل ملتقِطاً أنفاسه على المستراح.

توقَّفت ابنة أخت البوَّاب التي خرجت عند المدخل، لتنفضَ المكنسة في حَيْرة؛ كانت امرأة في الخمسين من عمرها، دقيقة الجسد كَحَدْبَاء، لكنها منتصبة، وقوية، ومليئة بالحيوية، تميل إحدى وجنَتَيْها للاحمرار، والأخرى إلى القِرمِزيِّ، بسبب رغبة تستولي عليها كُلِّيَّةً.

- "أنا المالك" أضاف أنطونيو.

- "أوه، السَّيِّد دون ألفيو!" هتفت المرأة مستندة بيد على مقبض المكنسة، وغارقة في انحناءة.

- "السَّيِّد ألفيو هو أبي، وقد مات. أنا أنطونيو".

- "أوه، السَّيِّد دون نينوتسيو!" - هتفت المرأة بحماس أكبر - "سأذهب لأعدَّ لسيادتكَ الحجرة التي انقلبت رأساً على عقب. ليتكَ تعلم ما يتطلَّبه إبعاد هؤلاء اللصوص المنفلتين، يأتي بعضهم إلى هنا في كل لحظة، ويقولون إنهم حُرَّاس وإنجليز وأمريكان، والشيطان الذي يُسلِّطهم!".

وبقولها هذا، أسندت المكنسة إلى الجدار، وهُرِعَت صوب نهاية الرواق. أغلق أنطونيو باب المدخل، الوحيد في المنزل كله الذي ظلَّ على حاله، وتبع المرأة؛ لكنْ، عندما بلغ حجرة مكتب الأب، توقَّف مدفوعاً بإحساس بالتعب لم يدركه حتَّى هذه اللحظة. ترك نفسه يسقط على الأريكة التي لم تعد تطنُّ كما كانت في الماضي، وذلك بسبب أن الحلي الصغيرة كانت خاوية، ويكسوها الغبار. أسند أنطونيو رأسه إلى ذراع خشبية، وبينما يدير ببطء شديد عينَيْه، تطلَّع إلى الصور التي صارت أكثر كآبة، والستائر المتداعية، والأبواب منزوعة المصاريع، والشرفة ذات الواجهات الزُّجاجيَّة المُهشَّمة، وفي إطارها يبدو سطح منزل آخر قريب محطَّم، وتبرز منه الدعامات الخشبية. من الطريق تتصاعد باستمرار موجات من الروائح الكريهة، الغبار، وأوراق شبه محترقة ترتفع كما الطيور. يا للتعاسة! يا للتعاسة! ... بَغْتة من نهاية الرواق، جاء صوت مُنهَك: - "أنطونيو! أوه، أنطونيو! أين أنتَ، أنطونيو؟".

تعالى صوت خطوات بطيئة، ومتردِّدة في البداية، ثمَّ سريعة، وواثقة، ومن الرواق ولج رجل، بدا أن الأعوام، بعد أن وقَّرتْهُ ملامسة إيَّاه بالكاد، ومداعبة له، قد انتظرتْهُ ليلاً في الظلام، وأوسعتْهُ ضرباً بالعصا في نوبة غضب مفاجِئ، تاركة في كل جزء منه آثار عصا لكل يوم سالف.

- "إدواردو!" هتف أنطونيو مفزوعاً، وفتح ذراعَيْه، لكنْ، دون أن ينهض من الأريكة، - "إدواردو!".

شدَّ ابن العمَّة على يده مُشعِراً إيَّاه بتشقُّق وجفاف يده، ثمَّ جذب مقعداً، وسقط عليه.

- "إدواردو؟".

- "أجل، أجل" - أجاب الآخر، وهو يلدغ بيمناه راحة يده اليسرى - "أجل! إدواردو!" - أجال نظره المنهَك فيما حوله، وعلا وجهه تشنُّج مرير - "أجل، إدواردو، حقّاً! ... إدواردو!" ترك بعض الوقت يمرُّ على اسمه هذا الذي نطقه هو نفسه بحزن، ثمَّ قال: -"أتعلم من أين أتيتُ؟".

- "لا... أو بالأحرى، أجل ...".

- "من السجن".

- "قالوا لي إنهم أرسلوكَ إلى أحد المعتقلات!".

- "في البداية، كنتُ في السجن، ثمَّ في أحد المعتقلات، ثمَّ في السجن مجدَّداً ... لم أتبرَّأ لأجل هذا من أيٍّ من كلماتي؛ أنا دائماً على الرأي الماضي ذاته! لكنْ، بحقِّ السماء المقدَّسة، من المثير أن ينتظر أحد الأشخاص الحُرِّيَّة لسنوات عديدة ... وأنتَ تعلم كم انتظرتُها! ... وعندما تصل هذه الحُرِّيَّة، يكون أوَّل ما تقوم به هو أن تضعني في زنزانة ذات باب حديدي، ثمَّ في فناء تحيطه الأسلاك الشائكة، ثمَّ مجدَّداً في زنزانة ذات باب حديدي، مثير، مثيرا!".

أطلَّت ابنة أخت البوَّاب من بين الستائر، وسألت أنطونيو إذا كان عليها أن تعُدَّ له الفراش.

- "أجل" - أجاب أنطونيو - "أريد أن أستريح لربع ساعة".

ابتسمت المرأة سعيدةً؛ لأنها استطاعت أن تكون ذات جدوى في شيء جديد، واختفت.

- "كلَّما خبرتُ الزنزانات والأسلاك الشائكة والحُرَّاس ذوي البنادق، ازدادت كراهيتي للطغيان!" - تابع إدواردو - "لم يكن حارسي شرِّيراً، بل كان موظَّف بنك صبوراً، يلوك قليلاً من الإيطالية. ذات ليلة، بينما أنا على جانب من الأسلاك، وهو على الآخر، تحدَّثنا عن شكسبير، وكيتس،

وتطلَّعنا إلى النجوم المعلَّقة فوق رؤوسنا، وتساءلنا إذا لم يكن العالَم قد صار قميئاً إلى الأبد. بدا لي هذا الحوار اللَّيليُّ بين السجين وسجَّانه، وهذا الإفصاح المتبادل عمَّا يدور في السرائر، وتشابك النظرات للتَّطلُّع للنجمة ذاتها، فألاً جيِّداً، لكنْ، كانت البندقية، كلَّما مرَّت إحدى السَّيَّارات بمصابيح مضاءة، تبعث بريقاً يقبض صدري: أتحمل لي بعض الطلقات في حال حاولتُ الهروب ... ثمَّ، ثمَّ ...؟ ماذا أقول لكَ، يا أنطونيو؟ العقل الذي لا يَفقِدُ السيطرة أبداً على أفكاره يختلف عن القلب الذي ينقبض لحاله ... إن الإنسان" - هتف وعيناه تحمرَّان من جهد الامتناع عن البكاء - "يجب ألَّا يسجنه إنسان آخر في فناء، تحيط به أسلاك شائكة، ولا خلف باب حديدي! وإنها لمعجزة أن يخرج منهما غير فاقد للزهو الإنساني حتَّى إنه لا يستطيع الوقوف على قَدَمَيْه؛ على أيِّ حال، تبقى في دمه غريزة حيوان مسكين لا يثق بالبشر، وحاجة للهروب كلَّما شعر بهم يقتربون. في المساء، عندما تحين الساعة التي تمَّ اعتقالي فيها، أذهب لأختبئ في العلِّيَّة ... ولكل عربة مدرَّعة تتوقَّف، يتوقَّف قلبي في صدري. يبدو لي أن الفرقة الثامنة الإنجليزية كلها تبحث عنِّي، وأنها قد أتت إلى أوروبا بهدف وحيد، وهو القبض عليَّ. لا، يا أنطونيو، لا يجب أبداً اعتقال أيِّ إنسان، أبداً! لقد كرهتُ الطغيان، لكنني كنتُ سأكرهه أكثر، إن خبرتُ هذه الأشياء جيِّداً! ... وإنه لمن المثير أن عرَّفتْني الحُرِّيَّة بهذه الأشياء ...".

أصاب النعاس أنطونيو بعد أن هَدْهَدَهُ بخفَّة وقع هذه الكلمات المتباكي، لكنْ، سرعان ما أيقظتْهُ ابنة أخت البوَّاب التي أطلَّت من بين الستائر، لتسأله إذا كان باستطاعته النهوض، لتتحدَّث إليه منفرداً.

أشار أنطونيو بيده أن تنتظر قليلاً. اختفت المرأة مبتسمة.

- "ثمَّ" - تابع إدواردو - "أصحيح حقّاً أن الطغيان تقتله ضربات هذه البندقية؟ -"لتمقت الأثرياء وتحبّ حُرِّيَّة الرأي!" قال رفيقي في السجن، - "ستكون رجلاً تعيساً! فكراهية الأثرياء تؤدِّي بكَ إلى الشُّيوعيِّين الذين

يُلقون بكَ في السجن لأنكَ تُحبُّ حُرِّيَّة الرأي!" لكنْ، ماذا يجب أن أفعل؟ أيشعر حقّاً أولئك الجنود الآخرون الذين يأتون من الغرب بالاحتقار الذي أشعر أنا به تجاه الرقابة والنفي والسجن؟ ألن ينتهي بهم المآل باعتبار هذه الفظائع أشياء عادية؟ أنطونيو، يجب علينا أن نفكّر في هذه الأشياء، وأن نأخذ قراراً يسمح لنا ..."

- "اغفرْ لي" - قال أنطونيو - "سأذهب دقيقة وأعود".

نهض من الأريكة بتثاقل مُحبَّب في ساقَيْه، خرج من المكتب، وبعد أن قطع الرواق، ولج حجرته.

كانت المرأة تنتهي من تمسيد الأغطية، وعندما سمعت صوت الخطى أدارت وجهها وألقت على أنطونيو، منحنية كما هي، نظرة مبتسمة من أسفل لأعلى.

- "ماذا هناك ...؟ ما اسمكِ؟".

- "روزا" قالت المرأة مبتسمة بقوّة أكثر.

- "ماذا هناك، يا روزا؟".

انتصبت المرأة، واستدارت مُتراجعة خطوة على الفور، ومُلقِية بنظرة مرتابة على يده اليمنى التي رفعها إلى وجهه، كما لو أن تلك اليد كانت على وشك التَّحرُّك نحوها.

- "لا شيء، كنتُ أريد أن أسألكَ فحسب ..." تردَّدت المرأة مبتسمة في حرج، ومُشعِلة لأقصى درجة اللون الأحمر في إحدى وجنَتَيْها، والقِرمِزيّ في الأخرى.

- "هيَّا، تحدَّثي! ماذا تريدين أن تسألي؟".

تردَّدت المرأة مرَّة أخرى. - "لا شيء، كنتُ أريد أن أسألكَ فحسب: أتحتاج شيئاً آخر؟".

ملأ طنين مُدَوٍّ رأس أنطونيو؛ شعر بحرارة في حَدَقَتَيْه اللَّتَيْن غلفهما

الضباب؛ وفي الوقت ذاته، كما لو كانت مدفوعة بقوّتها ذاتها، ومحطّمة القشرة الصلبة التي تقوقعت داخلها، اجتاحت موجة من الرغبة أعصابه، ووصلت إلى جسده كله، نبضت، بقوّة قلب عاصف، في نقطة بعيدة ومُهمَلَة منذ سنوات طويلة من جسده.

وبينما هو يترنّح قليلاً، اقترب من المرأة، وبعد أن أمسكها من إبطَيْها، رفعها عن الأرض، وضمَّها إليه.

- "ماذا تفعل؟" - هتفت روزا، بينما تنبعث منها رائحة وحرارة الجسد المضطرب -"لكنْ، ماذا تفعل؟ ... لديَّ خمسة أبناء".

- "لا يهمُّ!" - قال هو - "اصمتي!".

و بينما لا يزال يرفعها من إبطَيْها، ويضمُّها إليه، حملها خطوة إلى جوار الفراش.

- "لكنْ، ماذا تريد أن تفعل؟ أخبِرْني على الأقلِّ!" - كانت المرأة تُكرِّر - "ألا تقول لي ماذا تريد أن تفعل؟".

- "اصمتي! اصمتي! اصمتي!".

- "لكنْ، لا، لن أصمت! قلْ لي، ماذا تريد أن تفعل؟".

- "اصمتي!" - كان يكرِّر - "اصمتي!".

- "أوه، بحقِّ العذراء المقدَّسة!".

- "اصمتي!".

- "أيَّتها العذراء، أيّتها العذراء، أنتَ تُسقطني ...".

كانت قد غاصت في الفراش الذي أصدر قعقعة مترنّحاً. أمَّا أنطونيو، الذي كان يخشى دائماً من زوال تلك الحرارة التي تستولي عليه، ويشعر، على النقيض، بوجهه ينفجر، ودمه ينبض في شرايين جسده كلها، فقد ألقى بنفسه فوق المرأة، وبثورة كلب ينزع بقائمَيه لِفَافَة بداخلها قطعة من اللحم، نزع عنها ملابسها، وضمَّها بقوَّة، وعضَّها وهزَّها يميناً ويساراً،

وأدارها، وأعادها، وهو يزفر باستمرار من بين أسنانه، ويعضُّها، ويضمُّها بقوَّة حتَّى لم يعد يشعر بأيِّ إحساس شَّهوانيٍّ قوي، بل بإحساس مزدوج، كَمَنْ يُظهِر كراهية ظلَّت مكبوتة لوقت طويل، ويتلقَّى، في الوقت ذاته، إهانة كانت بقدر ما تحاسبه على سوء وَقَعَ، ترفع عن كاهله ندماً لا يُحتَمَل. إذنْ، ليشحذ صدره، وأحشاءه، وحلقه، ويُطلق صرخة ...

رمى أحدهم بنفسه فوقه، ليمنعه، واستيقظ على يَدَي إدواردو تُقيِّدانه إلى الأريكة.

- "ماذا يحدث لكَ؟" - كان إدواردو يقول - "لقد صرختَ كما لو كانوا يذبحونكَ، وكنتَ تحاول انتزاع لحم صدركَ! ماذا بكَ؟".

تثنَّى وتقوَّس ضارباً بيَدَيه على الحلي الصغيرة، ومساند اليد، ثمَّ سقط مرَّة أخرى ممدَّداً، وأطلق تنهيدة عميقة.

- "أكنتُ أحلم إذنْ؟" همس بعينَينْ مغمضَتَينْ.

- "قطعاً" - أجاب إدواردو والكدر يملؤه - "كنتُ أتحدَّث، وبدلاً من أن تسمعَني، غرقتَ في النوم!".

- "لقد حلمتُ حلماً جميلاً!"- قال أنطونيو بابتسامة غير واضحة على شَفَتَينْ شاحبَتَينْ - "يا له من حُلم جميل!".

نهض ليجلس، وهو يفرك عينَيْه.

- "إدواردو" - أضاف بصوت مرتعد - "لقد حلمتُ أنني ... أتفهمني؟".

- "لا أفهمكَ ... بماذا حلمتَ؟".

- "حلمتُ أنني أمارس، أمارس حقّاً ... لقد شعرتُ بسعادة قاتلة! وربَّما لم يكن حُلماً أو كانت المرأة هي فحسب الحُلم، لكنْ، أنا ... فيما يتعلَّق بي ... لم أحلم".

هَبَّ أنطونيو من المقعد.

- "إنه بالفعل وقت أحلام المراهقين!" تمتم في حِدَّة.

- "لماذا أخذتَها بحِدَّة هكذا؟" - قال أنطونيو - "يبدو أنني قد أهنتُكَ".

- "لم تُهنّي، لكنْ، إجمالاً، توجد لحظات لا يُحتمَل فيها الشخص ...".

- "أنا أتعجَّب" - قال أنطونيو - " كنتَ دائماً حصيفاً، وطيِّباً، وتفهمني على الدوام".

- "لكنْ، يا عزيزي" - أجاب ابن العمَّة - " يجب أن تفهمَني أنتَ أيضاً!".

- "لقد أخذتَها على محمل سيِّئ، يا إدواردو! ليس هذا جديراً بذكائكَ".

- "لم آخذها على محمل سيِّئ. لكنْ، من وجهة نظركَ" - تابع بصوت قاسٍ - "أيجب أن ننشغل دوماً بتلك الواقعة؟ ألا يوجد شيء آخر في هذا العالَم؟ ... ليته لم يكن هناك شيء آخر، يا عزيزي أنطونيو! فكَّرتُ في المعتقل في أشياء عدَّة، وفكَّرتُ فيكَ أيضاً".

- "بماذا فكَّرتَ فيَّ؟ لنسمع".

- "أنه كان بمقدوركَ أن تأخذ الحادثة التي وقعتْ لكَ بهدوء أكبر!".

- "أتدعوها حادثة؟".

- " أجل، حادثة، وتافهة أيضاً. كانت ستصير حادثة تافهة لأيِّ شخص من بلد آخر. لكنْ، لنا نحن لا! معنا نحن تصير مأساة! لأننا نفكِّر على الدوام في شيء، شيء واحد، هو ذلك! وفي هذه الأثناء، يرمي بنا أحد الطُّغاة في الحرب بدفعة من قَدَمِهِ لمؤخِّرتنا، وتُعيدنا الشعوب الأخرى على آثارنا بدفعة أخرى، ويدخلون منازلنا! النساء، النساء! ... أربع مرَّات، خمس مرَّات، ستّ مرَّات ... ها هي الأشياء التي تُقلِقُنا! لكنْ، أتعلم أنه لا إخلال بالشرف في أن تقضي الحياة كلها في طهارة؟ ... أنتَ جميل، ومحترم، وطويل، وقوي، تتعلَّم بسهولة أيَّ حرفة، وأيَّ علم، أنتَ قادر على أن تفهم كل شيء ... لكنْ، فكِّرْ كم من الأشياء كان بمقدوركَ أن تفعل، إن لم تُغلِق على نفسكَ ليل نهار في تفكير يستهلك داخله الحياة؟ ...".

- "أنا، يا عزيزي إدواردو، أرغب في شيء واحد: ألَّا يكون ما حلمتُ به حلماً!".

- "أوه، يا للرغبة العُظمى! يا للرغبة النبيلة، بحقِّ الله! يا للطموح العظيم!".

- "ثمَّ إنني أرغب في شيء آخر: أن ألتقيَ باربرا، وأصفعَها. أؤكِّد لكَ أنني، إذا التقيتُها اليوم، سأصفعها بقوَّة، تزيل جِلْدها، وتحت ناظرَي أبوَيْها، وزوجها".

- "أوه، يا للبطولة العظيمة! ستُصلح العالَم بهذا: سترفع من شرف إيطاليا، وتحلّ القضية الاجتماعية ...".

- "لا أعبأ كثيراً بتلك القضية الاجتماعية ..." - صاح أنطونيو مُنهَكاً، ثمَّ وهو يرفع صوته أكثر - "ولا بإيطاليا أيضاً!".

- "أوه، قطعاً! عندما تكون بين يَدَي المرء قضايا جسيمة كهذه ...".

- "إدواردو، إذا أردتَ معرفة ذلك، أنتَ اليوم تثير نفوري!".

- "وبالمثل هذا ما تُثيره فيَّ، يا عزيزي أنطونيو. أنا لا أستطيع حتَّى أن أفهم كيف احتملتُ لسنوات طويلة شكواكَ الغبية".

- "وكيف تحمَّلتُ أنا أحاديثكَ التي لا طائل منها".

- "هيَّا، لِنُنْهِ الحوار، تحيَّة" - نهض إدواردو، وتناول القبَّعة من فوق طاولة المكتب. - "عندما لا يعود الحُلم كذلك ... حُلماً، ضَعِ الراية في الشرفة، هكذا سأفهم. إلى اللقاء ... وراية أخرى عندما تصفع باربرا. وداعاً".

وبينما هو في طريقه للخروج من المكتب، التفت إدواردو ليرى إن كان أنطونيو قد انفعل، لكن أنطونيو كان يتطلَّع إليه باحتقار كبير.

- "أحمق!" - تمتم إدواردو من بين أسنانه - "رجل بلا قيمة ... مَهْوُوس ... أبله ... بلا نفع".

وصل في هذه الأثناء إلى شارع إتنا، وكان يحاول تجنُّب مجموعات الجنود الذين يترنَّح بعضهم، وهم سُكارى، بمجرَّد أن يقتربوا منه، ليسقطوا فوقه، كما لو كان فراغاً.

- "شابٌّ محطَّمٌ ... بذلك الشاغل في رأسه دوماً ... بعينين سارحَتَيْن دوماً، يعلم الله ماذا تريان؟ ... لقد جعل منه دينه، إلهه ... أوه، يا للبؤس!".

وبينما هو يفكِّر على هذه الوتيرة، ويلوك بعض كلمات، وصل أمام منزله، واجتاز البوَّابة التي أعادت ابنة البوَّاب غَلْقَها على الفور.

- "إلَّا أنني أحتاج بشدَّة للبوح له ... لقد ترك المرارة كلها في جوفي ... إن لساني مُرٌّ كالسُّمِّ ... وأنتِ، جيوفانّا، لأيِّ شيطان تُغلقين الباب، كما لو كنَّا في منتصف الليل؟".

- "سيِّدي، أنا وحيدة، وأخاف الجنود. يأتون للداخل بعيون مخبولة، ويريدون ما لا أعلمه".

- "هيَّا، أنتِ تعلمين ماذا يريدون".

- "أنا لا أعلم شيئاً، يا سيِّدي".

- "دعكِ من هذا، بل تعلمينه!".

- "سيِّدي، فكِّرْ كما تريد، لكنْ، أنا لا أعلم شيئاً!".

- "إذنْ، إذا كنتِ لا تعلمين، اجعلي أحداً يُعلِّمكِ إيَّاه!".

- " يجب أن يُعلِّمني أحد شيئاً؛ لأنني لا أريد أن أتعلَّم شيئاً من أحد!".

- "ولا حتَّى منِّي؟".

- "ولا حتَّى منكَ، يا سيِّدي".

- "هيَّا! منِّي ...".

- "ولا حتَّى منكَ، يا سيِّدي، قلتُ ... ولتدع وجهي!".

- "أوه، كم أنتِ رقيقة!".

- "أنا كما أكون ... ولتترك يدي!".

- "أوه، بحقِّ الله، ولاحتَّى يدكِ؟".

- "ولا حتَّى يدي؟".

- "وهذا الأنف الصغير؟".

- "لتدع أنفي! ... أوه، بحقِّ الله المقدَّس!".

- "إذنْ، ماذا بوسعي أن ألمسَ؟".

- "لا يمكنكَ أن تلمس شيئاً! ... لا، يا سيِّدي، لا!" - صرخت المرأة المسكينة بَغْتة منزعجة: - "ماذا تفعل، بحقِّ الله المبارك؟ وماذا رأيتَ اليوم؟ ... ماذا حلَّ بكَ؟".

كان إدواردو حاسماً وسريعاً، ولم يتخلَّ للحظة واحدة عن هيئته كرجل ثائر.

عندما نهض، وجفَّف جبينه، غضَّ طرفه على الفور حتَّى لا يتطلَّع للمرأة مباشرة، بينما هو يرى منها بالفعل في وضوح، في الحركات التي تنفض بها تُّورتها، وتبسطها، حنق صامت وثورة؛ وضع قَدَمَهُ على الدرجة الأولى، وبدأ صعود أوَّل مجموعة من درجات السُّلَّم ببطء، ثمَّ الثانية، ثمَّ الثالثة في عُجالة. وما إن ولج المنزل، وفتح في تأفُّف مصراعَي الشرفة، حتَّى توجَّه للهاتف، وأدار رَقْم منزل أنطونيو.

- "مَن المتحدِّث؟" - سأل الصوت المنهَك لابن الخال - "مَنْ إذنْ؟ ... آلو! ... مَنِ المتحدِّث؟".

ران صمت من الناحية الأخرى.

- "لكنْ، إذنْ، مَن المتحدِّث؟ أيمكنني أن أعرف؟".

صمت.

- "آلو! آلو! ... مَنِ المتحدِّث؟".

انفجر إدواردو في النحيب.

ظلَّ أنطونيو متردِّداً للحظة. ثمَّ قال: - "أهذا أنتَ، يا إدواردو؟".

صار البكاء من هذه الناحية أكثر وضوحاً، وبُطئاً، وتعثَّر كما لو كان يترك

مساحة لكلمة لم تأتِ، ترك شهقتَين أو ثلاثاً عميقات، تُنقِّي الصدر من تشنُّج البكاء، وفي النهاية توقَّف.

- "أجل" - قال إدواردو - "هو أنا ... أطلب مغفرتكَ".

- "مغفرتي؟ ولأيِّ شيء؟".

- "لقد جرؤتُ على توجيه اللوم لكَ! ... أنا ... أنا" - وهنا أصابتْهُ غُصَّة أخرى - "أنا الأخير بين الرجال! أنا الذي ...".

- "لكنْ، ماذا فعلتَ؟".

- "لكنْ، يجب أن تبصق عليَّ، يا أنطونيو، يجب أن تسير على وجهي، ثمَّ تُنظِّف حذاءَكَ!".

- "لكنْ، ماذا فعلتَ؟".

جعل انفجارٌ بعيدٌ للغاية زجاجَ الشرفة يرتجُّ ببطء، وبدا كأنه يخفت ضوء السماء.

- "ماذا فعلتَ؟".

قصَّ إدواردو، بكلمات قاسية على نفسه ما حدث عند أطراف السُّلَّم.

عندما انتهى، ران صمت. كان إدواردو ينتظر أن يتحدَّث الآن ابن الخال. لكنْ، انتظر بلا جدوى. على الطرف الآخر من الخطِّ، ساد الصمت.

- "ما رأيكَ؟" سأل إدواردو متضايقاً.

لا يزال الصمت.

- "إذنْ، ما رأيكَ؟".

واصل أنطونيو الصمت، بالرغم من أنه أظهر أنه يُصغي السَّمْع. وأوضح شيئاً آخر، بَغْتة، فبدلاً من أن يدين أو يلوم إدواردو لما قام به عند أطراف السُّلَّم، كان يغبطه، بكل قطرة دم في قلبه. كان يغبطه بالأفكار كلها التي تدور في رأسه، ووصلت بقوَّة أكبر، وكثافة، وحِدَّة، عبر سلك الهاتف، إلى إدواردو حرارة تلك الغبطة.

- "لا!" - صاح عندئذ بقوَّته كلها - "لا، لا، لا! يا أنطونيو، صدِّقني ... برأس أبنائي، ليس كما تقول أنتَ!".

- "أنا لم أقل شيئاً!" قال أنطونيو، وبعد أن شهق بعنف احتفظ به قدر استطاعته، مغلقاً سلك الهاتف بصمت مطبق. حتَّى انفجر بغتة في البكاء.

لم يكن هذا بكاء إدواردو، بل كان أكثر انقباضاً، وأشدَّ يأساً، يتخلَّله أزيز صدر لم ينفتح منذُ سنوات طويلة على شهقات السعادة العميقة.

ظلَّ إدواردو يُنصت إليه لبضع دقائق، ثمَّ، وقد شعر أنه لا توجد إشارة لتوقفه، نزع السَّمَّاعة مُحبَطاً عن أذنه، وطَفِقَ يتأمَّلها؛ تأمَّلها طويلاً، بانعدام ثقة، ومرارة، بينما كانيسمع صوت تشنُّجات المراهقة المتأخِّرة تلك.

-"مثير هذا كله!" قال، وجفَّف دمعة، فَقَدَت حرارتها على وجنته، "مثير حقّاً!".

ثمَّ، على مهل، وبرقَّة، أغلق الهاتف.



فيتاليانو برانكاتي

(1907 - 1954): وُلد في باكينو، ودرس الآداب في كاتانيا. بدأ الكتابة في سنٍّ مبكّرة. وفي سنِّ 25 عاماً، كان قد ألَّف ستَّة كُتُب، تأثَّرت، إلى حَدٍّ كبير، بالمُثُل الفاشية، ونَبَذَها المؤلِّف ذاته لاحقاً حين تبرّأ من اتِّجاهه السابق. حقَّق برانكاتي نجاحه الأوَّل، وربمَّا الكبير، في عام 1941، مع رواية «دون جوفاني في صقلية»، وهي صورة نابضة بالحياة لروح صقلية وعاداتها. في عام 1944 كتب رواية «الأعوام الضائعة»، ووجَّه فيها هجاء حادّاً لشخص موسوليني، وتلى ذلك رواية «أنطونيو الجميل» عام 1949، ثم آخر روايات ثلاثيته «باولو الساخن» التي صدرت عام 1955بعد وفاته.



برانكاتي "من أولئك الرجال القلائل الذين وُهبوا القدرة على خلق كيفيات إحساس جديدة وأصلية، وأصوات لن يقهرها صمت الزمن"

(ألبيرتو مورافيا)

تبدو مدينة كتانيا الصقلية، التي تدور فيها أحداث «أنطونيو الجميل» فاشية حتّى النُّخاع، حيثُ لا صوت يعلو على صوت إثبات الرجل فحولته عمليّاً مع المرأة. يتحول أنطونيو الذي كان الشّابُّ الجميل، الذي طالما كان محطّاً لوَله النساء، وحسد الرجال، وطالما رُويَتْ عنه حكايات الغرام؛ فريسةً لنظرة المجتمع المنتقدَة بلا هوادة، بعد أن يُكتشف عجزه الجنسي. وهكذا تصبح، أيضاً، عائلته، التي تستقبل تصريح والد الزوجة باربرا، بأن ابنته ظلّت عذراء كما خرجت من منزله، وطلبه اعتبار الزواج كأنه لم يكن، ككارثة حقيقية. ليأتي إذعان الزوجة لرغبة أُسرتها، وزواجها بعد الطلاق بآخر أكثر ثراء ونفوذاً، ليزيدَ من أزمة أنطونيو!

هذه واحدة من الروايات المؤسسة في الأدب الايطالي والتي صدرت في أوج حركة «الواقعية الجديدة»، التي كرَّست رواياتها لتجربة كُتَّابها الشّخصيَّة ومُعاناتهم تحت حُكم الفاشية، إلّا أن رواية برانكاتي تسيطر فيها نزعة الزّهوّ الذكوري على أُفق الفاشية التّاريخيّ والإيديولوجي بشكل مباشر، حين تنتقل نظرة برانكاتي من الحياة العائلية إلى الحياة العامّة، من منازل البرجوازيّين إلى مراكز النفوذ السّياسيّ، ومن المشاعر والرغبات الشّخصيَّة إلى التاريخ الايطالي والأوروبي بين عامَي 1930 و1943.

حصلت هذه الرواية على جائزة باغوت 1950، ونقلت إلى واحد من روائع السينما الإيطالية 1960 بإخراج ماورو بولونيني.

الناشر


ISBN 978-88-32201-70-3
9 788832 201703

المتوسط